

الشعر فى عصر النبوة

الدكتور

محمود عكاشة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

٢٠٠٥ / ١٥٩٢٦

رقم الإيداع :

977 - 6149 - 17 - 0

الترقيم الدولى :

الناشر

الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعى

٨٢ شارع وادى النيل ، المهندسين ، القاهرة ، مصر

تلفاكس: ٥٦١ ٣٠٣٤ (٠٠٢٠٢) E-mail: J_hindi@hotmail.com

مكتبة دار المعرفة

٤ شارع السرايات أمام هندسة عين شمس ، القاهرة ، مصر

ت : ٦٨٤٤٠٤٣ E-mail: Dar_elmaarefa@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين. أنزل الكتاب بلسان عربي مبين، على محمد ﷺ النبي العربي الأمين، ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وبعد

فالشعر ضرب من القول في العربية، وهو فن القول الأول عند العرب الجاهليين والإسلاميين، وقد بلغ شأواً عظيماً في حياتهم، وقد قامت عليه عوامل كثيرة قدمته على غيره من فنون القول ترجع إلى طبيعة الحس العربي وذوقه والظروف التي عاشها العرب والأحداث التي كانت سبباً مباشراً في تطوره وانتشاره وضخمت دوره، ورفعت من شأنه. ولا شك أن الشعر في العصر الجاهلي قد وصل إلى مرحلة عالية الجودة، فصار نموذجاً لما بعده ومضرباً لكل من أراد أن يحترف الشعر.

وللشعر دور كبير في الحياة العامة وأثر جليل في الحياة السياسية وأحداثها، فقد كانت الصراعات القبلية سبباً مباشراً في ظهور لواء الشعر في الأحداث وعلو مكانه وخطره في الصراع، فقد شارك مشاركة فعالة في الحروب، والتنافس على السيادة والدعاية، وسكن الشعر في الجاهلية بلاط الملوك.

وازدادت خطورة الشعر في الإسلام وعظم دوره وظهرت أهميته بعد الهجرة عندما أصبح للإسلام كيان سياسي يهدد أعداءه، فتحول الصراع القبلي إلى صراع حول الدولة، فالمشركون يتعصبون لقبليتهم ودين آبائهم وتراث الجاهلية، والمسلمون صارت لديهم عاطفة جارفة وحماس طاغ وولاء صادق لدينهم الجديد الذي لا يشكون فيه، وقد طرحوا أمر الجاهلية عن كواهلهم، وأصبح الموت فيه غايتهم.

وظهرت تيارات عصبية (قبلية)، ومذهبية (طائفية) وشعبوية (عنصرية) قام بها بعض الموالى) وهي ذات طابع سياسي، ويقف من وراء هذه التيارات الشعراء والخطباء يدافع كل واحد منهم عن حزبه ورأيه «كل حزب بما لديهم فرحون»، وهذه التيارات لم تكن في عصر النبوة بل ظهرت بتأثير الثقافات الوافدة والصراعات السياسية والنعرات القبلية والقومية، وقد كان الحمية القبلية هي أعلى صوت سياسي يمثل خطراً على الأمة الإسلامية التي تجمعها إخوة الدين وقد ذمها الإسلام، وقد استطاع النبي ﷺ أن يؤسس كياناً جديداً في الإسلام يتجافى عن العصبية القبلية، ووجه عصبية القبائل وقوتها إلى نصرة الإسلام، فجعل لكل قبلية لواء تقاتل تحته، فتفخر بانتصاراتها في الإسلام.

وقد سلك النبي ﷺ طريقاً يسيراً سهلاً في دعوته فيه حكمة وموعظة حسنة، ودعى الناس بالتى هي أحسن، ولم يك فظاً ولا غليظاً بل رءوفاً رحيماً عفواً كريماً، ووصفه الله تعالى بأطيب وصف وأحسنه وأكملته فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وكان هذا الخلق العظيم منهجه في إعلام الناس بدين الله تعالى وما يدعوا إليه من عبادة وخلق وسلوك وقول وعمل، فأعلمهم الله تعالى ربهم الأعلى، وهو إله واحد، وما يعبدونه من دونه ضلال، وهو (محمد ﷺ) عبد الله ورسوله إليهم أجمعين.

وكان الإعلام مسئولية شاقة فقد قاتله عليه القريب البعيد والداني والقصي، فصبر وأدى الأمانة وناصره رجال أشداء صادقون بأنفسهم، وأقوالهم، فقاتلوا المعاندين تحت لوائه، وقاتل معه رجال الكلمة من الخطباء والشعراء بألسنتهم، فنافحوا عنه وردوا على خطباء المشركين وشعرائهم، وكان لخطبهم وشعرهم على المشركين وقع السيف، وكان الشعر أشد وقعاً عليهم وأعظم أثراً فيهم، فقد جند شعراء المسلمين أنفسهم للدفاع عن الإسلام ورسول الله ﷺ .

وقد وقعت اختياراتي الأدبية من هذا العصر لأهميته وأثره في العالم والحياة الأدبية، فقد نهض الأدب بفضل القرآن الكريم نهضة عظيمة واسعة، فقد توسعت مداركه وأغراضه وتطورت لغته وارتقى أسلوبه فتجافى عن البداوة ووحشتها وغلظتها وتكلفها وغرابتها وهذا من طيب فيح القرآن الكريم وأريجه على اللغة والأدب.

والهدف من هذا الكتاب تصحيح ما قيل عن أدب هذا العصر من وضع أو انتحال أو سرقة أو تزيف وما اتهم به من ضعف أدبي وما قيل عن موقف الإسلام من الشعر وما ذكر حوله من أوهام التحريم أو أن الصحابة رضوان الله عليهم تركوه اكتفاء بالقرآن الكريم، وأن الشعراء توقفوا عن إنشاده، وهذا مما لا وجه لصحته ولا سند لحقيقته.

وغايتنا من بعد ذلك أن ينفعنا الله تعالى به، فقد تجافينا فيه عما يغضبه سبحانه وتعالى وأردنا به النفع لقارئه، وهذا ما نحرص عليه أبداً.

والله أسأل أن يبلغنا رشدنا وأن يهدينا إلى ما يحبه ويرضاه.. آمين.

والحمد لله رب العالمين ،،،

الدكتور محمود عبدالعاطي عكاشة

القاهرة . لاظو غلى

شعبان ١٤٣٥ هـ ، أكتوبر ٢٠١٤ م

الإسلام والشعر

الشعر كلام منظوم مقيد بوزن وقافية يقصد به الشعر، فيعبر عن وجدان قائله حقيقة أو مجازاً ويوافق عرف العربي في الشكل والمعنى.

واشترط فيه الوزن ليكون شعراً، وجعلت له قافية ليخالف كلام العرب المنثور الذي قد يقع على وزن الشعر، ولا يقصد به شعراً.

وتسمى المنظومات التي نظمت في علم من العلوم شعراً مجازاً، لمشابهتها وليست بشعر، لأنها لا تعبر عن وجدان قائلها بل تعبر عن علم صيغ نظماً ومنها ألفية بن مالك في النحو والشاطبية في القراءات وشعر الملاحم والسير، فليس الكلام المنظوم بشعر، فلم يقصد به الشعر أو التعبير عن شعور وجداني.

وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ سأل عبد الله بن راحة رضي الله عنه: "أخبرني ما الشعر يا عبد الله؟ قال: شيء اختلج في ثم أقول، يريد أنه يشعر بشعور في نفسه، فيزور كلاماً ويقولُه^(١).

فيشترط في الشعر: أن يكون تعبيراً عن تجربة وجدانه وحالته النفسية، وحده القصد إليه، فلا يعد ما وقع موزوناً اتفاقاً شعراً، وأصله من دقّ وشعرت بكذا علمت علماً دقيقاً، وهو من الشعور^(٢).

وقد جاء ذكر الشعر والشعراء في القرآن الكريم والحديث الشريف، فقد جاء الشعر في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وجاء ذكر الشاعر مفرداً في أربعة مواضع هي: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ

(١) ارجع إلى طبقات فحول الشعراء ج١/ ٢٢٥، والعقد الفريد، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٧٨/٥، ووثق الطبراني رجاله، وقال: ورجاله ثقة، إلا أن مدرك بن عمار لم يدرك بن راحة.

(٢) الرجز نوع من الشعر عند الأكثر وبعضهم رأى أنه ليس بشعر، فلم يعتدوا بها ارتجز به النبي ﷺ شعراً، وسمى رجزاً لتقارب أجزائه واضطراب اللسان به.

والحداء: ما يحدو به حادي الإبل من غناء مخصوص قصير وله إيقاع عال ليضطرب به الإبل، فتسرع، والحداء يكون غالباً بالرجز، وقد يكون بغيره من الشعر، ويلتحق بالحداء الحجيح المشتغل على التشويق إلى الحج بذكر الكعبة وغيرها من المشاهد. ونظيره ما يحرض أهل الجهاد على القتال مما يرتجزون به لدفع الهمة، ومنه غناء المرأة لتسكين الولد في المهد، وهي أغاني قصيرة ذات إيقاع سريع - ارجع إلى فتح الباري، لابن حجر، دار التقوى للتراث - ج١٠/ ٦١٥.

بَلْ هُوَ شَاعِرٌ قَلِيلًا نَدَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿الأنبياء: ٥﴾، «وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلَهُنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ» [الصافات: ٣٦]، «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُتُونِ» [الطور: ٣٠]، «وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُوْمِنُونَ» [الحاقة: ٤١].

وجاء اللفظ جمعاً في وضع واحد، قوله تعالى: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» [الشعراء: ٢٤٤].

وهذه الآيات لا تحمل على معنى تحريم الشعر مطلقاً، بل تعني نفي الشعر عن النبي ﷺ، فإنه ليس بشاعر، وليس له أن يكون شاعراً فلا يملك أداة الشعر، فلم يفطر عليه وما يقول وحى من عند الله تعالى. والآية التي جاء فيها ذكر الشعراء تتعرض لفريق منهم وهم أصحاب الغواية ممن يكذبون ويفحشون في القول ويهتكون الأعراض.

وقد اتهم المشركون النبي ﷺ بالشعر زوراً فبرأه الله من الشعر، وما يتلوه من القرآن ليس بشعر فأيات القرآن الكريم لا تعارض الشعر في الأوزان وأعاريضها وضروبها، ولا في القوافي وعللها. وما جاء في القرآن الكريم مساوفاً الوزن ليس بشعر؛ لأنه لا يتجاوز آية أو بعضها، وهذا يقع في كلام الناس فقد يقع بعضه على بعض، ولا يعدان كلاماً واحداً وإن اتفقا لفظاً ووزناً، فهو توارد خواطر وقع فيهما معاً.

وقد وقعت بعض آيات القرآن على بعض أوزان الشعر فشاكلته ولكن غالبها أشطار أبيات والقليل منها وقع وزن بيت تام.

فمن التام قوله تعالى: «النَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» [التوبة: ١١٢]. رجز: مستفعلن.

«وَأَوْفَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَزَّزْ عَظِيمٌ» [النمل: ٢٣]. الكامل: متفاعلن، «مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَائِمَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا» [التحریم: ٥]، الرمز: فاعلاتن، «فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَبِينٍ» [الذاريات: ٢٦]. وافر: مفاعلتن.

وقوله تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ» [الطور: ٤٩]. الكامل: متفاعلن، وقوله تعالى: «وَجَفَّانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ» [سبا: ١٣]. الرمز: فاعلاتن، فاعلاتن، وقوله تعالى: «وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ» [التوبة: ١٤] وغيرها. الرجز: مستفعلن.

وما جاء مشطوراً كثير جداً في القرآن الكريم^(١).

قال الخليل بن أحمد صاحب العين: كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن كان لا يتأتى له، فإن قلت فقلوه (يوم حنين): "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب"، وقوله ﷺ: "هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت؟". وقد نسب إلى النبي ﷺ، فلا يعرف أحد بهما^(٢).

قال الخليل: "ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمي به على السليقة من غير صنعة، ولا تكلف إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه أن جاء موزوناً، كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً، ولا يخطر ببال المتكلم أنها شعر"^(٣).

وقد ذكر ابن عبد ربه البيهقي السابقين ثم قال: فهذا من المنثور الذي يوافق المنظوم وإن لم يتعمد به قائله المنظوم. ومثل هذا من كلام الناس كثير يأخذه الوزن، مثل قول عبد مملوك لمواليه: اذهبوا بي إلى الطبيب، وقوله قد اكتوى.

ومثله كثير مما يأخذه الوزن ولا يراد به الشعر. ولا يسمى قوله النبي ﷺ وإن كان موزوناً شعراً، لأنه لا يراد به الشعر ولو تطلعت في رسائل الناس وكلامهم لوجدت فيه ما يحتمل الوزن كثيراً ولا يسمى شعراً، ومن ذلك قول القائل: من يشتري باذنجان. تقطيعه: مُسْتَفْعَلُنْ مَفْعُولَات. وهذا كثير^(٤).

وقد جمع بن حجر آراء العلماء فيما ارتجز به النبي ﷺ ولم ينسب لأحد غيره: بعضهم رأى أنه رجز وليس من أقسام الشعر وهذا مردود وبعضهم يرى أن ما نسب إليه كلمات يسيرة ولا تسمى شعراً وبعضهم يرى أنه خرج موزوناً ولم يقصد به الشعر. ورأى ابن حجر أن هذا أعدل الأجوبة^(٥)، وقد سبق إلى هذا الرأي الخليل بن أحمد رحمه

(١) فتح الباري جـ ١٠/٦١٩، وقد جمع ابن حجر آيات كثيرة وقعت في وزن الشعر ومشاكلته، وذكر بعضاً منها ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد جـ ٥/٢٨٣

(٢) الكشف جـ ٣/٦٦٣ وارجع إلى صحيح البخاري باب غزوة الفتح، وارجع إلى: العقد الفريد ٥/٢٨٢.
قال البراء بن عازب رضي الله عنه: لما كان يوم حنين رأيت النبي ﷺ والعباس رضي الله عنه، وقد جاء البيت الأول في باب غزوة الفتح، بصحيح البخاري، وجاء الثاني في كتاب الأدب باب ما يجوز من الشعر.
(٣) المصدر السابق.

(٤) العقد الفريد ٥/٢٨٣

(٥) فتح الباري، أحمد بن حجر العسقلاني، دار التقوى ٧/٦٣٠

الله. ولم يقل النبي ﷺ شعراً ولم يروه عن أحد، بل كان يستنشد أصحابه الشعر، فيذكر شطر بيت أو جزءاً منه يستكمّله ممن يحفظه، فينشده ما أراد، ولم يرد في حديث صحيح أنه كان يحفظ شعر شاعر أو قصيدة كاملة، ولكنه كان يستحسن بعض ما يسمعه من غيره ويستملحه.

والنبي ﷺ لم يكن محترف الشعر، ولا من رجاله، وهو في ذلك مثل عامة أقرانه ينشدون الشعر في مشهد يستدعيه أو يرتجزونه في شدة أو حرب أو سفر فيتشاكلون به عما هم به، ولا يقال لهم شعراء ولا يدعون ذلك، فقد كان الشعر منهم قريباً يأتيهم أنى طلبوه.

وقد وقف صناديد قريش في وجه الدعوة، وشنوا حرباً واسعة عليها، ولم تك هذه الحرب على محمد ﷺ إنكاراً لنبوته، فقد كان بعضهم يعلم أنه نبي وأن القرآن الكريم ليس من قول البشر، لكنهم جحدوا ذلك كبراً وعنجهية وحسداً، فطعنوا في عقله، فقالوا: مجنون وشككوا في سلامته فقالوا مسته الشياطين والجان، وطعنوا في الوحي، فقالوا: تنزل عليه الشياطين والجان فيوحون إليه بما يقول أو هو من فعل السحر أو تكهن به، افتراه فألفه من عنده.

وطعنوا فيما يقول فقالوا: هو شاعر وما يقوله شعر، وهم يعلمون أنه ليس بشيء مما يرمونه به.

وكان لقريش مواسم تجتمع إليهم العرب فيها، ومنها سوق بمكة وسوق عكاظ قريباً من مكة، وموسم الحج، وكان النبي ﷺ يخرج إلى العرب فيهم فيحدثهم عن دينه ويدعوهم إليه، ليجد لنفسه مكاناً خارج مكة وأتباعاً ينصرونه، وقد اقترب موسم الحج، وكان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل فيه، وقد فشى أمره في العرب، وحرص بعضهم على لقائه فضولاً أو لعلمه به، وقد تشاور نفر من قريش في أمر النبي ﷺ، فأرادوا أن يرموه بأمر في موسم الحج لئلا يتبعه أحد، فكان مما رموه به أنه كاهن، فقال لهم الوليد بن المغيرة، وكان أسنهم: لا - والله - ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، فقالوا: نقول إنه شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، وقد رموه بالسحر، والجنون^(١).

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا

أَرْسِلَ الْأَوَّلُونَ [الأنبياء: ٥]. لقد ضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد، فقولهم الثاني أفسد الأول، والثالث أفسد الثاني، والرابع أفسد الثالث، فزعمهم فيه فاسد^(١).

وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ شاعر ليصرفوا الناس عنه. وقيل: إن القائل عقبة بن أبي معيط، فقال الله تعالى: **(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)** [يس: ٦٩] أي: ما علمناه بتعليم القرآن الشعر، فالقرآن الكريم ليس شعراً فيتعلم منه قول الشعر، بل هو ذكر من الله واضح ومبين فليس من الشعر، فالشعر كلام موزون مقفى يدل على معنى، وليس القرآن الكريم على حال الشعر، وما ينبغي للنبي ﷺ أن يكون شاعراً، فما يحق له، ولن يستطيع قرض الشعر ولن يتأتى له ولن يتسهل؛ لأن الله تعالى حال بينه وبين الشعر فلا يقدر عليه، فلم يجعله شاعراً، وجعله أمياً لا يكتب ولا يقرأ كتاباً، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض.

فالقرآن الكريم ليس من جنس الشعر، وإن وقع فيه لفظ موزون فلا يعد شعراً، فمثل ذلك يقع في كلام الناس؛ لأنه ليس مقصوداً، بل هو لفظ شاكل وزناً، ولا يتخطاه إلى غيره. وأكثر ما رموه به الشعر لأثر الشعراء فيهم، ومنزلتهم من قبائلهم وتلاعبهم بالقول، وميلهم إلى العبث، والمجون واللهو، وتمردهم على قبائلهم وخروجهم على العرف والتقاليد وقيم الحياة الخلقية واستخفافهم بالأمر، وشذوذ بعضهم.

وكان بعض الشعراء يعبر عن خياله وتجربته الشعر بمس الجن وفعل الشياطين، ويصنع الأساطير، فيدعي أنه يتصل بالجن، ويروي عنهم الشعر ويحدث ويزعم أن لهم قبائل، وأودية يسكنونها مثل وادي "عقر" ووادي "وبار". فالجان يلهمون الشعراء ويأتونهم بالأساطير ويمنحونهم الألفاظ لتكون حال معانيهم، والبيئة الجاهلية كانت تتقبل ذلك وتفتن به لضعف معارفها وصفاء قريحتها واتساع مخيلتها.

والشعراء كانوا يضعون أنفسهم موضع الكهان، ليرهبوا الناس بقولهم، وليجعلوا له أثراً مروغاً فيهم، فيتخرصون الأحاديث، ويدعون ما ليس لهم ويخبرون عن الغيب، ويقولون ما لا يفعلون، ويتكلفون في القول ويسرفون فيه، وكان لهذا الأسلوب أثره، ومن ثم كان الكاهن يعبر عن تكمته بالشعر والسجع، وكان قولهم لا يخلو من خرافة أو تخرص.

فقد كان الشعر مخلوطاً بالخرافات والأكاذيب ، وينسب ذلك إلى الجان ، فارتبط الشعر بالكهانة والجن، والمجتمعات البدائية يسيطر عليها الدجل والشعوذة والخرافة، وكان الشعراء يتبارون في مخاطبة هذه العقول، ويلجئون إلى وجدان المتلقي بالإفراط في المعنى والخيال والإثارة، ليجد سرعة الاستجابة ويترك أثراً غائراً في وجدانه يبقى طويلاً.

ولم يك المتلقي ساذجاً في كل أمره، فقد فطن إلى أكاذيب الشعراء وتكلفهم حيناً، وأن الشياطين لا تنزل عليهم في كل حال، ومن ثم طعنوا في نبوة النبي ﷺ، وقالوا شاعر تكذيباً لحديثه وطعناً في دعوته ونسبها إلى كلام البشر الملق والمصنوع.

وربط المشركون بينه وبين السحرة والكهنة والشعراء ليبطلوا دعوته، وليتهموه بالتقول على الله تعالى، وليقطعوا صلته بوحى السماء، فزعموا أنه من عنده وأنه من شاكلة كلام الكهان والسحرة والشعراء.

ولم يك هذا الذم قليلاً من شأن الشعر وازدراء به بل كان من قبيل نفى السوحي عنه وجعله من جنس قول الشعراء، وما يتقولونه من حديث.

والشعر لم يكن مذموماً فيترك، بل كان العرب يعرفون أنه من قريحة الشاعر، وقوته في جودته، فنسبوا ما يقوله النبي ﷺ إليه، لينفوا عنه صفة الوحي وأنه منزل من عند الله، فانكهنة يتحدثون بما يلقيه إليهم تابعهم من الجان، وتوحي الشياطين بالشعر إلى الشعراء وقد صدقوا الشعراء بادعائهم أن الشياطين تنزل عليهم ليجعلوا شعرهم فوق كلامهم، وأن أثره واقع بهم. وقد رد الله تعالى عن نبيه ﷺ فقال: ﴿هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَى مَنْ نَنْزَلُ الشَّيَاطِينَ﴾ (٢٢١) ﴿نَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٢٢) [الشعراء]. ومحمد ﷺ ليس بكاهن ولا شاعر، فليس بأفَّاك وليس بأثيم.

وهذا الطعن في نبوته، يوحى من بعيد أن قوله كان فوق قولهم، وأنهم عجزوا عن مشاكلته أو محاكاته وأنهم كان يسحرون ببيانه ومضمونه، فتخطبوا في الطعن فيه فادعوه ساحراً وكاهناً وشاعراً ومجنوناً عجزاً، ولججاً، وفسدت كل هذه الادعاءات؛ لأنهم كانوا يخفقون في كل سجال ومباراة، وبعضهم اعترف أنه ليس من قول البشر، ولكنهم جحدوه وكفروا به كبراً.

وقد جعلوا أثر القرآن الكريم نوع أثر الشعر وسحر بيانه بيد أنه يعلو ولا يعلى عليه، وأن محمداً ﷺ قد أحسن صنعته، فأحكم لفظه، ونمق نسجه ووشاه وسبكه، وأعلى بيانه، واصطفى مضمونه وحلّاه وجمله، فأغرب في خبره، ورهب ورغب، ووعد وتوعد.

ولكنهم أعربوا فيما بينهم أنه ليس من قول البشر وأنه يعلو ولا يعلو عليه ، وقد عبر القرآن الكريم عن شأنهم الهش ولجاجهم واختلاطهم فيه.

حكم قول الشعر شعراً

جاء في القرآن آيات ذكرت الشعر في بيان طعن المشركين في القرآن الكريم، فزعموا أنه من الشعر، وجاء في بعض الآيات ذكر الشاعر في بيان رمي المشركين النبي ﷺ بالشعر، وهذه الآيات لا تحمل على إباحة الشعر أو تحريمه، بل جاءت في سياق طعن المشركين في القرآن الكريم ونبوة النبي ﷺ.

والشعر فن من القول منه الحسن ومنه القبيح. وقد جاء ذم بعض الشعر أو أنواع منه على ما فهم من تفسير قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

وقد حمل بعد العلماء - وهم قلة - الآيات على الكراهة أو ذم الشعر، واستدلوا بنص حديث: "لأن يمتلئ جوف الرجل قيحاً يريه خير من أن يمتلئ شعراً"^(١). وظاهر النص يوحى بالتحريم، ولكن ما عليه معظم العلماء إباحة قول الشعر، واستدلوا بأحاديث كثيرة صحيحة تجوز الشعر وأن النبي ﷺ استمع إليه واستنشد الشعراء، واستحسن بعضه وحملوا ما جاء في الآية على المستقبح منه مما فيه حرمة، وأن ما جاء في الحديث السابق على ما ذمته الآية من قبيح القول. جاء في الحديث: "حسن الشعر كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام".

وروى: "الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام"^(٢).

وذكرت الآية أن الشعراء يهيمون في كل وجه من القول، وقال "يهيمون" والهائم يضرب في كل وجه دون قصد، كالهائم على وجهه، والمراد أن الشاعر يخوض في كل لغو، وقد ذمتهم الآية، لأنهم يهيمون في كل معنى دون هدى، فيتكفون ويكذبون، ويسرفون في القول. وليس الشعر بمذموم كله، فما يتحصل من كلام العلماء أن الشعر الذي يخلو من الهجاء، والإغراق في التكلف والكذب جائز، فلا بأس بالشعر والحداء أو الغناء ما

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري، والدارقطني، والطبراني.

لم يكن فاحشاً^(١). الشعر الذي يقال في توحيد الله وآداب دينه وخلق نبيه ﷺ وسنته ومكارم الأخلاق والحكمة والموعظة والزهّد ومكارم الأخلاق.

ويجوز مدح النبي ﷺ وأصحابه نصحة ذلك عن رسول الله ﷺ وأجاز مدح صلحاء الأمة وأعلامها، ولا بأس من المعاني التي لا يتلطفون بها بذنب ولا تشوبها شائبة الفتنة أو الدعوة إلى مفسدة، ويجوز أن يردوا على من هاجم بالحق غير ظالمين، وأن ينتصروا لأنفسهم ممن يهجونهم، قال تعالى: ﴿لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَوِيحاً عَلِيماً﴾ [النساء: ١٤٨]. وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَانْقُتِلُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]^(٢). والمراد بالشعراء في الآية شعراء المشركين، يتبعهم غواة الناس، ومردة الشياطين، وعصاة الجن ويروون شعرهم، لأن الغاوي لا يتبع إلا غاويًا مثله، منهم عبد الله بن الزبيري، وهبيرة بن أبي وهب. وقيل نزلت في شاعرين تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما جماعة وهم الغواة السفهاء، وقيل وقع نسخ أولها في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فاستثنى المؤمنين الصالحين، دليل ذلك، الرواية التي جاء فيها أنه جاء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك يبايعون، فقالوا: "يا رسول الله أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أنا شعراء. فقال اقرأوا ما بعدها: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أنتم، ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أنتم".

وقال السهيلي: نزلت الآية في الثلاثة وإنما وردت بالإبهام ليدخل معهم من اقتدى بهم^(٣).

وقد حمل شعراء المسلمين النواء، ودافعوا عن الإسلام، ونافحوا عن رسول الله ﷺ، وردوا هجاء شعراء قريش ومن حالفها، وهجوا رءوس الشرك وعرضوا بالمشركين، وأغروا المسلمين بهم في القتال وزادوا حماسهم.

وكان النبي ﷺ وراءهم يحسهم على الرد على المشركين، ويعينهم على ذلك، ويوجههم

(١) ارجع إلى فتح الباري جـ ١٠/٦١٦

(٢) ارجع إلى الكشف جـ ٣/٣٨٨

(٣) فتح الباري جـ ١٠/٦١٦ وارجع إلى الكشف جـ ٢/٣٨٧

وجعل من الشعراء جنداً له يقاتلون المشركين بشعرهم.

فقال لكعب بن مالك رضي الله عنه: "اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل" وقال لحسان بن ثابت رضي الله عنه: "قل وروح القدس معك" وفي رواية: "ياحسان أجب عن رسول الله اللهم أیده بروح القدس".

وكان حسان رضي الله عنه ينشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ وفي حضرته. روى أبو هريرة أن عمر رضي الله عنه مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه فقال حسان، قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: "أجب عني، اللهم أیده بروح القدس؟ قال أبو هريرة: اللهم نعم" (١).

وهو ويدل على جواز قول الشعر وعدم تحريره، وجواز إنشاده في المسجد إذا كان من الكلام المباح في مبادئ الإسلام وأهله أو في هجاء الكفار والتحريض على قتالهم أو تحقيرهم ونحو ذلك، وهو مما عرف من موضوعات شعر حسان رضي الله عنه.

وكان النبي ﷺ يستحسن بعض معاني الشعر التي تدعو إلى مكارم الأخلاق وتتضمن حكماً صادقة، وكان يذم الهجاء والتعريض والمدح بما ليس في الممدوح كذباً وطمعاً في العطية، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتذكرون الأشعار ويستحسنون بعض معانيها كما روى أنه كان يردد معهم ما يتناشدونه من شعر حماسي، يستعينون به على مشقة العمل (٢) أو طول السفر، وما كان يحدوا به الحداة لحث الإبل على السير، كما كان يطلب من حسان رضي الله عنه أن يرد على شعراء المشركين، وقد قال فيه الشعراء الشعر في حضرته ولم يمنعهم لكنه كان ينصرف عما يجافي الحقيقة ومحاسن الأخلاق (٣).

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه ج ١٦/٤٥.

وجاءت رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها جاء فيها: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله" صحيح مسلم ٤٩/١٦ وترجمته: حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاري عاش مائة وعشرين سنة منهم ستين في الجاهلية وستين في الإسلام.

(٢) ومثال ذلك ما روي في بناء المسجد بعد الهجرة، وحفر الخندق، وما روي من شعر في بعض غزواته ﷺ، وقد روى البخاري في صحيحه بعضاً منه في كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر، وكتاب الغزوات.

(٣) ومثال ذلك شعر كعب بن زهير، ولبيد بن ربيعة وغيرهما من شعراء المشركين الذين أسلموا واعتذروا بشعرهم عما قالوه فيه، ومن أشهر حداة الإبل في عهد النبوة ناجية بن جندب وأنجشة، وعامر بن الأكوع رضي الله عنهم.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يرتجزون في عملهم وأسفارهم وحروبهم والنبي ﷺ لم يشاركهم فيما يرتجزون به أو يسمعه وقد يستجيد معنى فيطلب تكرار إنشاد البيت ثانية^(١). وقال سلمة بن الأكوع خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم سلمة بن الأكوع: ألا تسمعون من هُنيهاتك؟ وكان عامر شاعراً، فنزل يحدو القوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتفينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينه علينا إنا إذا صيح بنا أتينا

بالصياح عَوَّكوا علينا

وجاء في رواية:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا وإذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع النبي ﷺ صوته: "أبينا، أبينا". البخاري، المغازي.

فقال رسول الله ﷺ: "من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، فقال يرحمه الله..."^(٢). وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي يقول: "إن أبا لكم لا يقول الرفث يعني بذلك ابن رواحة قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشقَّ معروف من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقعُ
يبيتُ يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجعُ
وكانت للنبي ﷺ اختيارات من الشعر الجاهلي يستحسنها، ومنها قول سويد بن عامر

المصطلق:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم إن المنايا بجنبي كل إنسان
فكل ذي صاحب يوماً يفارقه وكل زاد وإن أبقيته فان

(١) وارجع إلى صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر، وصحيح مسلم، كتاب الشعر باب في إنشاد الشعر.

(٢) صحيح البخاري باب ما يجوز من الشعر، وللحديث بقية، وقد مات عامر متأثراً بجرحه في خيبر. وكتاب المغازي، غزوة الخندق.

فقال: "لو أدرك هذا الإسلام لأسلم"^(١).

وروى مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردف رسول الله ﷺ يوماً فقال: "هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئاً؟ قلت: نعم. قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه. ثم أنشدته بيتاً فقال: هيه. حتى أنشدته مائة بيت"^(٢). وجاء في رواية أخرى زيادة "إن كاد ليسلم" و"فلقد كاد يسلم في شعره"^(٣). وهيه بكسر الهاء وإسكان الياء وكسرهما الهاء الثانية، والهاء بدل الهمزة، وأصله "إيه"، وهي كلمة للاستزادة من الحديث المعهود وهي مبنية على الكسر، فإن وصلتها نونتها فقلت: "إيه" حدثنا أي زدنا من هذا الحديث، فإن أردت الاستزادة من غير معهود نونت، فقلت "إيه" لأن التثوين للتأكيد، وأما "إيها" بالنصب فمعناه الكف والأمر بالسكوت^(٤). ومقصود الحديث أن النبي ﷺ استحسّن شعر أمية، واستزداد من إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث، ففيه جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه وسماعه سواء شعر الجاهلية وغيرهم^(٥).

وقال العلماء في الشعر، هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح. فقد سمع النبي ﷺ الشعر واستنشدته وأمر به حسان في هجاء المشركين، وأنشده أصحابه بحضرته في الأسفار وغيرها، وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف، ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه وإنما أنكروا المذموم منه، وهو الفحش ونحوه^(٦).

سمع النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، وهي تتمثل بقول زهير بن جنّاب:

ارفع ضعيفك لا يُخزّيك ضعفه
يجزّيك أو يثني عليك وإنّ منْ
يومًا فتدركه عواقب ما جنى
أثني عليك بما فعلت كمن جرّى

وكان النبي ﷺ يسأل عائشة عن شعره، فيقول: "كيف الشعر الذي كنت تتمثلين به؟ فإذا

(1) الاستيعاب لابن عبد البر ج ٣/ ٤٠٠

(2) رواه البخاري، باب ما يجوز من الشعر والرجز، وصحيح مسلم: كتاب الشعر، باب في "إنشاد الأشعار"، ورواه الترمذي في الشمائل باب "ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ في الشعر"، وروى ابن ماجه في الأدب باب "الشعر"، وجاء في الأدب المفرد للبخاري أنه أنشده مائة قافية لأمية.

(3) صحيح مسلم: كتاب "الشعر"، ويبدو أن هذا الحديث موصولاً بحديث أبي هريرة عن شعر ليبيد، والله أعلم أو أن أبا هريرة سمعه وهو يحدث الشريد (الشريد بن سويد الثقفي).

(4) صحيح مسلم بشرح النووي م ٢٠٢/ ٧، ٢٠٣

(5) صحيح مسلم بشرح النووي م ٢٠٣/ ٧

(6) المصدر السابق.

أنشدته آياه قال: يا عائشة إنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس^(١).

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال "أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل

وفي رواية: "أصدق بيت قاله الشاعر"، وفي أخرى: "أصدق بيت قالته الشعراء"، وكلها عن أبي هريرة رضي الله عنه^(٢). وكان لبيد بن ربيعة ينشد جماعة من قريش شعراً، وكان فيهم عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وكان في جوار الوليد بن المغيرة عندما أسلم ليحميه من أذى قريش، فأبي أن يكون في جوار كافر فرد جوار الوليد، فلما كان في المجلس سمع لبيد يقول: ألا كل شيء ما خلا الله باطل^(٣)

قال عثمان بن مظعون للبيد صدقت. فقال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان رضي الله عنه : كذبت، فلم يدر القوم ما عني، فأشار القوم إلى لبيد فأعاد، فصدقه في الشطر الأول وكذبه في الثاني، يريد أن نعيم الجنة لا يزول^(٤). وروى أبو الفرج الأصفهاني عن أنس بن مالك قال: جلس رسول الله ﷺ في مجلس ليس فيه إلا خزرجي، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم التي يقول فيها:

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمره وحشاً غير موقف راكب

(1) الشعر والشعراء ص ٢٤٦، وهو شاعر متقدم في الجاهلية.

(2) رواه البخاري في باب "ما يجوز من الشعر والرجز"، ورواه مسلم في كتاب "الشعر" وذكر فيه هذه الروايات. ولم يذكر النبي ﷺ عجزه، لأنه فاسد: "وكل نعيم لا محالة زائل". ولبيد بن ربيعة شاعر مخضرم، وله ديوان شعر، وقد قال معظمه في الجاهلية ولم يقل في الإسلام إلا قليلاً. وقد أسلم لبيد ومدح النبي ﷺ واعتذر عما بدر منه في شركه.

(3) والجلل في قول لبيد: كل شيء ما خلا الله جلّ، أي صغير، وجاء مثله قول ذي الرومة:

يقول جزء - ولم يقل جللاً إني تزوّجتُ ناعماً جدلاً

أي ولم يقل جللاً، أي صغيراً، ويكون للكبير أيضاً، وهو من الأضداد، قال لبيد:

وأرى أربد قد فارقتني ومن الأرزاء رزء ذو جلل

الكامل ج ١/٥٧، وذلك في رثاء أخيه أربد.

(4) السيرة ج ١/٣٩١ والأغاني ١٤/٩٦، وقد غضب لبيد من تكذيب عثمان معاني شعره، فقال: يامعشر قريش ما كان مثل هذا يكون في مجالسكم، فقام أبي بن خلف وابنه فلطما وجه عثمان، فقال له الوليد: لقد كنت في منعة من هذا بالأمس، يلومه أن رد عليه جواره، فقال: ما أحوج عيني الصحيحة إلى أن يصيبها ما أصاب الأخرى في الله.

فأنشده بعضهم إياها فلما بلغ إلى قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ فقال: "هل كان كما ذكر؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس، وقال له: والذي بعثك الحق يارسول الله، لقد خرج إلينا سابع عرسه عليه غلالة وملحفة مورية، فجالدنا كما ذكر"^(١).

وروي أن النبي ﷺ سمع منشداً يقول:

فحي ذوي الأضغان تنب قلوبهم تحيتك الأدنى فقد يدفع النغل

وإن دحسوا للود فادحس بمثله وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل

وإن الذي يؤذيك منه سماعه وإن الذي قالوا وراعيك لم يقل

فقال: "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحراً"^(٢). وكان ﷺ يجيز بعض ما يذكره الشعراء عن مشاعرهم مما لا يחדش الحياء وليس فيه فحش ولا خنا.

وأنشد كعب بن زهير النبي ﷺ قصيدته "باتت سعاد" الذي اعتذر فيها إليه ومدحه، فكساه برداً. وأنشده لبيد فدعا له وقال: "لا فض الله فاك" أو "لا فض فوك".

ودخل العجاج مسجد رسول الله ﷺ، والناس حول أبي هريرة يسألونه، فقال له: إنما أقول:

طاف الخيلان فهاجا سقماً خيال أرؤى وخيال تكتماً

تريك وجهاً ضاحكاً ومعضماً وساعداً عبلاً وكعباً أدماً

فما تقول فيه؟ قال: قد كان رسول الله ﷺ ينشد مثل وهذا من حسن خلقه ورحمته بالناس. لقد كان النبي ﷺ يسمع الشعر، فسمعه قبل أن يوحى إليه وبعد الوحي، وكان تعلم تقاليد شعر العرب وما كان عليه شعرهم، وما يتناوله من أغراض عرفاً شائعاً.

وقد مدحه غير شاعر بقصيدة طويلة صدرها بمقدمة طليعية يذكر الحبيب ويشكو هجره وإخلاف وعده وصدده وتمنعه. وقد كانت هذه المقدمات الغزلية والطليلية من تقاليد بناء القصيدة العربية. وبعض المقدمات كانت تبدأ بمقدمات خميرية تذكر الخمر وأثرها وشكلها

(1) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر جـ ١٥٤/٢، وكان ذلك في الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وأشهرها يوم بعث.

(2) جاء ذلك في حديث النبي ﷺ، واختلف العلماء فيما قيل، والمشهور في ذلك أنهما خطيبان - صحيح البخاري كتاب "الطب" وكتاب "السحر"، والنغل: الضغينة، خنس: جاز وخلف، يريد: تجاوزك، الشعر والشعراء.

وذوقها، وقد عزف شعراء عصر النبوة عن هذه المقدمات بعد تحريمها، ولم يقل أحدهم شعراً في حضرته ﷺ فيه فحش أو خنا أو استحل خمرًا أو عرضاً كذباً أو صدقاً. ولكنه ﷺ كان يعرض عن فحش شعراء الجاهلية وما يذكرونه في الأعراض، وما يدعونه من أمور الجاهلية التي أبطلها الإسلام، ونهى ﷺ أصحابه عن الفحش والطعن واللعن وبذاءة اللسان، ولهو الحديث يضل به عن سبيل الله.

وللعلماء آراء وجوه من التفسير في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "لأن يمتلئ جوف الرجل قيحاً يريه خير من أن يمتلئ شعراً". وروى عن أبي سعيد الخضري أيضاً قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعُرج (مكان) إذ عرض شاعر ينشد، فقال رسول الله ﷺ: "خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان، لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً" (١).

ومعنى الأول أن قيحاً يأكل جوف أحدهم فيفسدها خير له من قول الشعر، وتأول العلماء هذا النوع من الشعر فالذي أثر عليه فساد الجوف من قيحه، فقالوا: هو شعر الهجاء والفحش، ولهذا أمر في الرواية الثانية بمنعه، وسماه شيطاناً، لأن شعره مائل شعر الجاهليين. فتناول في مضمومته الفحش والشرك والهجاء، وقد حرم الله تعالى ذلك. وقيل: لعله كانوا يهجو أحداً أو يخوض في عرض أو يصف محرماً أو غير ذلك (٢). وقيل: إن وجه الذم فيه للامتلاء الذي لا يترك بقية لغيره لشغله عن دينه وأمور حياته. وبعضهم تورع عن الشعر مطلقاً، وحجتهم أنه قد يصرفهم عن القرآن الكريم لانشغالهم به، أو يسقطهم في ذلة القول، وغير ذلك.

ويؤكد هذا الوجه أن الإمام البخاري رحمه الله روى هذا الحديث تحت باب "ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدده عن ذكر الله والعلم والقرآن"، وبعضهم حمل الحديث على هذا الوجه (٣). والظاهر والمحقق مما روى في الشعر أن النبي ﷺ استمع الشعر واستنطق الشعراء وأعجب ببعض شعرهم، واستنشد بعض شعر الجاهليين، وقد قال بعض أصحابه الشعر، ودعاهم إلى قوله واستحسن بعض ما قالوا، وصرفهم عن بعض

(1) رواه مسلم في كتاب الشعر، وروى من طريق آخر برواية محمد بن سعد عن سعد، ويوحى في ظاهره بزم الشعر ولفظ يريه من الوَرَى، وهو داء يفسد الجوف، والرئة ورواه البخاري في باب "ما يجوز من الشعر".

(2) ارجع إلى شرح النووي بصحيح مسلم جـ ١٥/١٤

(3) صحيح البخاري باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر، ورواه عن ابن عمر ورواه أيضاً عن

أبي هريرة رضي الله عنهم - ارجع إلى فتح الباري جـ ١٠/٦٢٦

وجوهه، وأرشداهم إلى الصالح منه، وأمر بعض أصحابه ومنهم حسان بن ثابت رضي الله عنه بهجاء المشركين والرد على شعرائهم وأنشده أصحابه في حضرته، في الأسفار وغيرها وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه وإنما أنكروا المذموم منه وهو الفحش ونحوه.

وكان أصحاب النبي ﷺ يتناشدون الشعر ويقولون بعضهم، وهم فيه على ما كان النبي ﷺ، فقد استحسّن الحسن ونهى عن القبيح، وأنشده حسان رضي الله عنه شعره في المسجد. ومما روي عن الصحابة في ذلك: أن إياس بن خيثمة وقف على ابن عمر رضي الله عنهما، فقال له، ألا أنشدك من شعري؟ قال: بلى. ولكن لا تنشدني إلا حسناً.

وقال عبد الرحمن بن أبي بكره قال: كنت أجالس أصحاب رسول الله ﷺ مع أبي في المسجد فيتناشدون الأشعار ويذكرون حديث الجاهلية.

وروى عن جابر بن سمرّة قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتذكرون الشعر وحديث الجاهلية عند رسول الله ﷺ فلا ينهاهم وربما يبتسم. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: "لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منجرفين ولا متماوتين وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدهم على شيء من دينه دارت حماليق عينه"^(١). وقد روت كتب التفسير والحديث والتاريخ والأدب عنهم الأشعار وما قالوه في الشعر.

وكان منهم شعراء معروفين في عصر النبي ﷺ وأشهرهم حسان رضي الله عنه، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وكان لهم رصيد من الشعر في الجاهلية وزادوه في الإسلام وأثروه، وظل حسان وكعب يقولان الشعر بعد وفاته ﷺ، وقد قتل ابن رواحة رضي الله عنه يوم مؤتة. وقال سعيد بن المسيب: كان أبو بكر شاعراً، وعمر شاعراً، وعليّ أشعر الثلاثة.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: "قدم علينا رسول الله ﷺ وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر. قيل: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا". وكان عمر بن العاص وابنه عبد الله رضي الله عنهما شاعرين، وكان لعمر شعر في الجاهلية يهاجي به المسلمين، وقال أيضاً بعد إسلامه. وأسلم شعراء كثيرون وقالوا شعراً في الإسلام، وليس غريباً أن تروى أشعاراً لكثير من الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كان الشعر فاشياً في العرب بيد أن رجالاً منهم احترقوا الشعر وقاموا عليه وعرفوا به، وسوف نذكرهم في حديثنا عن شعراء عصر النبوة

(١) فتح الباري جـ ١٠/٦١٧

إن شاء الله تعالى وكانت لهم آراء نقدية في الشعر وتوجيهات، واختيارات^(١).

وكان التابعون على ما سمعوه من حديث في الشعر، وما رأوا عليه أصحاب النبي ﷺ. قيل لسعيد بن المسيب: إن قوما من أهل العراق، يَرَوْنَ إنشاد الشعر، فقال: لقد نسكوا نسكاً أعجمياً. وقيل لابن سيرين: إن قوما يزعمون أن إنشاد الشعر ينقض الوضوء، فأنشد:

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشراً
وقام يصلي! وقيل: بل أنشد^(٢):

أُنْبِتْ أن عَجُوزاً جنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصَّوم في الطُّول
وقيل: سأل رجل محمد بن سيرين رحمه الله تعالى: ما تقول في الغزل الرقيق يُنشد في الإنسان في المسجد، فسكت عنه حتى أقيمت الصلاة، وتقدم إلى المحراب، فالتفت إليه فقال^(٣):

وتبرد برد رداء العروس في الصيف رقرقت فيه العبير
وتسخن ليلة لا يستطيع نباحاً بها الكلب إلا هريرا

قال رجل من العلوية لعمر بن عبيد: إن صدري لي جيش بالشعر. فقال: فما منعك منه فيما لا بأس به؟ وقال الزمخشري: والقول فيه أن الشعر باب من الكلام، فحسنه كحسن الكلام وقبحه كقبح الكلام^(٤). وهو ما عليه جمهور المسلمين.

وقد تجاوز النقاد القصد بقولهم: إن أحسن الشعر أكذبه، وأنى للكذب أن يكون حسناً! وكيف يكون شعراً وهو كذب، فالشعر يكون عن صدق في التجربة وجمال في القول وحسن الذوق، وعيون الشعر العربي قيلت عن تجربة صادقة ومعاناة. وقد يكون المراد بالكذب في الشعر المبالغة والإسراف في القول، وسمي كذباً لأنه تجاوز الحقيقة.

وقيل: إن المشركين قالوا في النبي ﷺ إنه شاعر، أرادوا أنه كاذب، لأن أكثر ما يأتي به

(1) ارجع إلى العقد الفريد جـ ٢٨٣/٥ وما بعدها.

(2) زهر الآداب جـ ١٦٥/١ - نسك (يفتح النون وكسرها) مثل نصر وكرم.

العرس: امرأة الرجل.

(3) العقد الفريد جـ ٢٨٧/٥

(4) الكشاف جـ ٣٨٨/٣ وعمر بن عبيد من كبار المعتزلة وقال فيه أبو جعفر المنصور، وكان صديقاً له قبل

الخلافة فرفض صحبتته بعد أن صار خليفة:

كلكم طالب صيد لمسير عمرو بن عبيد

الشاعر كذب، ومن ثم سموا الأدلة الكاذبة شعراً^(١).

وقد كان شعراء الجاهلية يسرفون في القول ويكذبون ويهتكون الأعراض، وكان في شعرهم كثير من أمور الجاهلية المذمومة. وهذا النوع من الشعراء يتبعهم الغاؤون من أرباب الفساد، ويطربون لفحش قولهم، ويستحسنون كذبهم وباطلهم وفضول قولهم، ويزعمون أنهم كلما ركبوا الكذب والفجور أجادوا، فيقولون أجود الشعر أكذبه تضليلاً، وإسرافاً في الغواية.

وقد ذم الله تعالى هؤلاء فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦) [الشعراء]. فهؤلاء يسلكون كل شعب من القول زوراً، ويجمعون ما ليس فيهم ويغالون في المنطق ومجازة حد القصد فيه، فيمدحون الجبان بالشجاعة والعريذ بالتقى والورع والعفة، ويذمون الحسن ويستحسنون القبيح ويبهتون البرئ، ويفسقون التقى، ويصفون الممدوح بما ليس وما لا يحسنه، ويرمون الشريف بالسوء، فيهتكون الأعراض ويقذفون المحصنات العفيفات، ويطعنون في الأنساب. وقيل: إن الآية نزلت في أبي عزة الجمحي الذي أسر يوم بدر، فعفا عنه النبي ﷺ من أجل بناته على ألا يعين على النبي ﷺ ووعد بذلك، لكنه نكث بوعده، فكان مع المشركين يوم أحد، وقال:

ألا أبلغا عنى النبي محمداً	بأنك حقّ والمليك حميدُ
ولكن إذا ذكرت بدرأ وأهله	تأوّه منى أعظم وجلود

فأسره المسلمون يوم أحد، وطلب العفو، فأبى عليه النبي ﷺ، لئلا يقول في أهل مكة إنه خدعه مرتين، فأمر بقتله. ويقولون ما لا يفعلون فيدعون أنهم فعلوا كذباً وما فعلوا فلا يثبتون الحقيقة، ومن ذلك ما قاله أبو سفيان بن الحرث، فقد زعم أنه طرد النبي ﷺ ونفاه وأبعده فقال:

هداني هادٍ غير نفسي وقادني إلى الله من طردت كل مُطرَدٍ

فقال النبي ﷺ له عندما أتاه ليسلم: "أنت طردتني كل مطرد؟!" ينكر عليه قوله^(٢). وقد لا يتورع الشاعر عن أن ينسب الفاحشة إلى نفسه.

(١) ارجع إلى فتح الباري جـ ١٠/٦١٥

(٢) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام س ٢٤٣/١

قال الفرزدق في حضرة سليمان بن عبد الملك^(١):

فبتن بجاني مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان بن عبد الملك: قد وجب عليك الحد، فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عن الحد، بقوله: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ» [الشعراء: ٢٢٦]^(٢). وقد عد العلماء شعر المجون والهجاء والفحش من لهو الحديث الذي تجاوز فيه الشعراء الحق ولا يقيمون به حقيقة ولا يحتجون به في حكم، ولا يعد حجة في الدين، ولا يعتد به في غير الأدب واللغة والبلاغة، فهو فن من فنون القول.

* * * * *

(١) بت وبأت بجاني أكارهن وقد صرعهن العشق

وقضيت ليلي بينهن أفض بكسارتهن

(٢) الكشف ٣/ ٣٨٨

الشعر في عصر النبوة

يرجع تاريخ نشأة الشعر إلى العصر الجاهلي، وتروى بعض أشعار لشعراء سبقوا الإسلام بنحو مائتي عام، وقد فقد أشعار كثيرة وما وصلنا من شعر الجاهلية أنضجه وأعلاه ولا يمثل مرحلة الإرهاصات الأولى في النشأة والنضج^(١).

وللشعر مكان عظيم في حياة العرب، فقد اعتنت به عنايتها بأنسابها وأحسابها. والشعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، وديوان أخبارها، ومستودع أيامها، والسرور المضروب على مآثرها والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدل يوم النِّفَار، والحجة القاطعة عند الخصام^(٢). فالشعر ديوان سجل الأحداث ومصدر للمؤرخ فقد قيّد الوقائع والأخبار، وشهد على أحكامها.

وقد كلفت به العرب، وفضلته على سائر قولها، وقيل إنها كتبت عيوناً، تخيرتها فكتبتّها وجعلتها على الكعبة، وهي المعلقة، ودليل عنايتها به أنها حفظت شعر الأولين، وروته وتوارثت الرواية في كثير منه حتى دون^(٣)، وقد تفاخرت القبائل بشعرائها، وقام لشعر ساداتها، فزادهم فضلاً وسودداً.

وكان للشعر خطره فيهم فرفع قومًا ووضع آخرين، فعرف للشاعر خطره ومنزلته فبلغ بشعره فيهم منزلة السادة وأصبح شعره سيفاً يسله على عدوه، ويضربه في مقتل. ولا شك أن الإسلام أحدث زلزالاً مروّعاً هز العالم، وقوض عروش الجاهلية وهناتها، وأدخل العرب التاريخ العالمي بعد أن كانوا بدوًا مجهولين في الصحراء لا يعبأ بهم أحد، وقد كانوا أشتاتاً قديماً متقاتلين وموتورين، فألف الإسلام بينهم، فأصبحوا بنعمة الله تعالى (الإسلام) إخواناً، فنقلهم من البداوة إلى الحضارة ومكن لهم في الأرض، وأورثهم ملكها من آخرين.

وقد أحدث الإسلام تأثيراً عظيماً في الشخصية العربية، فشكل وجدانها ووعيتها وأثرى فكرها، ووجه مقاصدها وأهدافها وغايتها في الحياة، وانعكس هذا الأثر على الأدب، فأصبح

(١) فنون القول عند العرب: الشعر، الخطابة، المثل، الحكمة، المناظرة (الحجاج)، الحكيم (الأخبار) أو الحكاية.

(٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة - ط الهيئة العامة لقصور الثقافة - ٢٠٠٣م ج٢/١٨٤ والقول لابن قتيبة.

(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه - ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ج٥/٢٦٩ والمعلقات سبع وعند بعضهم عشر، وأصحابها امرؤ القيس، وزهير، وطرفة، وعنترة، وعمرو بن كلثوم، ولييد، والحارث بن حلزة، والأعشى، والنابعة الذبياني، وعبيد بن الأبرص.

له مضموناً جديداً ولغة مهذبة رفيقة وخطاب محكم مؤثر له تقنيات فنية رائعة وأساليب مروعة سهلة التركيب وقريبة الفهم وعظيمة التأثير وسريعة الانتشار.

وقد أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في اللغة وفنون الأدب في المستوى الصوتي، والصرفي والتركيبى والمعجمي وقد قامت نهضة ثقافية واسعة ومصدرها الأساسي القرآن الكريم.

وقد تصدبت للشعر في عصر النبوة لما تردد قديماً وحديثاً عن الأزمة التي ألمت بالشعر في هذه الفترة فزعم بعض رجال الأدب أن الشعر ضعف فيها وأصابته هنات، وما كانت إلا ربكة أو انتقالة سريعة مر بها الشعراء الذين عاشوا في منطقة الصراع الأولى للدعوة (الحجاز) وشاركوا في أحداثها، ولا يحمل ما حدث لهم على بقية شعراء العرب، فقد انتشر الإسلام في الجزيرة العربية، وقامت حروب الردة (أو ثورة بعض القبائل على مركز الخلافة) ثم الفتوحات ثم الفتنة الكبرى ثم المذاهب السياسية وظهور الفرق، وكانت هذه الأحداث يدعمها الشعراء ويقفوا من ورائها وأصبحوا من رجالها، ولسانها في المحافل والمناظرات والحروب وكانوا دعاة لها.

بيد أن الشعراء الذين دخلوا في الإسلام في بدء الدعوة ودافعوا عنها انتقلوا بشعرهم من الجاهلية إلى الإسلام، وهو انتقال من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين في لحظة إسلامهم، وهذا التغير له خطره في الشعر، فقد تحول الشاعر إلى مضامين تهدم ما كان عليه في الجاهلية وتناقضها، ولها أثرها في الألفاظ والأغراض، والشاعر مدفوع إلى هذا بعاطفة جارفة وحماسة طاغية وله فيه همة ونشاط.

وليس ما قيل عن شعر عصر النبوة من شكوك وتضعيف بمقبول من كل جوانبه، ولا يحمل على كل ما نسب إلى هذه الفترة، فقد حمل عليها بعض المتأخرين شعراً موضوعاً أو منحولاً لأغراض سياسية وقومية وصراعات عرقية ومذهبية، وقد ظهرت جماعة الرواة، ومنه من صنع شعراً عليها طمعا في الشهرة والتكسب أو تعصباً، وظهر القصاص الذين احترقوا الحكي، فأخذوا من العامة، ولم ينظروا في السند، وبعضهم كان يزيد فيما يحكيه، وبعضهم كان يؤلف شعراً فيه فاختلطت هذه الأشعار بالصحيح فأوهنته، وبعض المتعصبين للقبيلة حرقوا شعراً منها أو زادوا عليه، وهذا لا يحمل على كل شعر عصر النبوة بل على قليل منه ونبه عليه العلماء فرصدوه ليميزوه عن الصحيح.

والشعر في عصر النبوة يراد به إنتاج شعراء المسلمين وغير المسلمين الذي عاصروا ظهور الإسلام واخترنا عصر النبوة وتركنا صدر الإسلام، تحديداً لفترة الدراسة، فعصر

صدر الإسلام عند الأدباء يبدأ من ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية (١٣٢هـ)، فيلحمون الدولة الأموية في عهد الرسول ﷺ وخلافة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وهما فترتان لهما شأنهما الخاص خلافاً للدولة الأموية التي غلب عليها الطابع السياسي، وكثير من الباحثين لا يقف طويلاً في بحثه عند عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، فيذكر فيهما ما قاله القدماء ثم ينتقل إلى الأدب في الدولة الأموية فيكثر فيها ويزيد، وكأنها هدف البحث، وما قبلها مدخل إليها، فأصبحت هذه الحقبة في عرف بعض الأدباء لا تمثل قيمة أدبية ولا تغني في تاريخ الأدب^(١) بيد أن رجالاً أفاضوا بحثوا أوجهاً وكشفوا أسرارهم وأماطوا عن قيمته الأدبية.

ولا يسمى شعر هذه الفترة بالشعر الإسلامي، لأنه ليس إسلامياً في كل أمره، فيه شعر غير المسلمين وبعض الأشعار تجاوزت الإسلام في بعض المعاني والألفاظ والأغراض والأهداف والشعر الإسلامي ما قيل في شيء من الإسلام ويتخلق بخلق.

وبعض الدارسين لا يقفون طويلاً عند عصر النبوة ولا يستفيضون فيه، لعدم وجود مصادر تقف عليه وحده، وكتب كافية، وقد دونت الدواوين في وقت متأخر وهي فترة قصيرة تدخل فيما بعدها من الأدب لكنها جليلة الأحداث غزيرة الإنتاج الأدبي، ومعظم شعراء هذه الفترة عاش بعض حياتهم في الجاهلية وبقيتها في الإسلام وعمر بعضهم فأدرك الدولة الأموية وشاركوا في الأحداث، فجعلهم الأدباء مرحلة واحدة في الأدب، فأطلقوا على أدب عصر النبوة والراشدين وعصر الدولة الأموية أدب صدر الإسلام أو الأدب الإسلامي ويدخلون فيه عصر الدولة الأموية، وقد جذب أدب الدولة الأموية أعين الأدباء، لأنه حظي برعاية الدولة، وغزته التيارات السياسية والمذهبية فانصرفوا عن أدب عصر النبوة والراشدين إلى الثورة الأدبية التي قادها الشعراء والخطباء في عصر بني أمية. وقد أغراني ببحث هذه الفترة (عصر النبوة) ما وجدته من مادة أدبية غنية بعضها في كتب التفاسير وكتب الحديث وكتب السير والتاريخ والدواوين وكتب الأدب وبعض كتب اللغة.

وقد دعا أستاذي الراحل الدكتور إبراهيم عبد الرحمن في بحث له إلى ضرورة دراسة "أدب السيرة"، وعارض ما قيل عن ضعف الأدب (أو الشعر) في عصر النبوة والراشدين، وناقش هذا الموضوع، وانتهى إلى خلاف هذا الرأي، ورأى أن هذه الفترة لم تحظ بدراسة

(١) ارجع إلى الشعر في صدر الإسلام - دار المعارف.

كافية.

لقد كان للشعر المنزلة الأولى في القول حتى نزل القرآن الكريم فعلا عليه وصار أعلى مراتب الكلام عند العرب، وقد حاول مشركوا العرب أن يعارضوه بقولهم فأخفقوا، وأيقنوا أنه ليس بقول بشر، وأنه من عند الله تعالى، ولكنهم جحدوا ذلك.

وقد جاء في بعض المصادر القديمة أن الشعر في عصر النبوة قد ضعف، وأن الشعراء قد هجروا الشعر، وعللوا ذلك بأسباب. وسلم بعض العلماء بذلك ورددوا هذا الرأي وشاع بين الأدباء وسلموا به، والسبب المباشر في قبول هذا الرأي أن هذه الحقبة لم تحظ، باهتمام رجال الأدب قديماً وحديثاً لأنهم انشغلوا بأحداث الدعوة، وبما وراء هذه الحقبة من صراع قبلي وسياسي وفتن، أشعل نيرانها الشعراء وشاركوا فيها، واحتفى العلماء بشعراء الدولة الأموية وأدخلوا الحقبة الأولى فيها، وأطلقوا عليهما صدر الإسلام أو العصر الإسلامي، ولم يفصلوا بين عصر النبوة والخلفاء الراشدين وعصر الدولة الأموية.

ولا أرى ما رآه بعض الباحثين أن الشعر قد ضعف في صدر السلام، وأن بعض الشعراء توقفوا عن الشعر، لأن الإسلام لم يحثهم على قول الشعر.

والذي أراه أن الإسلام أحدث هزة في جزيرة العرب، فتوقف الشعراء قليلاً، ليعيدوا صياغة شعرهم، وليستوعبوا الإسلام دراسة وفهماً، لينطلقوا منه، ويتمثلونه في شعرهم ويشرّبوه ألفاظه ومعانيه، ويصلحوا من أمره ويسموا بأهدافه، فبعض أغراض الشعر (المديح، الهجاء، الغزل) فيها ما لا يرضى من القول مما حرّمه الله تعالى، وكان عليهم أن يبحثوا عن مضامين جديدة يوافق نسق الإسلام.

وقد كان الشاعر يرهّب الناس بشعره يعدوا على أعراضهم، فيتقنون لسانه بالهبات والأموال، فينصرف عنهم وإلا هجاهم ووضع منهم وفضحهم بين العرب وغيرهم الناس بقوله حقاً أو كذباً، وقد كان الحطينة نموذجاً لهؤلاء الشعراء الذين كانوا يبتزون الناس وإلا هجاهم وأوجعهم.

وتروي كتب الأدب ما فعله عمر رضي الله عنه به عندما شكاه الناس، فمنعه من سب أعراض المسلمين، وقد كان الحطينة متعصباً وفيه من الجاهلية ما جعله في صفوف المرتدين على خلافة الصديق رضي الله عنه وساهم فيها بشعره.

وبعضهم يقول: إن الشعراء قد انصرفوا عن الشعر واكتفوا بالقرآن الكريم وأبوا أن يقولوا الشعر وقد أنعم الله عليهم بالقرآن الكريم، وهذا مذهب واحد من الشعراء

المخضرمين، وهو لبيد بن ربيعة العامري^(١) وقد أسلم لبيد رضي الله عنه على ما قيل في عام الوفود قبيل وفاة النبي ﷺ وكان من المعمرين، قيل عاش مائة وخمسة وأربعين سنة منها تسعون في الجاهلية وبقيتها في الإسلام، وكان يشايح قريشاً في الجاهلية، وله فيها مجالس شعرية، وقد ضاق بتشاغل أهل مكة عن شعره بدعوة النبي ﷺ، وحديثهم عنها وانصرافهم عن الشعر، ففسد مجلسه بمكة، ولكنه دخل في الإسلام بعد أن رجحت كفة الإسلام فوفد على النبي ﷺ في وفد بني كلاب بعد وفاة أخيه أربد الذي رثاه وحزن لفراقه ووفاة عامر بن الطفيل مشركاً بعد أن لقي النبي ﷺ وطلب أن يقاسمه الأمر، فأبى عليه وقتل في عودته إلى قومه، وكان لبيد قد عمر طويلاً في الإسلام وسئم الحياة وطولها.

وكان لبيد كثير الشعر في الجاهلية مغرماً بقوله وروايته عن غيره وكانت له دراية بأشعار العرب، ويستحى منها أشعاراً^(٢). وله شعر ديني كثير دعا فيه إلى مكارم الأخلاق، وكان النبي ﷺ يعجب ببعض شعره، وقيل عنه أنه توقف عن قول الشعر في الإسلام، ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، وهو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

وقد اكتفى بهذا البيت الذي حمد الله تعالى فيه على نعمة الإسلام، ولم يقل غيره في نحو خمس وخمسين سنة عاشها في الإسلام، وهذا الرأي يحتاج مراجعة، فللبيد أشعار قالها في الإسلام، وهي قليلة قياساً لما قاله في جاهليته. وروي أن عمر رضي الله عنه طلب من المغيرة بن شعبة والي الكوفة في خلافته أن يستنشد الشعراء فيها ما قالوا في الإسلام ليحدثهم عليه. وكان لبيد بن ربيعة قد أقام بالكوفة، فلما استنشد لبيداً، قال: إن شئت ما عفى عنه في الجاهلية، فقال: لا أنشدني ما قلت في الإسلام، فانتطق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها، وقال: أبدلني الله هذا في الإسلام مكان الشعر، فأخبر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بذلك، فسُرَّ لذلك، وزاد عطاءه من بيت

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن بكر بن معاوية بن هوازن، وكان له أخ من أمه يسمى أربد قتله الله تعالى بالصاعقة. وقد أعطاه النبي ﷺ مع من أعطى يتألفه على الإسلام، وكان عمر رضي الله عنه يحله لحسن إسلام وورعه، فقد أبى أن يقول الشعر وأثر عليه أن يحفظ القرآن ويسمعه الناس - ارجع إلى السيرة جـ ١٤٣/٤ والأغاني ٩٣/١٤ - ٩٦.

(٢) وكان آخر ما قاله رثاء أخيه لأمه أربد بن قيس، وقد أهلكته صاعقة بعد أن أبى أن يسلم وهو في قومه، وقد أهلك الله عامر بن الطفيل بقرحة في عنقه، وكانا قد اتفقا على قتل النبي ﷺ فقتلها الله تعالى - السيرة

المال^(١). وهذه الرواية لا تحمل على أنه انقطع عن قول الشعر، بل تدل على ورعه وحسن إسلامه، فقد قال شعراً في الإسلام وفي مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، وكان ينشد شعره الذي قاله في الجاهلية من سألته، وكان ينيب ابنته في الرد على من أرسل إليه شعراً، أو أرسل له هدية، وكان يفحص الأشعار وينقدها ويستحسن منها الحسن.

وقد أقل من الشعر وحده ولم يكن هذا موقف شعراء الإسلام جميعاً ولكن بعض النقاد حمّله في حكمه على أنه موقف جماعي، فزعموا أن الشعراء انصرفوا عن الشعر إلى القرآن الكريم، والصواب أنهم وظفوا معاني القرآن في أشعارهم وتأثروا بأسلوبه فرقت أشعارهم وتهذبت ألفاظهم، وسمت معانيهم.

ولم تذكر المصادر القديمة أن لببدا ترك الشعر، ورجع عنه وأنكر ما قاله في الجاهلية، بل أفادت أن له شعراً قليلاً في الإسلام، وكان ينشد شعر الجاهلية غير أنه جعل الدين هدفه، فترك ما كان يشغله عنه، فلم يبق للشعر في الإسلام قيامه له في الجاهلية، وقد أسن وخشي أن يأتيه أجله دون أن يكثر من عمله الصالح.

وقد أشاع المحدثون أن الشعر في عصر النبوة نزل عما كان عليه في الجاهلية، وبعضهم أسرف فزعم أنه توقف عن نهْي أو تحريم أو ذم، وهو رأى بعض العلمانيين الذين ينفرون من كل من يتخذ الدين موضوعاً أو هدفاً له.

ولم يتوقف الشعر في عصر النبوة، ولكن تركت أشعار كثيرة قيلت في هجاء النبي ﷺ وأصحابه والذم في دعوته، وقد تركها الرواة، لأن أصحابها كانوا مشركين وفيها كفر بالله ورسوله. وقد رجع أصحابها عنها في الإسلام وتركوا روايتها لئلا تكون ردة عن الإسلام، وتورع الرواة عنها، وهم أهل دين. لما فيها من خروج عن الدين، وفحش وقذع في أهله. وقد ذكر ابن سلام أن لأبي سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل، وقد كان له شعر في هجاء الرسول ﷺ ومن معه، وقد أباح النبي ﷺ دمه، ولكنه تاب وأسلم وأتاه معتزراً، وقد ترك الرواة شعره لما فيه من كفر بالله ورسوله ﷺ. وبعضهم ترك الشعر الذي قاله في جاهليته ولم يحدث به، ولم يروه أحد عنهم ورعاً واستحياء لما فيه، ولكن بعض الرواة ذكروا ما يتعلق ببعض الأحداث، وقد ذكرنا بعض الشعر الذي قيل في هذه الفترة لننفي بذلك مزاعم من قالوا ليس بها شعر أو أنه قليل، ونسلم بأن بعض أشعار المشركين في الإسلام وأهله قد سقطت ولم ترو؛ لأنهم قد

صاروا مسلمين أو لما بها من الكفر. وبعضهم لا يتوارى من القول فيطعن في شعر حسان الإسلامي، ويوهنه ويزعم أنه لم يختلف كثيراً في مدحه عما مدح به الجاهليين، ولأن حسان رضي الله عنه ترك بعض ما كان يقوله في الجاهليين للعطاء، وقد خاض في كل الموضوعات بيد أن شعره في الإسلام كان في مديح النبي والمسلمين، ورثاء الشهداء، وهجاء المشركين. وأقول لهؤلاء: ليس معقولاً أن يحول الشاعر شعره تارة واحدة مثلما تحول من الكفر إلى الإيمان، فالشعر صناعة لها أسسها، والتجديد فيها لا يكون فلتة (فجأة) بل يقع التغيير تترى على فترات في ظل تطور المجتمع وتغلل الإسلام في وعيه وتمكنه منه، فقد تطور الشعر تطوراً حقيقياً بدخول المجتمع العربي مرحلة الحضارة التي أثرت الشعر، وعمقت وحي الشعراء، وتعددت مشاربهم الثقافية، وتأثروا بحضارات الهند وفارس والروم واليونان، وانصهرت هذه الحضارات معاً، وتكونت شخصية جديدة،، فظهرت أغراض جديدة ومفردات مولدة ودخيلة، وتغير شكل القصيدة، وهذا التطور لم يقع تاماً لحسان رضي الله عنه ولا لغيره من شعراء عصر النبوة، وقد وقع التغيير في الأسلوب والمضمون، ولانت الألفاظ والطبائع، فتجافى الشعراء عن الغريب والتكلف وتطورت مفاهيم بعض المفردات الإسلامية التي وقعت في شعرهم، ولم يقع تغيير في شكل القصيدة أو أوزانها فما زالت القصيدة تحتفظ بالمقدمة التي تتوج بها، ويتخذها الشاعر مدخلاً لموضوعه.

وكانت المقدمة ظللية (بكاء على أطلال وذكرياته) أو غزلية (يتغزل فيها بمحاسن الحبيب) ثم ينطلق إلى الموضوع، وقصائد كعب بن زهير وليبد التي مدحا فيها الرسول ﷺ تتصدرها المقدمة، ولم يصدر النبي ﷺ نهياً عنها، ولكنه ﷺ كان لا يقبل على الشاعر إلا بعد أن يستحسن معانيه، فيستزيده، وهو توجيه حكيم منه ﷺ لأهل هذه الصنعة فأصلحوا من مقدماتهم، ولم يعودوا لمثلها في حضرة النبي ﷺ، وكان حسان رضي الله عنه أسبقهم صحبة وأكثرهم دربة على المديح الذي يستحسنه النبي ﷺ لطول صحبته به وعلمه بما يحب ويكره.

وما يسميه الباحثون ضعفاً ليس إلا مراجعة وإعادة تخطيط لهدف الشعر وأغراضه، فقد صاروا مسلمين فامتنعوا عما لا يرضى من القول. وقد هدم الإسلام آفات الجاهلية ورد كثيراً من أمرها، وقد كانت هذه الأمور موضوعات الشعراء، وطرح الإسلام موضوعات جديدة واستوقفت الشعراء وأغرثهم، فصارت هدفهم وظهرت الشخصية الإسلامية في الشعر العربي. وقد صار حسان رضي الله عنه - عندهم ضعيفاً، لأنه أوقف شعره على

مدح النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، والرد على المشركين وهجائهم، وهجر مادون ذلك من أغراض الشعر، وماذا ينتظر من شاعر يقف في صفوف المجاهدين، ويشهد مصارع المشركين واستشهاد المؤمنين، وقد ندم عن جاهليته، ففي من يتغزل وليس بحين الغزل، ومن غير رسول الله ﷺ يمدح وأصحابه رضوان الله عليهم، وقد صار الملوك الذين مدحهم في جاهليته أمواتاً أو خصوصاً لدينه.

فحسان رضي الله عنه ليس ضعيفاً في شعره الذي مدح به النبي ﷺ وشعره الذي شارك به في المعارك، ولكن الضعف أتاه من قبل هجره بعض أغراض الشعر التي لم يجد لها مناسبة وليس لها وجه من القول في فترة الدعوة الأولى، والعمل الشاق الذي يكابده رسول الله ﷺ وأصحابه ومواجهة أعداء محيطين ومحدثين بهم، أبتركهم ويتغنى بمعاصيه، ويفضح الناس ويصف عوراتهم، ليرضى عنه النقاد، ويقولون فيه أجاد في وصف كذا من المرأة وعبر عن أثر الخمر تعبيراً جيداً في قوله كذا، وأحسن في نسيبه في كذا! وقد عفا الرجل نفسه وحفظ لسانه ولم يقل كذباً ما لا يفعل، وجاهد مع النبي ﷺ بشعره، وإن قال الشعر الذي يطلبه النقاد منه، فلمن يقوله والمسلمون لا يشتركون لهوا الحديث، ولا يرضونه هدية ولا مضيعة للوقت أو شغل الفراغ، فهم في فراغهم ينصبون إلى عبادة ربهم، فقد أدرك واعياً ذوق الجمهور الجديد؛ لأن جمهور المسلمين المتلقين يخالف في ذوقه ما كان يستحسنه ويطرب له أهل الجاهلية. فترك حسان من الشعر ما ياباه الذوق الإسلامي في زمنه، وهو ما ضعفه فيه نقادنا المعاصرون ولم يرضوه له.

وقد شغل الناس القرآن الكريم وأقبلوا عليه، وتباروا في حفظه وقراءته، وقد علا القرآن الكريم على ما سواه من كلام العرب شعراً ونثراً؛ وحسان كان يتأسى بلفظ القرآن ومعانيه، وهو رائد في هذا التأسى وليس مسبوقاً فيه، فأجاد في كثير منه وأخفق في بعضها، وهذا حال الرواد ممن يفتحون الطريق ويضعون الأسس ليمهدوا المسير لغيرهم، فلا يعابوا على جهودهم،، وحسان كان رائداً في استخدام الألفاظ الإسلامية في شعره وتناول مضامين جديدة، وجعل للشعر هدفاً عالياً في الحياة، فقد حول هدف الشعر إلى أهداف سامية واقتدى به الشعراء فيها، وكان له رفاق في ذلك مثل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وكعب بن مالك، وكثير من أصحاب النبي ﷺ قالوا الشعر، ولكن هؤلاء لم يقوموا للشعر قيام حسان له، ولم يتخذوه صنعة لهم فيعرفوا به. وقد قيل الشعر في الجاهلية طلباً لمغانم الدنيا، فقال له حسان وأصحابه رضوان الله عليهم ابتغاء مرضاة الله وحباً لرسوله ﷺ بعد إسلامهم.

وقد تعلق بعض المحدثين بأقوال بعض القدماء الذين قالوا إن الشعر ضعف أو توقف في عصر النبوة، وصاحب هذا الرأي الأصمعي الذي رأى أن الشعر يقوى بما يخوض فيه من شر، فإذا دخل في الخير ضعف، يريد بذلك أن الشعراء تحولوا عن بعض المعاني والأغراض المذمومة التي حرّمها الله تعالى، ففقد الشعر بعض قوته، ويرى الأصمعي أن حسان بن ثابت رضي الله عنه من فحول شعراء الجاهلية بيد أنه ضعف بالإسلام وسقط شعره، وقطع متنه في الإسلام، يعلل ذلك بأن حسان هجر ما يخالف الدين من المعاني والأغراض وهو ما كان يرفع من شعره، وأوقف نفسه على مديح النبي ﷺ وأصحابه والرد على المشركين، وترك مديح الملوك ومباريات الشعراء والغزل والفخر، وحمية الجاهلية وتفانها بالأنساب والحروب والظلم.

رأى ابن سلام^(١) أن الشعر قد ضعف بمجيء الإسلام أيضاً وعلل ذلك بأن العرب تشاغلّت عن الشعر عندما جاء الإسلام، فتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم، فانشغلوا عن الشعر وروايته وهو عنه، فلما انتشر الإسلام، وفتحت البلاد واطمأن العرب وسكنوا المدن وعم الرخاء رجعوا إلى رواية الشعر بعد أن فقد كثير منه بموت رواته، وعدم تدوينه. وهذا ليس مبرراً، لأن حروب الجاهلية كانت كثيرة، وقد كانت هذه الحروب أرضاً خصبة يترعرع فيها الشعر ويزدهوا، وكان للحروب دورها في علو الشعر في الإسلام.

ورأى ابن خلدون أن العرب انصرفوا عن الشعر أول الإسلام وانشغلوا بأمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، وتفوق القرآن الكريم والنبي ﷺ عليهم، فأخرسوا وسكتوا عن الشعر والنثر زماناً ثم ثابوا إليه بعد أن استقروا، والشعراء لم يتوقفوا، وسوف نذكر بعضاً ممن لهم صلة بالدعوة من شعراء المسلمين والمشركين، لنرد هذا القول الذي انتشر بين الباحثين. وهو وجه مقبول بيد أن الشعراء لم يتوقفوا بمجيء الإسلام، لأن شعراء المشركين نالوا من المسلمين ورد عليهم شعراء المسلمين، وقد أدرك الإسلام فحول الشعراء مثل: أعشى قيس، وهو ورجل مسن، وقد مات قبل أن يسلم، ولبيد بن ربيعة، وقد كان بشعره إلى جوار المشركين، ثم أسلم، واعتذر عن هجائه، وامتنع عن شعراء الهجاء والإباحية، لأنه قاتل إلى جوار المشركين بشعره، فتاب عن ذلك، ولم يخض فيه، لأنه رأى أن الشعر دفعه إلى الإثم، وآثر أن يتخذ القرآن الكريم له بديلاً، وقد كان هذا شأن أهل الورع الذين يتنسكون في الكبر ويهجرون ما شغلهم عن العبادة،

(١) طبقات فحول الشعراء، أبو عبيد الله القاسم بن سلام - السفر الأول ص ٢٥، ٢٤.

وقد كان هذا شأن لبيد وحده، وليس شأن جميع الشعراء الذين أسلموا رضي الله عنهم، فقد قال حسان الشعر حتى مات في خلافة معاوية رضي الله عنه، وقال كعب بن مالك وله رثاء في مقتل عثمان رضي الله عنه.

وأذهب إلى ما ذهب إليه ابن خلدون أن القرآن الكريم شغل الناس عن الشعر، وبهرهم بإعجازه، ففضلوه على سائر القول، ولكننا لا نطلق الرأي فيه، لأن هذا كان وقفاً على شعراء الحجاز فقط، الذين أدركهم الإسلام على الكبر، والشعر لم يسقط جميعه بل ما كان فيه هجاء للإسلام فقط أو فيه حديث عن الوثنية ولم يفقد شيئاً مما كان عليه إلا بعض مقوماته ودعائمه، مثل الهبات والجوائز، وابتزاز الناس، وحروب الجاهلية العصبية، وما كان فيه من فحش، وقد تورع عنه شعراء الصحابة رضوان الله عليهم وحدهم، دون غيرهم ممن دخلوا في الإسلام في الفتوحات.

وقد حرم الإسلام دعوى الجاهلية كأن يستغيث الرجل بعشيرته والتفاخر بالأنساب وأن يسب عرضاً أو يرمي محصنة أو يعرض بقوم، وقد كان شعراء الجاهلية لا يتورعون عن ذلك ويعدونه زاداً وسلاحاً يرفعونه في وجوه الناس، فيتألفونهم بالجوائز، ويكرمون وفادتهم ليأمنوا ألسنتهم.

وقد تعلق بعض الشعراء بأمور الجاهلية مرة ثانية، وهم مسلمون، فدعوا بدعوى الجاهلية في الفتنة، وخاضوا في الأعراض وجنح بعضهم في ظل الغنى والرخاء إلى الغزل العفيف والصريح، وعرف بعضهم بشعراء الخمريات والغلمان وغير ذلك من الشعر، وقد غزى هذه الفنون الظروف السياسية والدعم المادي وحياة الترف التي عاشتها الأمصار في ظل الحضارة التي أظلت بظلالها على ربوع الأمة.

ولا أميل إلى ما سلم به بعض العلماء إلى أن الشعر ضعف في عصر النبوة والخلفاء الراشدين أو أنه سقط، وهذا الرأي ليس للمحدثين بل سبق إليه الأصمعي، وابن سلام، وابن خلدون، ونسلم بما ذكره عن ظروف الشعر في هذه الحقبة، وأهم ما فيها القرآن الكريم الذي أذهل العرب، واستوقفهم طويلاً وأعجزهم عن محاكاته ومباراته ومخاصمته، فلم يجد المعارضون بداً من الإعراض عنه واللغو فيه، والتشويش عليه لنلا يسمعه أحد، ثم أعلنوا عن عجزهم عن التصدي له ولأثره فيهم، فدخلوا فيه، ونهلوا منه. فالنص القرآني أبطل ما ادعاه الشعراء من قوة المخاصمة والحجاج واللجاج، فأنصرف الناس عنهم، وانشغلوا بالقرآن الكريم فهو جد ليس بالهزل ويعلو ولا يعلى عليه، وهو كثير المعنى غزير الإيحاء، وله حلاوة لا يبلغها الشعر.

ولا شك أن الذوق العام في المدينة المنورة ومكة لا يرضى بما يتضمنه شعر الجاهلية من هجاء لاذع وقذع وقذف وتشبيب وإباحية، فقد تغير ذوق المتلقي ولا يقبل إلا حقاً وخيراً، وليس شعر الجاهليين مقبولاً عندهم من جميع الوجوه، ولم يعد للشعر المكانة التي تبوأها في الجاهلية، فلم يكن فيها ما ينازعه مكانه، فأزاحه القرآن الكريم عن مكانته، وقدمه المسلمون عليه، بيد أنه لم يسقط من حياة الناس فقد بقي قائماً ينشده المسلمون، ويرتلونه في المواقف، ولكنهم لم يتخذوه مهنة وصناعة يحترفونها، وقد ظلت رواية الشعر في أقوام الشعراء، والشعراء أنفسهم كان بعضهم يروي شعر بعض والأبناء كانوا يروون شعر الآباء^(١)، وكانت بعض القصائد مشهورة وكانت القريحة العربية تتسع لحفظ الشعر وروايته وقوله أيضاً، ولم تتوقف في جاهلية ولا إسلام، وقد غزاها الإسلام بمعان جديدة ومضامين سامية وآداب عالية.

وما قيل عن الشعر في الحجاز يراد به شعراء قريش ويثرب فقط ولا يحمل على شعراء القبائل العربية، فهم لم يسموا بعد، وقد أسلم كثير منهم بعد فتح مكة، وكان فيهم شعراء وفدوا مع قومهم وسنذكر ذلك في موضعه، وكان هناك شعر قيل في حروب الردة وشعراء في حوادث الفتنة فكان الشعر يعبر عن أصوات القبائل، ويلعب دوره في المعارك ويعرض الحجج في الخصومات والحجاج. ويحمل ما جاء عن ابن سلام الأصمعي وابن خلدون على الشعر الموضوع فقد ادعت العصبية شعراً في الإسلام ونسبته إلى رجال منها لتجعل لنفسها شرفاً ودوراً وتصنع لنفسها تاريخاً، تباهي به العرب، وكان هذا الشعر ضعيفاً، وبعضه ليس شعراً بل كلاماً معقوداً بقواف، وبعض القصاص صنعوا شعراً ونسبوه إلى شيوخ قصصهم ليتكسبوا من قصصهم، وكانت هذه صناعة رجال في الجاهلية، وكان أشهرهم عبد الله بن الزبير الذي عارض كلام النبي ﷺ بقصصه ليصرف الناس عنه، ويقول أنا أحدثكم بأفضل مما حدثكم به محمد، ويسرد عليهم قصصه الموضوعة، والمحرفة والخرافية، ومثله أمية بن أبي الصلت، كان يدعى أنه يعلم الغيب ويوحى إليه، ويحدث الناس عن الله تعالى ببعض ما يدعيه كذباً، وكان يرجو أن يكون نبياً، فلما أوحى إلى النبي ﷺ حسده وكاد له. وكان القصاص يقصون على الناس في المساجد أحياناً أو وفي النوادي وأسواق ومجالس الناس، وحلقهم، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعاقبون

(١) كان كعب بن زهير وأخوه بجير رضي الله عنهما يرويان شعر أبيهما زهير بن أبي سلمى، وكان الحطيئة يروي الشعر عن آل زهير، وروى الأعشى شعر خاله المتلمس بن علس - الأغاني ١٥/١٤٠

الوضّاعين منهم، وينهون الناس عنهم، وتصدى لهم علماء الأمة من بعد ولم يأخذ عنهم الرواة. وقيل عن بعض رواة الشعر المحترفين أنهم كانوا يصنعون الشعر وينسبونه إلى الشعراء، ويكثرّون عنهم الرواية طمعاً في المال أو عصبية، أو شهرة.

وقد وجه ابن سلام نقدًا لاذعًا لمحمد بن إسحق رحمه الله؛ لأنه روى بعض الأشعار عن القصاص والرواة وهي موضوعة والوضع فيها ظاهر، وكان يعتذر عن ذلك بأنه ليس من صيرافة الشعر ولا رجالة فيعلم الصواب منه، بل كان يرويه في سيرته زيادة على ما قاله واستكمالاً لما حدث به، وكان هذا ديدن علماء هذا العصر يذكرون كل الروايات للإبصار والأمانة، ويلمحون إلى ذلك ويرشدون القارئ، وقد فعل الطبري (ت ٣١٠) ذلك في تاريخه، وفعله أيضًا محمد بن إسحاق، ولكن العامة لا تنتبه لمنهج الكاتب فتأخذ كل الروايات على الحقيقة وتستند إليه في حديثها.

وتدخلت عوامل عديدة في منع بعض رواية بعض أشعار الجاهلية، أو ذكرها، فكانت هنالك موانع دينية وسياسية، فقد كان للدين أثر في ترك بعض شعر المشركين، فقد تورع بعض العلماء والرواة عن رواية الشعر الوثني، وشعر المجون، وشعر الهجاء الذي قاله المشركون في النبي ﷺ، فابن هشام في سيرته يصرح في بعض المواضع التي روي فيها الشعر أنه ترك شعرًا لما فيه من كفر أو سباب أو سوء خلق، أو قذع في الإسلام والمسلمين، أو يصيب النبوة، فلا يرويه تورعًا وحياء، وفعل كثير من الإخباريين (المؤرخين) ذلك، وفعل مثلهم الأدباء، وسكتوا كذلك عن الأشعار التي تثير العصبية القبلية. وقد ترك الشعراء المسلمون المخضرمون أشعارهم التي قالوها في ذم الإسلام والمسلمين بعد إسلامهم، وسكتوا عنها، وذلك في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، والذين قد نهوا عن إنشادها بعد أن هداهم الله إلى الإسلام، بأمر من ولاة الأمر.

روى أن ضرار بن الخطاب وابن الزبيري؛ قدما المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه ونزلا على أبي أحمد بن جحش الأسدي، وكان له مجلس يجتمع عنده الناس، وينشدون الشعر، فقالا أتيناك لترسل إلى حسان بن ثابت فنناشده ونذاكره، فإنه كان يقول الشعر في الإسلام ويقول في الكفر (قبل أن يسلم). فحضر حسان وقدمهما فأنشدها شعرًا مما قالاه في جاهليتهما، فغضب حتى إذا صار كالمرجل يفور، فتركاه متغيظًا، وهما بالرحيل إلى مكة، فشكاهما حسان إلى عمر رضي الله عنه، فأرسل في إثرهما فرُدا. وقال عمر لحسان: أنشدكما يريد شعره الذي قاله فيهم قبل أن يسلموا قبل فتح مكة، فأنشد حاجته حتى رضي وهدأ، فترك عمر رضي الله عنه الرجلين، ونهى عن ذكر شعر هجاء الجاهلية مما يغضب

الناس^(١)، ويثير حمية الجاهلية.

ولا شك أن حملة التشكيك التي قادها بعض رجال الأدب في العصر الحديث، وقائدهم فيها الدكتور طه حسين أتت ثمارها في بعض جوانب دراسة الأدب، وأضرت به في مواضع، فقد كشفت النقاب عن بعض الأشعار التي وضعت في الإسلام على لسان الجاهليين والإسلاميين المتقدمين تعصباً لنسب أو لمذهب سياسي أو طلباً للتكسب. ولكن هذه الحملة جنحت في بعض المواقع فأثت على الصحيح من الشعر، فصوبت إليه أسهم الشك وحملته على غيره مما فيه تزيف. فقد أقام بعضهم معركته على أسس ظنية، منها المقارنة بين ما جاء في القصيدة وطبيعة الشاعر، فلا يقبلون شعراً دينياً عن ماجن يتحدث فيه عن الأخلاق والتقوى، وكثير من الشعراء قالوا شعراً في المجون ولهم أشعار حميدة في مواطن حميدة أثرت فيهم، فقد كان الشاعر يمدح الصالحين بما فيهم، فإذا جالس غيرهم ماجنهم وعابثهم في اللهو والمزاح. ويتبين لنا أن ما قاله بعض متقدمي عصرنا الحديث يحتاج مراجعة في كثير من الوجوه، فلا يحمل كله على الصحة، فقد حملهم على تلك الآراء تأثرهم بالمناهج الغربية وتعسفهم في العمل بها في مواطن لا تكون فيها، وأعملوها دون قيد أو مراجعة، فأصابته جهودهم في موقع وأخفقت في آخر.

وقد آثرت هذه المناهج زوبعة كبيرة ضللت كثيرين في بدء النهضة الحديثة في مصر في القرن الماضي، فما لبثت أن هدأت ثورتها وخمدت بركاتها بعد فترة عندما بدأ الوعي الثقافي العربي يعيد نفسه ويستجمع قوته ليواجه بها الثقافات الوافدة، فذهبت حرارة الحماسة للغرب التي انتشى منها رجال من العرب، فحملوا على تراثهم، وأسخنوه طعناً. وبعض أفراد البعثات العلمية المتقدمة سطوا على مؤلفات بعض المستشرقين في التراث العربي، وسلبوا أفكارها وصاغوها بأسلوبهم وادعوا لأنفسهم ظناً منهم أن لا يعلم بهم، وقد مر ذلك على بعض الناس، ولكن هذه السرقات كشفتها بعثات أخرى ترجمت أعمال المستشرقين إلى العربية، فإذا فيها الذي نسبته متقدمون علينا لأنفسهم، وزعموا أنه ثورة على التخلف وتجديد في الوعي الثقافي وتنقيح للأدب وتخليته مما فيه من زيف وضعيف موضوع. وقد توارى تلاميذ هؤلاء أن يقولوا على أعمدتهم لصوص، فقالوا: اقتباس وتأثر وتناص، ووراء هذه الكلمات معاني أخرى يعرفها المتخصصون!

(١) ارجع إلى طبقات فحول الشعراء جـ ٢٤٤/١

وقد فضح سرقات بعض رجال البعثات أنهم نقلوا عن الغربيين بعض اعتقاداتهم غير الواضحة عن الإسلام فيشوبها لبس أو تضليل، فنقلت عنهم دون مراجعة، وحملت في أعمالهم على أنها آراء خاصة ومواقف فكرية، ورفعت أسهمهم بين المتأوربين، وسقطوا كذلك في بعض المغالطات التاريخية العقديّة، فالغربيون كتبوا تاريخ أنبيائهم و تاريخ الشرق متأثرين بما جاء في العهد القديم، وقد خالف بعض ما جاء ذكره في القرآن الكريم، ووقع ذلك في الحديث عن علاقة إبراهيم وإسحاق وإسماعيل عليهم السلام ببית المقدس ومكة المكرمة (بيت الله الحرام) .

وأخطأوا في مفاهيم بعض الأمور، فخلطوا بين الحكم في الإسلام ومفهوم الخلافة فيه وبين الحكم الكنسي، وهي الرؤية الغربية للحكم الديني مطلقا. وقد انعكس ذلك على تفسير بعض الألفاظ والتراكيب، نحو: سلطان الله، وخلافة الله في الأرض، وهو من عرف العربية أن تضيف ما له قيمة إلى ما هو أعز منه قيمة وقوة لتزيده قوة في موضعه، وتشريفاً، ومن ذلك "كتاب الله" يراد به القرآن الكريم وأضيف "الله" لفظ الجلالة له تعظيماً وتشريفاً وتمكيناً له في المعنى و نحو قولنا في عيسى عليه السلام "كلمة الله" تشريفاً له وتعظيماً، وتعريفاً لهذه الكلمة وتبيين مدلولها وأثرها في الفعل، فهي كلمة نافذة واقعة "كن فيكون".

بيد أن بعض المحدثين فسروا سلطان الله، وخلافة الله وغيرهما من الإضافات على أنها تقع حقيقة لا مجازاً، وزعموا أنها ادعاء التقديس وحق الألوهية على الخلق، وهو مفهوم كنسي لرجل الدين صاحب الوكالة عن الذات المقدسة. وهو من سوء الفهم والتأثير أوقعهم فيهما الجهل بسياق اللغة العربية وعرفها في التعبير عن المعاني حقيقة ومجازاً.

وما زال اختلاف الحضارتين الإسلامية والغربية في الجوهر سبب مباشر في الجدل القائم حول تفسير قضايا الإسلام في الفكر المعاصر، وقد أفدنا من النظرية الغربية في تفسير الأدب واللغة، بيد أن المتعصبين للغرب يعالجون الأدب العربي قاطبة في ضوء النظريات الغربية ويحكمونه ما ليس فيه، فيأولون أشعار الجاهلية في نسق الفلسفة الغربية، ويكثرُوا القول، وليس الشعر منها في شيء إنما هو تفيهق ولجاج، وهم ألد الخصام.

* * * * *

شعراء عصر النبوة

عصر النبوة يبدأ بنزول الوحي على النبي ﷺ بمكة وتكليفه بأمر الدعوة إلى الله تعالى وإبلاغ دينه للناس، وانتهى بوفاة النبي ﷺ بالمدينة المنورة وانقطاع الوحي. وقد كانت فترة النبوة أو الدعوة ثلاث وعشرين سنة تقريباً^(١)، فعصر النبوة يراد به الفترة التي كان ينزل فيها الوحي على النبي ﷺ من الله تعالى.

وعصر النبوة موصول بالعصر الجاهلي من الناحية الأدبية، وشعراء هذا العصر ولدوا في العصر الجاهلي، وتلقوا مشاربهم منه، وترعرعت قريحتهم الشعرية فيه، وقد انقسم شعراء الحجاز فريقين عندما ظهر الإسلام، فريق تعصب لجاهليته ودين آبائه الأولين، وظل ينافح عنها ويدافع عن شيعته وحزبه، فمات بعضهم على شركه، قبل الفتوحات، وبعضهم أسلم بعد فتح مكة، فتحول من الدفاع عن المشركين إلى الاعتذار والتوبة، ومدح النبي ﷺ. وهؤلاء الذين حالفوا المشركين وماتوا على شركهم عرفوا بشعراء المشركين ويدخل فيهم من كان معهم قبل إسلامه. وفريق بادر إلى الإسلام وهم الذين آمنوا بما نزل على محمد ﷺ وناقحوا عنه، وردوا على شعراء المشركين، وعرفوا بشعراء الإسلام ويدخل فيهم شعراء المشركين الذين أسلموا، واعتذروا عما قالوه في شركهم في الإسلام والمسلمين؛ ومن مات من شعراء المشركين ولم يسلم يدخلون في شعراء العصر الجاهلي، والذين أسلموا وقالوا الشعر في الجاهلية والإسلام أطلق عليهم الشعراء المخضرمون وهم الذين أسلموا أولاً، ومن لحق بهم من شعراء المشركين فأسلم.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون الشعر ويرتجزونه في المواقف والأحوال إن لاح لهم في أنفسهم شيء، ونسب لكبار الصحابة رضوان الله عليهم شعر، كانوا يقولونه إن عرض لهم دون تكلف أو قصد، وبعضهم احترفه، وكان أبو بكر رضي الله عنه راوية ونسابه، ويعلم كثيراً من الشعر، وكان النبي ﷺ يستنشد ويستدل لقوله بما يحفظه من شعر، وكان ذواقاً وناقذاً، وكان عمر رضي الله عنه كذلك يستحسن بعض الشعر، ويذم بعضه ويستنشد من يحفظه ويسأل عن شعر الحكمة ومكارم الأخلاق، وصحت أقوال عنه

(١) جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: "أن النبي ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين". وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أنزل على رسول الله ﷺ، وهو ابن أربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة، فهاجر إلى المدينة، فمكث عشر سنين، ثم توفي ﷺ. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ. وفتح الباري ١٨٦/٧.

أنه أوصى الناس بحفظه وأنه ديوان العرب له تاريخهم ولغتهم، وقد أدرك عمر رضي الله عنه قيمة الشعر عندما فسرت به بعض معاني القرآن وكشف به عنها وعرف مرادها منه، فقد نزل القرآن الكريم بلسان العرب والشعر ديوانهم، فرأى أنه سجل للغسة العرب، وديوانهم. وروى عنه أنه قال: "تعلموا الشعر، فإن فيه محاسن تبتغى، ومساوئ تتقى" (١).

وروى عنه أيضاً أنه قال عندما أنشده رجل بيت شعر عن معنى "التخوف": "أيها الناس تمسكوا بديوان سفركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم" (٢). وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على عبد الرحمن بن عوف في منزله، وهو يتغنى بقول القائل:

وكيف ثواني بالمدينة بعد ما قضى وطراً منها جميل بن معمر

فلما دخل عمر قال له عبد الرحمن: "إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم" (٣).

وكان عمر رضي الله عنه يحب شعر زهير بن أبي سلمى، ويعجب به لما فيه من الحكمة ومكارم الأخلاق، وكان يقدم زهيراً على الشعراء، ويقول: أشعر الناس الذي يقول:

ومن هاب أسباب المنايا يئنه	ولو رام أسباب السماء بسلم
ومن يك ذا مال فيبخل بماله	على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه	ولا يغنيها يوماً من الدهر يندم
ومن يغترب يحسبُ عدوَّ صديقه	ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لا يذذ عن حوضه بسلاحه	يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة	يضررس بأنياب ويوطأ بمنسم (٤)

وكان عمر رضي الله عنه يعجب بقوله:

(1) زهر ١ لأدب جـ ٢٣/١

(2) الموافقات للشاطبي جـ ٥٨/٢، الدلالة اللفظية للدكتور محمود عكاشة مكتبة الأنجلو ص ٤٦

(3) الكامل (٣٢٩/١٢)، رواه السهيلي في الروض الأنف جـ ١٠١/٢ على هذا الوجه، ورد رواية المبرد التي جاء فيها أن المنشد عمر، والمستأذن عبد الرحمن رضي الله عنهما، ورجح رواية الزبير بن بكار المذكورة، وقال: هو أعلم بهذا الشأن. وجميل بن معمر الجمحي من مكة، وقد سأل عمر بن الخطاب عندما أسلم عن أنقل قريش للحديث، فقبل له جميل بن معمر الجمحي من مكة، فأخبره أنه أسلم، فنادى في قريش: ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا، وعمر يقول: كذب، ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

(4) معلقة زهير شرح قصيدة كعب ص ٣٠ والمعلقات العشر، دار القلم، ص ١٢١، وهذه الأبيات فيها تقديم وتأخير، المنسم: طرف خف البعير.

فإن الحقّ مقطعة ثلاث يمين أو شهود أو جلاء

وقد روت كتب الأدب أخباراً عنه في نقده الشعر ورأيه فيه وله حكومات شعرية، وقد تخاصم إليه الشعراء وقضى بينهم، وشكت إليه الناس بعض الشعراء فنظر في شعرهم وقضى بينهم، وأقواله في الشعر تشهد بوعيه وتذوقه المعنى.

ومما قاله الإمام علي رضي الله عندهما طلب الخوارج منه أن يقر على نفسه بالكفر ليسيروا معه إلى الشام لقتال الخارجين عليه بها، فقال: أبعد صحبة رسول الله ﷺ والرفقة في الدين أرجع كافراً، وقال:

يا شاهد الله عليّ فاشهد أني على دين النبي أحمد

من شك في الله فإني مهتدي

وكان يردد ذلك كلما عرض له أمر مثله^(١).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لما قدمت على النبي ﷺ قلت في الطريق^(٢):

يا ليلة من طولها وعنائها على أنها من دارة الكفر نجّت

وغير هؤلاء كثيرون قالوا الشعر ورووه، وبعض الصحابة كانوا يحترفون الشعر قبل إسلامهم، وقالوه في الإسلام. ويقسمون على ثلاثة أقسام^(٣):

الأول: شعراء آمنوا وشاركوا في الدعوة والدفاع عن الإسلام وأشهرهم: حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه الخزرجي، وعبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه الخزرجي، وكعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه من بني سلمة (من الخزرج).

الثاني: شعراء عارضوا الدعوة وناصروها العداء، ثم أسلموا وأشهرهم: عبد الله بن الزبيري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب القرشي.

الثالث: شعراء أدركوا الإسلام ولم يسلموا، وبعضهم ناصب الإسلام العداء، وبعضهم كف

(١) الكامل ج ٣/ ١٣٥ وأكد المبرد أنه له، وللإمام علي شعر كثير ينسب إليه، وأفرط الناس في حبه فوضعوا الشعر على لسانه، وعلى رضي الله عنه يرتفع بإسلامه و بمكانه من رسول الله ﷺ وليس بشعره.

(٢) صحيح البخاري كتاب "المغازي" باب "قصة دوس"، وفتح الباري ج ٧/ ٧١٠، وذلك في قدومه مع الطفيل بن عمرو رضي الله عنهما ليسلما.

(٣) لقد رتبنا الشعراء في هذا الباب باعتبار مكانهم في الشعر، وقيامهم عليه وشهرتهم فيه، ولم نرتبهم باعتبار الفضل، فعلي بن أبي طالب وكبار الصحابة رضوان الله عليهم وغيرهم ممن شرفوا بصحبة النبي ﷺ أولى بالتقديم لعلو فضلهم ومكانهم في الإسلام، وحسان رضي الله عنه يفضلهم بشعره، وقد أعجب بشعره رسول الله ﷺ وقدمه على غيره من الشعراء.

عن القول فيه ولم يرد عنه شيء في الإسلام، وبعضهم سمع به وهم أن يسلم، فسوف، وعاجلته منيته قبل أن يسلم.

وشعراء عصر النبوة كثيرون، وسوف أكتفي بذكر من لهم صلة مباشرة بالدعوة الإسلامية من شعراء الإسلام وغيرهم، وأترك من سواهم ممن كانوا يعيشون بعيداً عن الصراع، ومن ماتوا قبل الدعوة والذين أسلموا مع قبائلهم في الفتوحات الراشدية وشاركوا في الحياة السياسية ونسبوا إلى العصر الأموي، فهؤلاء الذين تركناهم ذكرتهم كتب الأدب وتراجم الشعراء، لكننا آثرنا أن ندرس الجانب الذي أهمله كثير من الأدباء، وهو علاقة الأدب بالدعوة في مهدها، وقد قدمنا من أسلم على غيره، وقدمنا من ساهموا بشعرهم في الدعوة وناقحوا عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام، وردوا على شعراء المشركين، وهجوهم وأفسدوا حجتهم، وكان لشعرهم وقع السلاح على المشركين، ومن هؤلاء:

حسان بن ثابت رضي الله عنه ^(١) : إمام شعراء الإسلام، حمل لواءهم منذ أن هاجر النبي ﷺ إلى يثرب، فنافح عن الله تعالى ورسوله ﷺ وهجا المشركين.

وقد ولد حسان رضي الله عنه في بيت شعر، فأبوه وجده شاعران، وبقي الشعر فيهم طويلاً، ويعد حسان من الشعراء المخضرمين المعدودين، وهو فحل من فحول الشعر في الجاهلية والإسلام. وعاصر حسان شعراء فحول، وأشهرهم النابغة الذبياني ^(٢)، ولبيد بن ربيعة، والنابغة الجعدي، والأعشى وغيرهم.

وكان شعر حسان الأول في المعارك التي وقعت بين قبيلتي الأوس والخزرج قبل الإسلام

(١) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناه بن عدي بن مالك بن النجار بن عمرو بن الخزرج، وبنو النجار أخوال النبي ﷺ، ويكنى أبا الوليد، وهو فحل من فحول الشعراء. وقيل: أشهر أهل المدر، وقد عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، ويعد آل حسان أعرق الناس في الشعر، فإنهم يعدون ستة في نسق كلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام - الأغاني ج ٤/٢، ٣

(٢) هو زياد بن معاوية، ويكنى أبا أمية (أو ثمامة)، وقد فضله بعض الأدباء على النابغة وزهير، والأعشى وراوا أنه أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق الكلام وأجزلهم بيتاً، وليس شعره بمتكلف ورأى بعضهم أنه أشعر الشعراء، واعترف له بذلك حسان بن ثابت رضي الله عنه، وكان معاصراً له، وكان النابغة شاعر النعمان بن المنذر، وله فيه مدائح عظيمة مشهورة، ويتمثل بها لجودتها وحسنها، ومما قاله في النعمان:

حلفت فلم أترك لنفسك ريباً وليس وراء الله للمرء مذهباً

وقوله: فإني كالكليل الذي هو مدركي وإن حكيت أن المنتأى عنك واسع

وقد أدرك الإسلام، ولم يسلم، فقد مات قبل أن يدخل الإسلام الشام والعراق. ارجع إلى الشعر والشعراء عبد الله بن مسلم بن قتيبة - دار إحياء العلوم - بيروت ص ٨٨

، فقد كانت يثرب "المدينة" ميداناً للخصومات والصراعات التي يقف من ورائها اليهود، وكان حسان رضي الله عنه يدافع عن قبيلته الخزرج، ويقف في الميدان الآخر قيس بن الخطيم يدافع عن الأوس.

وكان هذا الميدان الحربي سبباً في شهرة حسان، فقد تحمس لقومه فمدح، وفاخر بأجدادهم، ووصل رحمه بملوك الغساسنة في جلق بالشام، فافتخر بقرابته منهم، فقربوه منهم، وتقاسم هو والنابغة الذبياني، وعلقمة الفحل وغيرهم شعر بلات بني غسان بالشام، فوهبوه أعطيائهم واتصل كذلك ببلاط الحيرة، فمدح المناذرة، وقد أغدق عليه أبو قابوس النعمان ابن المنذر، فنزل عنده منزلة النابغة الذبياني حتى عاد النابغة بعد قطيعة إليه وتصالها، فتركه حسان مكرهاً.

وقد أكسبه اتصاله بالملوك مالا كثيراً، فعاش في رخاء ونعمة، وقد جعله ذلك يعني بشعر المديح فارتقى بأسلوبه وجوده.

وقد كان للصراع السياسي داخل يثرب "المدينة" أثر في شعره، فقد كان ينافح عن قبيلته الخزرج أمام شاعر فحل (قيس بن الخطيم الأوسي)، فحقق تقدماً عظيماً في فن الهجاء، فارتقى أسلوبه أيضاً وألم بأدواته وعلم أسرارهِ وأسلحته الفتاكة، وقد نفّعه ذلك في هجاء المشركين من بعد، فقد كان هجاؤه عليهم كوقع النبل فيهم جماعة واحدة.

لقد كان المدح الذي وصل به إلى الملوك بالشام والعراق ميدانه الأول الذي بارى فيه شعراء البلاط في المملكتين، وقد أوقف مديحه في الإسلام على النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

وقد كان يجاهد في المعارك بشعره، فتأذت قريش وتألّمت من وقع شعره فيهم وأثره، واستطاع حسان أن يتصدى لشعراء قريش في مرحلة الصراع بين الإيمان والكفر.

وقد ضعف بعض النقاد الدهريين شعره الإسلامي ورفعوا شعره الجاهلي عليه توهيناً وحسداً لمنزلته ودوره في الإسلام، فقد هزم بشعره جيش شعراء المشركين، بيد أن بعض المنصفين أنصفوه فقالوا إنه سلسبيل شعر فياض سريع الخاطر، عامر البديهة، خصب الذهن، فلم تنضب قريحته حتى جاور ربه.

وقد زهق ما قاله مرضى القلوب فيه، لقربه من النبي ﷺ ومكانته منه، فلم يقصدوا شعر حسان بطعنهم بل مكانة حسان في الإسلام؛ فقد مدحوا شعره الجاهلي بما فيه من هجاء وتشبيب وقذف ومغالاة في المدح وتصنع وكذب عرف به الشعراء، وذموا ما قاله صدقاً وإيماناً في الإسلام، فضعفوه، ولكن رسول الله ﷺ أعجبه شعره وسرّ به وهذا

يكفيه، وقد أصاب به مقتل المشركين، وقضى له النبي ﷺ بالنصر عليهم، فبخته بعض نقاد عصرنا حقه. ويعد حسان رضي الله عنه فحلاً من فحول الشعر ولا يتمارى في ذلك اثنان، فهو شاعر مطبوع مجيد ولد في بيت شعر فأبوه وجده شاعران، وقد كان الشعر أقوى ملكة فيه فهو شاعر شديد التأثير قوي العاطفة موهوباً.

وقد استطاع أن يخوض غمار كل موضوعات الشعر، فمدح، وهجا، وافتخر، وشبب، ورثى، ووصف، واستطاع أن يغزوا هذه الأودية ماهرًا ويهيم فيها، بيد أنه تميز في موضوعي المديح والهجاء^(١).

ويتميز شعر حسان رضي الله عنه، بالصدق والتأثر والعفوية والتدفق، فشعره يتدفق تدفقاً، فقد كان يستجيب لطبعه ومشاعره ولا يتكلف التصنع، فهو ليس كزهير يتأمل شعره ويحوكه ويجوده بل يترك العنان لنفسه، ويستجيب لها، فمطالعه مقتضية لا يطيل فيها، ويسرع في الانتقال الداخلي من موضوع إلى آخر، وقد يشعرك أحياناً بأنه قلق مضطرب، فشعره يفتقد أحياناً إلى الترتيب الموضوعي؛ لأنه يعبر عن ثورته الداخلية مباشرة، فبعض شعره يشبه الشعر المرتجل، ويقع هذا كثيراً في شعره الإسلامي، فقد كان ينفعل بالوقف فيهبط منه سيل عرم من الشعور لا يرده ولا يحبسه، فعاطفته الجياشة كانت تستجيب طوعاً، لإيمانه الصادق بالموقف، وقد كانت طبيعة الموقف، وسرعة الأحداث لا تمهله وقتاً لينقح شعره ويهذهبه أو يتفحصه فنياً مثل زهير الذي عرف بالحوليات، فقد كان يمكث زمناً ينقح شعره وله مدرسة منها: كعب بن زهير وبُجَيْر أخوه، والحطيئة. وقد كانوا يتأثون في نسج الشعر وتجويده، فيخرج مصقولاً متسلسلاً مترابطاً.

وقد وضع على شعر حسان شعر في الإسلام فأضعفه، فقد نحله المتأخرون شعراً لم يقله، وكان هذا مدخلاً إلى الطعن في قوة شعره الإسلامي، والقصائد المرتجلة لا تكون في قوة القصائد المعدة المنقحة والمتقفة، وكانت سرعة الأحداث تتطلب ارتجال الشعر لمواكبتها وملاحقتها، وكان الموقف سيداً في شعر حسان.

(١) جمع شعر حسان في ديوان وطبع مراراً في تونس أولاً (١٨٦٤م)، ثم في بومباي بالهند (١٨٦٥)، ثم مصر (١٩٠٤م)، ولندن (١٩١٠م) ط هرشفيلد.

وقد دُسَّ على حسان شعر كثير ليس له بل وضع على لسانه لمكانه من الرسول ﷺ ومكانته بين شعراء الإسلام. وقد وقع مثل ذلك لغيره من كبار الشعراء وقد تعرض لهم الأدباء وكشفوا هذا التزييف وأشهرهم في هذا ابن سلام، فتناول الشعر المنحول وأسباب انتحاله، وكان منها أسباب سياسية وعصبية - ارجع إلى طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام. السفر الأول ص ٥.

وبعض المحدثين يضعفون شعر حسان الإسلامي، ويستدلون لهذا الرأي بما قاله الأصمعي فيه: الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضَعُف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية علماً جاء الإسلام فسقط شعره"، وقال أيضاً: "شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع منته في الإسلام لحال النبي ﷺ^(١).

وقد رأى محمد بن سلام أن حسان بن ثابت أشعر من كعب بن مالك السلمي، وعبد الله بن رواحة، وقيس بن الخطيم الأوسي، وأبي قيس بن الأسلت العوفي اليهودي.

فقال: وهو كثير الشعر جيدة، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد، لما تعاضلت قريش واستبَّت، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقى^(٢).

وهذا مما أدخل الوهن في شعره وسمَّاه الأصمعي شعراً ضعيفاً له في الإسلام، فقد كانت الأشعار الموضوعية ضعيفة وزيدت في شعره.

وقد كان حسان يستجيب لطبيعة الموقف وما تقتضيه من سرعة البديهة وحضور الذهن، وهذا كله لا يمنحه وقتاً لمراجعة شعره وحوكه، فكان هذا وغيره أسباباً مباشرة في اتهام بعض النقاد له بأن بعض شعره فيه لين وضعف.

وبعضهم تجراً وقال: إن شعره الإسلامي ضعيف، ولا يختلف مديحه فيه عما مدح به الجاهليين. وهذا الرأي فيه تعسف، فالظروف التي عاشها الشاعر وتعرض لها شعره أثرت فيه، فكان عليه أن يواكب الأحداث، فكان حسان يندفع مستجيباً لفوران مشاعره وسرعة الحدث، بيد أنه كان صادقاً عفويًا غير متكلف فكان شعره الهجائي كالسهام التي تقع جملة واحدة في الهدف.

وقد كانت سرعة استجابته لا تمهله الوقت الكافي لإطالة مطالع القصائد، والاسترسال في الوصف، والإكثار من التمثيل، وقد كان الوصف الدقيق وكثرة التفاصيل والإطالة في سرد الموضوعات والتمثل من سمات شعر الجاهلية، بيد أن شعر حسان خرج في كثير منه على هذه المعالم الجاهلية.

ولاشك أن ما نحلّه الناس حسان من الشعر من بعده، أو هي بعض شعره، فقد دخل على شعره شعر منحول ركيك فيه تكلف وصنعة، وقد تعرف الأدباء على بعضه فأخرجوه من شعره. وقد غلب على شعره الرقة ولين الطبع والاقتضاب، ويرجع ذلك لتأثره بأسلوب

(١) الشعر والشعراء ص ١٩٢

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٢١٥/١

القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ، فذهب لفظه وارتقى به ووسّع دلالاته، فارتفع أسلوبه عن جلالة الجاهلية وخشونتها وغلظتها وفظاظتها في بعض الحديث.

وقد كان لحياة حسان في المدن (الحضر) أثر في شعره، فقد عاش في يثرب (المدينة) في صباه وتربى في بيت وارف ناعم، ثم انتقل إلى بلاط الغساسنة والخميين وكان لهذه الحياة الوارفة أثر في مستوى لفظه وتراكيبه، فقد خلا من الغريب والوحشي ولان جاتبه ورقت حاشيته، وسلست ملكته الفنية فهجر خشونة الجاهلية وتجاوى عن غلظتها، وغلوها وإفراطها في الوصف والزخرفة.

إن حسان بن ثابت مؤسس مدرسة جديدة "مدرسة الشعر الديني" التي استطاعت أن تتخلص من جاهليتها وماديتها وجلافتها وسوء عطنها، فاتخذت نهجاً جديداً وطريقاً واضحاً للأدب؛ فقد جعلت هدفه مكارم الاخلاق ونفى عنه الفحش والخنا، واقتدى به شعراء المديح الديني من بعده، فصار إماماً لمن بعده.

ولشعره قيمته التاريخية في الجاهلية والإسلام، فهو مصدر لمن أرخ للجاهلية وأيامها التي وقعت بها حروب وأحداث جسام، وأرخ حسان رضي الله عنه بشعره لصدر الإسلام، فقد تابع الغزوات والأحداث وسجلها بشعره فصار مدونة لها وسجلاً لهذه الفترة، وسنن بين ذلك في موضعه إن شاء الله.

ويعد حسان في الإسلام رائد الشعر السياسي، فقد شارك في الأحداث السياسية، وقام بدور فيها، فقد كان بمنزلة وسائل الإعلام التي توظف جهودها في الحروب والأحداث لخدمة الدولة وموقفها، فقد كان متحدثاً رسمياً عن الإسلام أمام العرب بشعره، وكان يكشف عن طبيعة الصراع بين المدينة ومكة وما آلت إليه الأمور ويرد على ما يقوله المشركون في الإسلام وأهله.

لقد كان حسان رضي الله عنه مجاهداً بشعره، فجعل شعره للدفاع عن الله تعالى ورسوله ﷺ ودينه، فرد على المشركين وأسقط حججهم، ولم يمدح أحداً من الجاهليين بل جعل مدحه للرسول ﷺ وأصحابه، وهو نوع جديد من المدح لا يبتغي به كسباً ولا عطاء، ولم ينافق أو يداهن، ولم يصف إلا ما رآه فيهم ولا يقل إلا ما هم عليه فوصف الخصال الحميدة.

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: الخزرجي الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ ومن طبقتهم الأولى. وكان عبد الله بن رواحة عظيم القدر في الجاهلية سيذاً، وكان يناقض قيس بن

الخطيم (من بني ظفر الأوسي)، وكان في الإسلام عظيم القدر والمكانة عند رسول الله ﷺ (١)، وهو آخر الثلاثة الذين سماهم رسول الله ﷺ في قيادة غزوة مؤتة وقتلوا (٢).

وكان عبد الله بن رواحة يجاهد المشركين بلسانه مثلما جاهدهم بسيفه وقد كان عفا صالحاً، وكان النبي ﷺ يحب قوله.

روى أبو هريرة رضي الله عنه، أنه سمع الرسول ﷺ يقول: "إن أخوا لكم لا يقول الرفث - يعني بذلك ابن رواحة - قال (٣):

وفينا رسول الله يتلو كتابه
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استنقلت بالمشركين المضاجعُ
إذا انشق معروفٌ من الفجر ساطعُ
به موقناتٌ أن ما قال واقعُ
ذكر ابن سلام أن رسول الله ﷺ دعا عبد الله بن رواحة عندما رآه يمر عليه أمام المسجد، وهو في نفر من أصحابه، فجلس بين يديه فقال: كأنه يتعجب من شعري: "كيف تقول الشعر إذا قتله؟ قلت: أنظر في ذلك ثم أقول. قال: فعليك بالمشركين. قال: فلم أكن أعدت شيئاً، فأنشدته، فلما قلت:

فخبروني أثمان العباء متى كنتم بطريق أو دانت لكم مضرُ
قال: فكأنني عرفت في وجه رسول الله الكراهة، إذ جعلتُ قومه أثمان العباء" (٤).
وكان المشركون قد أبوا أن يدخل النبي ﷺ عليهم مكة، فخرجوا يردونهم عنها، وقد عاهدوا على أن يحج العام المقبل، وأذنوا له في العمرة، وقد قال عبد الله بن رواحة عندما أراد النبي ﷺ العمرة وخرجت مكة تنظر إليه:

نجالدُ الناسَ عنِ عرضِ فأناسِهمُ
وقد علمتم بأننا ليس غالبنا
فينا النبي وفينا تنزل السُّورُ
حي من الناس إن عزوا وإن كثروا

(١) طبقات الشعراء س ٢٢٣/١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، غزوة مؤتة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما "أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة".

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، هجاء المشركين.

(٤) طبقات فحول الشعراء ج ٢٢٥/١، وقد قال ذلك يهجو بني مخزوم وغيرهم من قريش. العباء: كساء جاف غليظ يلبسه الفقراء فجعلهم أثمان العباء في الخسة. والبطاريق: واحداً بطريق، القائد الحاذق بالحرب وأمورها.

ياهاشمَ الخير إن الله فضلكم
 إنني تفرست فيك الخير أعرفه
 ولو سألت أو استنصرت بعضهم
 فثبت الله ما آتاك من حسنٍ
 فأقبل عليه ﷺ بوجهه فقال: "وإياك فثبت الله!"^(١). فخر بنفسه وبقومه الأنصار وبنزول
 رسول الله ﷺ فيهم ونزول القرآن، وافتخر بانتصاراتهم. ومدح بني هاشم رهط النبي ﷺ،
 وقد فضلهم الله تعالى على الناس، باصطفاء رسول الله ﷺ منهم، وهو يريد مدح النبي ﷺ،
 ودعا له بأن ينصره ويثبته مثلما ثبت موسى عليه السلام ونصره.
 وقال عبد الله بن رواحة، وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ في عمرة القضاء يقودها،
 وقد اجتمع أهل مكة وغلمانهم ينظرون إليه، وهو يقول^(٢):

خلُّوا بني الكفار عن سبيله
 نحن ضربناكم على تأويله
 خلُّوا فكل الخير مع رسوله
 كما ضربناكم على تنزيله
 ضرباً يزيل الهام عن مقيله
 ويذهل الخليل عن خليله

يقول: اتركونا لسبيلنا، فالحق مع الرسول ﷺ وهو على حق، وقد قاتلناكم على ما
 وعدنا الله تعالى مما سوف يجعله لنا من النصر، مثلما قاتلناكم على ما أنزله من الحق وما
 هو كائن، وقد وعد الله تعالى رسوله النصر على المشركين وفتح مكة قال تعالى: ﴿لَقَدْ
 صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آؤْمِنِينَ مُحَلِّقِينَ
 رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا
 قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

(١) طبقات فحول الشعراء ابن سلام تحقيق ، دار المدني بجدة من ٢٢٦، ٢٢٥/١

جالد: ضرب، الخير: التغيير والتغير وغير مثل عنب.

(٢) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام س ٢٢٤/١، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع من الهجرة،
 وديوانه جـ ١٠١/١. خلُّوا: تركوا وباعدوا، ضربناكم: قاتلناكم. والتأويل: نبأ الله إلى رسوله، ونصر الله
 تعالى المؤمنين قال تعالى: ﴿قُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ
 جَاءَهُمْ رَسُولٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَعَلَّ لَنَا مِنْ شُغْلَاءَ فَيُشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ قَدْ
 خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَظُلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

الهام واحدها، هامة: الرأس، والمقيل: مغرز الرأس بين الكتفين.

وقيل هذا هو التأويل. وقال عبد الله بن رواحة لما قُتل زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، فأخذ اللواء فأصيب إصبعة، فارتجز وقال^(١):

يَانْفَسُ إِنْ لَا تَقْتَلِي تَمُوتِي هَذِهِ حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتُ
وَمَا تَمْنَيْتِ فَقَدْ لَقِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمَا هَدَيْتِ
ومات رضي الله عنه شهيداً، فكان ثالثهم.

كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب بن سواد بن سلمة بن الخزرج، ويكنى أبا عبد الله، وهو شاعر الرسول ﷺ. وهو أحد السبعين الذين بايعوا بالعقبة رحمهم الله تعالى، وشهد الغزوات كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدرًا. وله أشعار في الجاهلية، وعرف بشعره في الإسلام، وكان محباً لعثمان رضي الله عنه، وورثاه، وكان يقاتل إلى جوار حسان وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم شعراء المشركين.

وهو شاعر مجيد، ويقال إن أفرخ بيت قالت له العرب قوله في غزوة بدر^(٢):

وببئر بدر إذ يردُّ وجوههم جبريلُ تحتَ لوائنا ومحمدُ
ومن جیده قوله يوم أحد^(٣):

فجئنا إلى موج من البحر وسنطه أحابيش منهم حاسرٌ ومُقتنِعُ
ثلاثة الآلاف ونحن نصية ثلاث مئین إن کثرنا وأربع

يذكر مشركي قريش ومن حالفها (أحابيشها) وهم ثلاثة آلاف، وكانت عدتهم "سبعمئة"، ثم ذكر ما حل بهم على أيدي المسلمين وهم قلة:

فراحوا سراعاً مَوْجفين كأنهم جهامٌ هراقت ماءه الريحُ مُقلِعُ

(1) فتح الباري ج ١٠/٦١٨ والسيرة .

(2) معجم الشعراء ص ٣٠، ومن جيد قوله:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قُدْماً ونلحقها إذا لم نلحق

(3) طبقات فحول الشعراء س ١/٢٣٠.

سميت قريش ومن حالفها أحابيشها، لأنهم تحالفوا عند جبل حبشى أسفل مكة في الجاهلية فسمو به. والنصية: الخيار، الأشراف، وأوجف: أسرع. والوجيف: سير سريع مضطرب، الجهام: السحاب الخفيف، قطانا: من الوطاء.

ورحنا وأخرانا قطاناً كأننا أسود على لحم ببيشة ظلّع^(١)

يريد: فانقلبوا خائفين راجعين منهزمين كأنهم سحب خفيف أراق ماءه، فضربته الريح فانكشف مسرعاً، فوطأت أхраهم أولاهم من شدة الفرع لكثرتهم، فعدا المسلمون عليهم مطمئنين كأنهم أسود أكلت حتى تضلعت من فرائسها، فتقلت.

وأنشد كعب بن مالك النبي ﷺ فقال:

جاءت سُخينة كي تغالب ربها فليغلبن مغالبُ الغلاب

فاستحسن ذلك، وقال: "لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا"^(٢).

وفي رواية: "يا كعب ما نسي ربك، أو ما كان نسيّاً بيتاً قلته، قال كعب: ما هو يا رسول الله؛ فقال: أنشد يا أبا بكر، فأنشد بيته السابق". ومدح النبي ﷺ وعشيرته فقال^(٣):

ياهاشما إن الإله حباكُم ما ليس يبلغه اللسان المتصلُ

قومٌ لأصلهم السيادة كلها قدماً وفرعهم النبيُّ المرسلُ

بيض الوجوه ترى بطون أكفهم تندى إذا غبر الزمان الممحلُ

وروى محمد بن سيرين أن قبيلة دوس أسلمت فرقاً من قول كعب بن مالك^(٤):

قضينا من تهامة كل نخب وخيبر ثم أغمدنا السيوفاً

نخبرها ولو نطق لقاتل فواضبهنّ دوساً أو ثقيفاً

كعب بن زهير بن أبي سلمى رضي الله عنه: ويكنى أبا عقبة وقيل أبو المضرب، أسلم عام

الوفود ومدح النبي ﷺ. وهو من الشعراء الفحول المجيدين، وواحد من شعراء مدرسة الصنعة التي أسسها زهير أبوه، فقد كان بجود شعره، وينظر فيه ويحكمه ويعدّه إعداداً، فجاءت أشعاره قوية محكمة، وفيها تسلسل، وترتيب، فكل فكرة تسلم مقادها إلى التي تليها، فخرجت القصائد محبوكة فيها سبك وترابط منطقي، ولا يشذ عن هذا إلا القليل مما ارتجله في الحال.

(1) موجفون: مسرعون، والوجف: سير سريع مضطرب. جهام: السحاب الخفيف، قطان: من الوطاء، ببيشة: موضع تكثر به الأسود.

(2) ربيع الأبرار ٢٦١/٢ (مخطوط)

ومعجم الشعراء ص ٢٣٠، ويروي: همت سخينة أن تغالب ربها، وروي: زعمت سخينة.

(3) معجم الشعراء ص ٢٣٠

(4) العقد الفريد ٢٧٨/٥

وأجمع الرواة على أن كعبًا كان أحد الفحول المجودين في الشعر والمقدم في طبقته، ويصفون شعره بقوة التماسك وجزالة اللفظ وسمو المعنى، وقد تأثر بأبيه في شعره، فجود شعره وهذبته وحاكه وثقفه حتى لان، فليس فيه خشونة البادية وجفوتها وتمعرها وتعسفها.

وبعض الرواة يرون شعر كعب في درجة شعر أبيه زهير، وبعضهم كاد يفضله عليه، وكان زهير مجددًا في شعره مبتكرًا في وصفه^(١).

والرواة يتفقون على أن الشعر اتصل في ولد زهير بن أبي سلمى، فكعب وأبوه زهير وجده أبو سلمى وعمته سلمى والخنساء (غير الخنساء المعروفة)، وخال أبيه (بشامة بن الغدير)، وكان أخوه بجير شاعرًا وولده عقبة شاعر، وعرف بالمضرب وحفيده العوام بن عقبة شاعر، هؤلاء كلهم شعراء.

وقد كانت رواية الشعر فيهم، فقد روى التبريزي قصيدة "بانت سعاد" عن الحجاج بن ذي الرقبة بن عبد الرحمن بن عقبة بن كعب بن زهير.

وقد روى شعر جرير بن عطية ولده من بعده، فقد اتصل الشعر فيهم، فلم يتصل الشعر في بيت أحد من فحول الشعراء في الجاهلية والإسلام اتصاله في ولد زهير بن أبي سلمى، وولد جرير بن عطية^(٢). وكان غيرهم من الشعراء يروى عنهم.

قال الحطيئة لكعب بن زهير: قد علمت روايتي شعر أهل هذا البيت، وانقطاعي لكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً! فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال:

فمن للقوافي شاتها من يحوكها	إذا ما ثوى كعبٌ وفوزَ جرولُ
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً	تنخلُ منها مثلَ ما يتنخلُ
يُنقِّفها حتى تلين متونها	فيقصرُ عنها كل ما يتمثلُ ^(٣)

(1) شرح ديوان كعب بن زهير، صنعه الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري - ط ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م - الدار القومية للطباعة والنشر وله قصيدة مشهورة في مدح الرسول ﷺ "بانت سعاد"، وعارضها الشعراء من بعده.

(2) واتصل الشعر أيضاً في آل حسان بن ثابت، فحسان وأبوه وجده، وولده وحفيده شعراء، وهم سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر.

(3) الشعر والشعراء ص ٢١، وجرول لقب الحطيئة ومعناه: الأرض ذات الحجارة.

لبيد بن ربيعة بن جعفر بن كلاب العامري رحمته الله : ويكنى أبا عقيل، وكان من شعراء الجاهلية وفرسانها، وهو من المعمرين، وقد أدرك الإسلام، وقدم على رسول الله ﷺ في وفد بني كلاب، فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم، وقد أقام لبيد بقية عمره بالكوفة ومات في خلافة معاوية عن مائة وسبع وخمسين سنة تقريباً، وزاد بعضهم في عمره. ولم يقل شعراً في الإسلام إلا قليلاً، وزعم بعض العلماء أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً:
الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سربالاً^(١)
وقيل قال:

ما عاتب المرء الكريم لنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح^(٢)
وليه قصائد في الإسلام تخالف ما قيل إنه سكت عن الشعر وهي قليلة، ومنها قصيدته التي أولها^(٣):

قضى الأمور وأنجز الموعد والله ربي ماجد محمود
وقصيدته التي قال فيها^(٤):

إنما يحفظ التقى الأبرار وإلى الله يستقر القرار
وقال بعد أن أسن وسئم الحياة :

ولقد سنمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس : كيف لبيد؟

وقد كان لبيد رضي الله حسن الإسلام، فقد قدم القرآن الكريم على الشعر، فأثّر عليه فحفظ بعضاً منه، وكان يقرأه على الناس إن سألوه الشعر، ومن ذلك أنه كتب سورة "البقرة" وآل عمران لما طلب شعره، فسر عمر رضي الله عنه ذلك وزاد عطاءه من بيت المال جزاء له^(٥). وقد اعتقد بعض الباحثين أن لبيداً توقف مطلقاً عن الشعر في الإسلام، واكتفى بالقرآن الكريم، وهو أمر يحتاج مراجعة ، وقد ورد ذلك في رواية فأخذ بها الناس ، ولكن ديوانه به إسلاميات. وأرجح أنه أقل من الشعر في الإسلام، لأنه أسن وتورع عما كان يقوله من شعر الجاهلية مما كان يمدح به أو يهجو طمعاً في المال والهدايا، لكنه لم ينقطع

(١) لم أجده بالديوان.

(٢) الديوان ص ١١

(٣) الديوان ص ١١

(٤) الديوان ص ٧٦

(٥) طبقات فحول الشعراء س/١/١٣٥ وفتح الباري جـ ١٧٦/٧ .

عنه لحرمة أو نهى. وقد وقع في الشعر الجاهلي بعض المعاني الدينية والحكم العالية، وقد استجيد قوله في قصيدة يرثي فيها النعمان بن المنذر^(١):

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه قضى عملاً والمرء ما عاش أمل
حبائله مبثوثة بسبيله ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل
فقلوا له إن كان يقسم أمره ألما يعظك الدهر أمك هابل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لعك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون معد فلتزعك العوائل
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله المحاصل

وللبيد أشعار أخرى مستحسنة ينزع فيها الخير والحكمة، ومنها:

واكذب النفس إذا حدثتها صدق النفس يزرى بالأمل
أي: اكذب النفس أن تعدها الخير وتمنيها إياه، فالنفس تزول مع هلك المرء، وهذا الزوال يبدد الأمل. ثم قال:

غير أن لا تكذبها في التقى واخزها بالبر لله الأجل
أي: لا تردّها عن الخير، والتقوى، وسسها ببر الله تعالى العظيم^(٢).
وليه تأملات في جبروت الموت واعتبر بمن فنى من عظماء الناس، وله في ذلك قصائد، ومما قاله:

لا يستطيع الناس محو كتابه أنى وليس قضاؤه بمبدل
ومنها:

بل كل سيعك باطل إلا التقى فإذا انقضى شيء كأن لم يفعل

(١) الديوان صادر بيروت ص ١٣٢ القصيدة فيها تبديل وتقديم وتأخير في بعض الروايات - وانظر الشعر والشعراء ص ١٧٤، ١٥٧ وارجع إلى صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية.
ورأى ابن قتيبة أن بيته الأخير: "وكل امرئ.." قاله في الإسلام، وهو شبيه قول الله تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّمُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، ويتبين من الروايات الأخرى أنه قال هذه القصيدة قبل هجرة النبي ﷺ وليس توارد المعنى في البيت، والآية دليلاً على أنه قال في الإسلام، فالكلام قد يشاكل بعضه يوماً في المعنى واللفظ.

(٢) الشعر والشعراء ص ١٧٥

وله قصائد قوية يتأمل فيها مصيره في الحياة ويذكر فيها نهاية الخلق، وأن مصير المرء إلى الفناء، ولا خير في الحياة إلا الإحسان^(١).

النابغة الجعدي عليه السلام: اسمه قيس بن عبد الله بن عدس بن ربيعة بن جعدة، ويكنى أبا ليلى، وكان شاعراً مقلداً جيد الشعر، جاهلي وأسلم، أتى للنبي ﷺ فقال^(٢):

"أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى
وبلغنا السماء مجدنا وجدودنا
وإننا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

فقال رسول الله ﷺ: "إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال إلى الجنة. فقال رسول الله ﷺ:
إن شاء الله، ثم قال:

ولا خير في حلم إذ لم تكن له
بوادى تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له
حليم إذا ما أورد الأمر أصدرنا

فقال رسول الله ﷺ: "لا يفضض الله فاك". فبقي عمره لم تنقض له سن، وكان معمرًا.

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما للجعدي أنشدنا بعض شعرك فقال:

الحمد لله لا شريك له
من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال: يا أبا ليلى، ما كنا نروي هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت. قال: يا ابن بنت رسول الله، والله إني لأوكل الناس قالها، وإن السروق من سرق أمية شعره^(٣).

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وهو من شعراء قريش المعدودين، وكان يهاجي شعراء المسلمين، وقد هجا النبي ﷺ^(٤).

(١) الديوان ص ٤١

(٢) الشعر والشعراء ص ١٨١، ونادم النابغة الجعدي النعمان بن المنذر، وقيل هو أقدم من النابغة الذبياني وعاش بعده طويلاً، فبلغ فتنة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومات بأصبهان عن مائتي سنة. وقيل أقل من ذلك، وقيل: عاش مائة وعشرين سنة - ارجع إلى معجم الشعراء ص ١٩٥، وكان يشايح الإمام على رضي الله عنه، ويرد على شعراء معاوية رضي الله عنه.

(٣) طبقات فحول الشعراء محمد بن سلام الجمحي س/١٢٨، وقال المرزباني وتروى (يريد هذه القصيدة) لأمية بن أبي الصلت، والصحيح أنها للنابغة - معجم الشعراء ص ١٩٦.

(٤) واسم أبي سفيان (المغيرة)، وهو ابن عم رسول الله ﷺ، وكان مشركاً معانداً هجا النبي ﷺ والمسلمين، وهجاه حسان رضي الله عنه، وكانت (سمية) وأم أبيه (سمراء) سبيتين، وقد هجاه حسان رضي الله بهما وسله من قرابة رسول الله في هجائه ونسبه إليهما، وقد أسلم قبيل الفتح وحسن إسلامه، وتوفي سنة عشرين، وصلى عليه عمر رضي الله عنه.

وكان لأبي سفيان شعر في الجاهلية فسقط وضاع ولم يصل منه إلا القليل، وقد زاد عليه الرواه شعراً في الإسلام، وبعض العلماء كشف عنه ورده، وقد قال يعتذر إلي النبي ﷺ^(١):

لعمرك إني يوم أحمل راية
كالمُدْلَجِ الحيران أظلم ليله
هداني هادٍ غير نفسي وقادني
إلى الله من طردت كل مطردٍ
لتغلب خيل اللات خيل محمدٍ
فهذا أوان حين أهدى وأهتدي

وقد قيل إن رسول الله ﷺ أنكر قوله: " من طردت كل مطرود " فقال له: "أنت طردتني كل مطرد؟ - يردد ذلك - فقال أبو سفيان رضي الله عنه: أستغفر الله يا رسول الله"^(٢). فقد هاجر النبي ﷺ بأمر من الله، ولم يبعده عن مكة أبو سفيان. وقد حسن إسلام أبي سفيان بن الحارث، وقال لأهله عندما حضرته الوفاة: لا تبكوا علي، فإني لم أنتظف بخطيئة منذ أسلمت"^(٣). وقد رثى الرسول ﷺ فقال^(٤):

نبيُّ كان يجلو الشكَّ عنا
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً
بما يوحى إليه وما يقول
علينا والرسول لنا دليل

علي بن أبي طالب ﷺ (أمير المؤمنين) ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته وأبو الحسن والحسين رضي الله عنهما. كان شاعراً إسلامياً لم يقل الشعر في الجاهلية، لأنه كان صبياً (أسلم في العاشرة)، ولكنه لم يقم للشعر قيام غيره من الشعراء الفحول عليه، فقد كان يقول الشعر إن عرض له، ولا يتكلف قوله. وروى عنه سعيد بن المسيب قوله^(٥):

أفاطم هاك السيفَ غيرَ ذميم
فلسـت برعديـد ولا بلئيم

(1) طبقات فحول الشعراء س ٢٤٧/١. وقد اعتذر فيها عما مضى منه وهو مشرك يقاتل في صفوف المشركين النبي ﷺ، فقد كان كالذي يسير في ليل مظلم حيران، وهذا أوان هدايتي، وقد هداني إلى الله تعالى، من كنت أعادي، وأضيق عليه ليخرج من مكة. ارجع إلى السيرة ج ٤/١٨، ١٩. وقد هاجر أبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر ليسلما ولم يكونا يعلمان مخرج رسول الله ﷺ لفتح مكة، فلحقيا رسول الله ﷺ في الطريق وهما يريدان المدينة، فاعتذر إليه أبو سفيان، ولكن رسول الله ﷺ أعرض عنه حتى رآه يوم حنين من الذين لم يفروا وثبت معه، فرضي عنه، وسره ذلك منه.

(2) معجم الشعراء ص ٢٧١

(3) الاستيعاب ج ٤/١٦٤٨

(4) المصدر السابق ج ٤/١٦٧٥

(5) ارجع إلى العقد الفريد، ابن عبد ربه - ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ج ٥/٢٨٣

لعمري لقد جاهدت في نصر أحمد ومَرْضَاة رب بالعباد عليم
أريد ثواب الله لا شيء غيره ورضوانه في جنة ونعيم
وقال^(١):

يا شاهد الله عليّ فاشهد آمنت بالخالق ربّ أحمد
يا رب من ضلّ فإني مهتدي يا رب فاجعل في الجنان مقعدي
وله أراجيز وأشعار تمثل بها في الحروب، وكان يحفظ بعض أقوال العرب السائرة
ويتمثل بها في خطبه وكان يحفظ شعراً كثيراً، وقد أكثر الناس الوضع عليه لمكانه من
النبي ﷺ والإسلام.

العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ﷺ: عم النبي ﷺ، لقب بأبي
الفضل، كان من معدودي خطباء قريش وبلغائهم وذوي الفضل منهم، وكان يشايح النبي ﷺ
قبل إسلامه وينصره على المشركين، وأسلم خفية وبقي في مكة. وقد قال لأخيه أبي
طالب^(٢):

أبي قومنا أن ينصفونا فأنصفتُ قواطع في أيماننا تقطُر الدّما
أبا طالب لا تقبل النصف منهم وإن أنصفوا حتى تعقّ وتظلّما
وكان مع الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلم يفرّ مع من فرّ ممن دخلوا
الإسلام بعد فتح مكة عندما أهدت به هوازن، وقال في ذلك العباس رضي الله عنه^(٣):
أهل أتى عرسي مكريّ ومقدّمي بوادي حنين والأسنة تُشرّع
نصرنا رسول الله كالبدر تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا
حنوت إليه حين لا يجنا أمرو على بكره والموت في القوم منقّع

عمرو بن العاص ﷺ: من قريش، أحد قواد الفتوحات، قال الشعر في الجاهلية
والإسلام، فهو مخضرم، وله أشعار، وهو مشرك يهاجي بها المسلمين، وقد أسلم قبل فتح

(1) معجم الشعراء ص ١٣٠، ١٣١ وقد جمع الناس شعره، وقد زيدت عليه أقوال وخطب وأشعار وحكم لفرط
حب الناس له وتشيعهم إليه.

(2) معجم الشعراء ص ١٠١ وقد ولد العباس رضي الله عنه قبل مولد رسول الله ﷺ بسنتين، ومات آخر أيام
عثمان رضي الله عنه.

(3) معجم الشعراء ص ١٠٢.

مكة^(١)، وله أشعار في الإسلام.

العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه : وهو العلاء بن عبد الله بن ضماد بن سلمى بن أكبر، وفد

على النبي ﷺ فأنشده:

حيّ ذوي الأضغان تسب قلوبهم تحية ذي الحسنى فقد يدفع النغل
وإن خنسوا بالكره فاعف كريمة وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل
فإن الذي يؤذك منه سماعه وإن الذي قالوا وراءك لم يقل
فقال النبي ﷺ: "إن من الشعر لحكماً"، وروي "حكمة"^(٢) وهو من اقادة الفاتحين.

عبد الله بن الزبيري رضي الله عنه : عبد الله بن الزبيري بن عدي بن قيس بن عدي بن سعد

بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي. وكان عبد الله مشركاً معانداً، وكان يعارض القرآن الكريم بشعره، فجلس في مجلس رسول الله ﷺ ويحدث المشركين، ويخاصمه^(٣)، وهاجى عبد الله شعراء المسلمين بعد الهجرة، وله أشعار في معارك المشركين مع المسلمين يمدحهم ويغريهم بقتال المسلمين، وكان شعراء الإسلام بالمرصاد يردون عليه، وقد هرب هو وهبيرة بن أبي وهب إلى نجران يوم فتح مكة، فقال فيه حسان رضي الله عنه:

لا تعد من رجلا أهلك بغضبه نجران في عيش أخذ لنميم

فعاد، وأسلم واعتذر إلى النبي ﷺ بقصيدته التي أولها^(٤):

يا رسول الملوك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بُورُ

لقد ندم ابن الزبيري عما قاله في النبي ﷺ، فقال معذراً عما ذرب به لسانه فيه وفي المسلمين، وهو في غواية الشيطان وحبه، فلساته عاجز عن القول ثقیل به مما فتقه من سفه القول وضلال، فقد كان يباري الشيطان في الضلال، ومن اتبع الشيطان خاب وخسر^(٥). ومدح الرسول ﷺ والحق الذي أيده الله تعالى به لعله يعفو عن ذلالتة، وأن يغفر الله له ذنبه.

(1) العقد الفريد جـ ٢٨٣/٥ .

(2) معجم الشعراء للمرزباني ص ١٥٦، ١٥٧، النغل: الضغينة.

(3) ارجع إلى السيرة جـ ٥٩/١ و ٣٣٤ والزبيري (بكسر الزاى وفتح الهاء والراء) ومعناه: السئ الخلق ، والغليظ .

(4) السيرة جـ ٣٩/٤ وستأتي القصيدة في موضوع الحماسة وقد مات هبيرة بن أبي وهب مشركاً بنجران.

(5) طبقات فحول الشعراء س ٢٤٢/١

فضالة بن عمير بن الملوّح الليثي رضي الله عنه وهو الذي أراد قتل النبي ﷺ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: "أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: ما كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله عز وجل، قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. فقال فضالة: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه". فمر وهو عائد بامرأة كان يحدثها قبل ذهابه، فقالت: هلم إلى الحديث، فقال: لا، وانبعث يقول^(١):

قالت: هلم إلى الحديث فقلت: لا يَأْبَىٰ عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ
لَوْ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَقَبِيلَهُ بِالْفَتْحِ يَوْمَ تُكْسَرُ الْأَصْتَامُ
لرأيت دين الله أضحى بيئنا وَالشَّرْكَ يُغْشَىٰ وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

النمر بن تولب رضي الله عنه: من عُكْل، وكان شاعراً جواداً، جيد الشعر فصيح جرئ المنطق، وسمّاه أبو عمرو بن العلاء: الكيس لحسن شعره، وأدرك الإسلام فأسلم، وهو القائل لرسول الله ﷺ وهو مع قومه^(٢):

إِنَّا أَتَيْنَاكَ وَقَدْ طَالَ السَّفَرُ نَقُودُ خَيْلًا ضُمُرًا فِيهَا عَسَرُ
نَطْعِمُهَا الشَّحْمَ إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ وَالخَيْلُ فِي إِطْعَامِهَا اللَّحْمُ ضَرَرُ
وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً فيه^(٣):



"هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني زهير بن أقيش (قال الراوي: هو حي من عُكْل) إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيم الزكاة، وفارقتم المشركين، وأعطيتم الخمس من الغنائم، وسهم ذي القربى، والصّفيّ (أو قال: وصفيّه)، فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله".

وقد سأله القوم الذين حدثهم بشأن الكتاب الحديث فقالوا: حدثنا أصلحك الله، بما سمعت

(1) السيرة ج ٤ / ٣٧ .

(2) الشعر والشعراء ص ١٩٥، الشحم: السمن .

(3) رواه خلاد بن قرّة عن أبيه عن سعيد بن إبّاس الحريري، عن أبي العلاء بن يزيد بن عبد الله بن الشخير، قال بينما نحن بهذا المربد (مكان بالبصرة) جلوس، إذ أتى علينا أعرابي أشعث الرأس، فوقف علينا فقلنا، لكان هذا ليس من أهل هذا البلد! قال: أجل والله وإذا معه قطعة من جراب أو أديم فقال هذا كتاب كتبه لي محمد ﷺ، فأخذناه فقرأناه فإذا فيه: وذكر النص.

من رسول الله ﷺ. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "صوم شهر الصبر وصوم ثلاثة أيام من كل شهر يذهبن وحر الصدر. فقال له القوم أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: ألا أراكم تخافون أن أكذب على رسول الله ﷺ لا حدثتكم حديثاً" (١).

زيد الخيل ﷺ: زيد الخيل بن مهلهل من طيء، جاهلي أدرك الإسلام، وقد وفد على النبي ﷺ، وأسلم وسماه زيد الخير، وقد مات بعد عودته إلى بلده من وباء أصابه، وكان شاعراً مجوّداً في الجاهلية، عاجله القدر قبل أن يقول شعراً في الإسلام (٢).

أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي ﷺ، كان زعيماً لمشركي مكة في صراعهم مع الإسلام، وأسلم قبيل فتح مكة، وحسن إسلامه وشارك في الفتوحات، ومات في خلافة الراشدين ﷺ. وله شعر قاله في المعارك ورجز، وكان قد قتل له ابن يوم بدر وأسر له آخر، فلم يعده، وقال: لا أفجع في مالي وولدي، وخرج سعد بن النعمان بن أكال بن عمرو بن عوف ﷺ معتمراً، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة، فحبسه بابنه عمرو، ثم قال أبو سفيان:

أَرْهَطَ ابْنُ أَكَالٍ أَجِيبُوا دُعَاءَهُ
فَإِنَّ بَنِي عَمْرٍو لِنَامٍ أَذِلَّةٌ
فأجابه حسان بن ثابت، فقال:

لَوْ كَانَ سَعْدٌ يَوْمَ مَكَّةَ مُطْلَقًا
بِعُضْبٍ حُسَامٍ أَوْ بِصَفْرَاءَ نَبِيعَةٍ
لَأَكْثَرَ فِئَكُمُ قَبْلَ أَنْ يُؤَسَرَ الْقَتْلَا
تَحْنُ إِذَا مَا أَنْبَضَتْ تَحْقِرُ النَّبِلَا (٣)

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه خبرهم، وسألوه أن يعطيهم بن أبي سفيان، ففكّوا به صاحبهم، ففعل رسول الله ﷺ، فبعثوا به إلى أبي سفيان، فخلّى سبيل

(1) سهم ذي القربي: سهم النبي ﷺ، الصفي: ما اختاره رسول الله من الغنيمة، وحر الصدر: ما يكون فيه من الغش والوساوس والغيظ والحسد والغضب، وفي رواية: وحر الصدر: الغل، والعداوة والحقد والغيظ وكلاهما فيه معنى الشدة والتوقد. وقد روي هذا الخبر ابن سعد في الطبقات الكبرى جـ ١/٢/٣٠ وابن سلام في الأموال ص ١١ وابن عبد البر في الاستيعاب ١/٣٠٩ وابن سلام في طبقات فحول الشعراء س ١/١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، والأغاني ١٩/١٥٢.

(2) الشعر والشعراء ص ١٧٩، وطبقات فحول الشعراء س ١/١٦٣.

(3) العضب: السيف القاطع، والحسام: القاطع أيضاً، وصفراء: أراد بها قوساً، والنبيعة — بفتح فسكون — شجرة تنبت بالجبال تصنع منها القسي، والجمع نبع، وتحن: أي نصوت، والذي يصوت وترها. وأنبضت: مدوترها، والأنباض: أن يحرك وتر القوس ويمد. السيرة جـ ٢/٢٩٤.

عكرمة بن أبي جهل : (عمرو) بن هشام بن عبد العزى القرشى، قتل أبوه يوم بدر وألقى في القليب، وكان ابنه عكرمة مشركاً شديداً العداوة للمسلمين لما وقع لأبيه، وقد أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه وتولى قيادة أحد الجيوش في خلافة أبي بكر . وقد قال يوم أحد، وهو يومئذ مشرك يرتجز^(١):

كَلْهُمْ يَزْجِرُهُ أَرْحَبُ هَلَا
وَلَنْ يَرَوْهُ الْيَوْمَ إِلَّا مُقْبِلًا
يَحْمِلُ رُمْحًا وَرَنْسًا حَجَفَلًا

أبو العاص بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف : زوج بنت النبي ﷺ زينب، وأكبر بناته رضي الله عنها، وهو ابن خالتها، وقد أسلم قبل فتح مكة، وقال في زينب رضي الله عنها، وهو خارج إلى الشام، وقد تشوق إليها^(٢):

ذَكَرْتُ زَيْنَبَ مَا جَاوَزْتُ إِرْمَا
فَقُلْتُ سَقِيًّا لِشَخْصٍ سَكَنَ الْحَرَمَا
بِنْتُ النَّبِيِّ جَزَاهَا اللَّهُ صَالِحَةً
وَكُلُّ بَعْلٍ سَيِئْتَنِي بِالَّذِي عَلِمَا

فردة بن نفاثة السلولي بن عمرو بن ثوبة بن عبد الله بن منبه بن عمرو بن هوازن، وفد إلى النبي ﷺ، وهو القائل^(٣):

بَانَ الشَّبَابُ فَلَمْ أَحْفَلْ بِهِ بَالًا
وَأَقْبَلَ الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ إِقْبَالًا
وَقَدْ أَرَوَى نَدِيمِي مِنْ مَشْعُشَعَةٍ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتَنِي أَجْلِي
وَقَدْ أَقْلَبَ أَوْرَاكِي وَأَكْفَالًا
حَتَّى لَبِستُ مِنَ الْإِسْلَامِ سَرِبَالًا

ضرار بن الأزور : شاعر مخضرم جيد الشعر. قال ضرار بن الأزور: أتيت النبي ﷺ فقلت:

وَكُرِيَ الْمَجْبَرُ فِي عَمْرَةٍ
وَقَالَتْ جَمِيلَةٌ بَدَدْتَنَا
وَجَهْدِي عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْقِتَالَا
فِيَارِبْ لَا أَغْبِنُ صَفْقَةً
وَطَرَحْتَ أَهْلَكَ شَتَى شِمَالَا
فَقَدْ بَعْتَ أَهْلِي وَمَالِي بِدَالَا

(1) السيرة جـ ٣/ ١٥٤ : أرحب هلا : كلمتان يزجر بكل واحدة منهما الخيل. الجحفل: الكثير العظيم.

(2) معجم الشعراء ص ٢١٣، ومات أبو العاص في ذي الحجة سنة اثنتي عشرة.

(3) معجم الشعراء ص ٢٢٣، ويروى البيت الأخير للبيد أيضا، وقيل هو البيت الذي قاله في الإسلام، وقد روى له شعرا آخر في الإسلام.

فقال النبي ﷺ: "ربح البيع"، وقيل: "ما غبنتك صفقتك يا ضرار" (١).

الحطيئة: واسمه جرول بن أوس بن مالك بن عبس ابن غطفان، وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم، وهو مجيد في جميع فنون الشعر. وهو شاعر مخضرم مشهور جيد الشعر، وهو من مدرسة زهير بن أبي سلمى، وأحد رواة شعر آل زهير، وقد تمسك بتقاليد الشعر الجاهلي وأغراضه في الإسلام. وكان هجاءً فاحشاً مسرفاً في الهجاء، وقد أسلم بعد فتح مكة ثم شارك في ثورة القبائل على الخلافة ثم دخل في الطاعة، وكان ذا شر وسفه يهجو الناس، ويدعي نسبه فيمن يحب ثم ينكره.

وقد خرج قومه بنو عبس عن سلطة المدينة المنورة بعد وفاة النبي ﷺ وشاركوا في الثورة عليها مع قبائل أخرى، فقالوا: نقيم الصلاة ولا نؤتي الزكاة؛ لنلا يعطوا المقادة لأبي بكر رضي الله عنه، فهم لا يعترفون بسلطته، وكان الحطيئة يشايح قومه ومن معهم، فقال داعياً إلى التمرد والثورة (٢):

فدأ لأرماح نصبن على الغمر	فباست بني عبس وأستاه طيء
وطغن كأفواه المزقة الحمر	أبو غير ضرب يجثم الهام وقعة
فيالهِفْتَا ما بال دين أبي بكر!	أطعنا رسول الله إذ كان بيننا
فتلك وبيت الله قاصمة الظهر!	أيورثها بكرًا إذا مات بعده
وقوموا ولو كان القيام على الجمر	فقوموا ولا تغطوا اللئام مقادة
عشيّة ذادوا بالرماح أبا بكر	فدى لبني نصر طريفي وتالدي

وقد ادعى كذباً أن قومه هزموا جيش الصديق، والحقيقة أنهم فروا.

أبو بكر شداد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك بن جعونة الكلبى، له أشعار كثيرة قالها في الكفر، ثم أسلم.

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه تزوج امرأة من "كلب" يقال لها أم بكر، فلما هاجر طلقها، فتزوجها ابن عمها شداد بن الأسود، وقد رثى شداد كفار قريش في بدر وذكر أم بكر فيها وأنكر البعث وسخر منه.

(1) أسد الغابة جـ ٥٢/٣

(2) الكامل جـ ٢٩١/١ والأغاني جـ ٤١/٢. يجثم الهام وقعه: من برك، يريد يقضي عليها، الغمر: اسم ماء، المزقة: المطلية بالزفت (القطران).

فقال^(١):

وماذا بالقلوبِ قليبِ بدرٍ	من الشيزي تزين بالسنام
وماذا بالقلوبِ قليبِ بدرٍ	من القينات والشرب الكرام
تحيينا بالسلامة أم بكرٍ	وهل لي بعد قومي من سلام
يحدثنا الرسول بأن سنحيا	وكيف حياة أصداء وهام

قيس بن سنان بن خالد بن منقر : من بني تميم، كان سيداً جواداً، وقد على النبي ﷺ في بني تميم فأسلم، فقال رسول الله ﷺ: "هذا سيد أهل الوبر" (يريد أهل البادية)، واستعمله النبي ﷺ على صدقات قومه، وهو ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، لأنه سكر فعث بذئ محرم له، وله شعر جيد، وقد فخر في شعر له بحسبه وأصل أرومته، وفخر بكرم قومه وفصاحتهم وحسن منطقهم وبلاغتهم، وأنهم لا يفضحون جاراً لهم، قال^(٢):

إني امرؤ لا يطبي حسبي	دئس يؤنبه ولا أفن
من منقر في بيت مكرمة	والأصل ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم	بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفتنون لعيب جارهم	وهم لحسن حديثه فطن

واستعمله رسول الله ﷺ على صدقات بني سعد، فسمع بوفاة النبي ﷺ، فقسم ما كان في يده من أموال الصدقات على بني منقر، وثار على خلافة الصديق رضي الله عنه وقال^(٣):
فمن مبلغ عني قريشاً رسالة إذا ما أتتها محكمات الودائع

(1) صحيح البخاري كتاب "المناقب"، مناقب الأنصار. وقد نحلها الناس أبا بكر، فزعموا أنه قال هذا الشعر حزناً على فراق أم بكر، وهذا فاسد، ونفت ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها. وقيل: إن الذي قالها أبو بكر بن شعوب - ذكر ذلك الحكيم الترمذي. والحديث روته عائشة رضي الله عنها. وارجع إلى فتح الباري جـ ٧/٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦. الشيزي: جمع شيز: نوع من الشجر. تصنع منه الجفان والقصاع أراد تسود بالدهن أو تملأ منه. القينة المغنية. أصداء: جمع صدى: ذكر اليوم، وقيل الطائر الذي يخرج من رأس القنديل ينطق يطلب ثاره وهو من أمر الجاهلية. وهام: جمع هامة جمجمة الرأس الذي يخرج منه الطائر بزعمهم.

(2) معجم الشعراء ص ٢٠٠

(3) الكامل جـ ١/٢٩١، ٢٩٢

حبوت بما صدقت في العام منقرا
وأياست منها كل أطلس طامع
وقد عادت سعد إلى حوذة الدولة وقضى جيش الصديق على ثورات القبائل المتمردة
على الدولة.

عمرو بن الأهتم المنقري: كان سيداً من سادات قومه ووفد على رسول الله ﷺ في
وفد بني تميم، وقد مدح عمرو بن الأهتم قيس بن عاصم ثم ذمه في حضرة رسول الله ﷺ
فقال النبي ﷺ: "إن من الشعر حكماً ومن البيان سحراً"^(١). وله شعر في مكارم الأخلاق،
ومن مشهور قوله^(٢):

وكل كريم يتقي الذم بالقري
وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت البلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

عطارد بن حاجب بن زوارة بن عدس بن يزيد بن درام التميمي. وفد على النبي ﷺ
في وفد بني تميم^(٣)، وقيل أنه أنشده^(٤):

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا
إذا اجتمعوا وقت احتضار المواسم
وأنا فروع الناس في كل موطن
وأن ليس في الأرض كدارم

مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع بن وائلة بن هوازن، سيد هوازن
ورئيسها يوم حنين، وأسلم ورد إليه النبي ﷺ السبايا والذرية، وله أشعار كثيرة جواد مدح
فيها النبي ﷺ وغيره ومما قاله في النبي ﷺ^(٥):

ما إن رأيت ولا سمعت بواحد
في الناس كلهم كمثل محمد

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني تميم، وفتح الباري ج٦/٧٩٠
(٢) معجم الشعراء ص ٢١، وكان معه في الوفد عطارد بن حاجب الدارمي، والأقرع بن حابس الدارمي،
والزبرقان بن بدر السعدي، والحبیب بن یزید المجاشعي، ونعيم بن يزيد بن قيس المنقري، وعيينة بن
حصن، وهم الذين نزل فيهم صدر سورة الحجرات.

(٣) وارتد عطارد مع بعض تميم عن الإسلام، وكان ممن اتبع سجاح التميمية، وقال فيها ساخراً:

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها
وأصبحت أنبياء الله ذكرانا
فلغنة الله رب الناس كلهم
على سجاح ومن بالإفك أغراتا

معجم الشعراء ص ١٦٢

(٤) معجم الشعراء ص ١٦٢، وتروى هذه الأبيات أيضاً للأقرع بن حابس، وهو من بني تميم.

(٥) معجم الشعراء ص ٢٦١، وجاء في رواية أنه أنكر على منشدة قالت: "ومتى يشأ يخبرك عما في غد".

ومتى يشأ يخبرك عما في غدٍ
بالسمهري وضرب كل مُهتَدٍ
وسط الأبناء خادر في مرصدٍ

أوفى وأعطى للجزيل لمجدٍ
وإذا الكتيبة جردت أنيابها
فكأنه ليث على أشباله

حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي، حليف بني أمية، وكان يصرف قومه عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله ﷺ، ويكفهم عنه، وكان فيهم مطاعاً شريفاً وقد أسلم. وقال في ذلك^(١):

عليه؟ وهل غضبان للرشد سامعُ
لأقصى الموالي الأقارب جامعُ
وأهجركم ما دام مُدَلٍ ونازعُ
ولو راعني من الصديق روائع

هل قائلٌ قولاً من الحق قاعد
وهل سيد ترجو العشيرة نفعه
تبرأت إلا وجه من يملك الصبا
وأسلم وجهي للإله ومنطقي

قيس بن رفاعه الوافقي (من الأوس) أدرك الإسلام فأسلم، وكان شاعر مجيداً، ومما قاله^(٢):

عندي وإني لدراك بأوتار
يصل بنار كريم غير غدار

وصاحب الوتر ليس الدهر يدركه
من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة

مُزَرَّد والشماخ الأنماريان : وهما ابنا ضرار، قد أسلما فهما مخضرمان، وكان الشماخ أشعر من مُزَرَّد.

قال مُزَرَّد لرسول الله ﷺ^(٣):

أفأنا بأنمارٍ ثعالبٍ ذي غسلٍ
أجرٌ على الأدنى وأحرم للفضل

تعلم رسول الله أنا كأننا
تعلم رسول الله لم أر مثلهم

فُرات بن حيان : فُرات بن حيان^(٤) كان دليل قريش في الجاهلية، وهو ممن هجا رسول الله ﷺ ثم مدحه، فقبل مديحه، وله يقول حسان بن ثابت:

فإن نلق في تطوافنا وابتغائنا
فُرات بن حيان يقظ رهن هالك

(1) السيرة جـ ٣٠٩/١ مدل: مرسل، نازع، جاذب الدلو.

(2) معجم الشعراء ص ١٩٧

(3) الشعر و الشعراء ص ١٩٩ وتعلم بمعنى: اعلم، وأنمار بن بغيض رهطه.

(4) معجم الشعراء للمرزباني - الهيئة العامة لقصور الثقافة ص ١٨٩

وقد رد عليه فرات بأبيات هجاه فيها^(١):

أهوك أبو سوء وخالك مثله ولست بخير من أبيكا وخالكا
يصيب وما يدرى ويخطي وما يدرى وكيف يكون النوك إلا كذلك

قطن بن حارثة العَلَيْمِي: وفد مع قومه على النبي ﷺ فأنشده:

رأيتك ياخيرَ البريةِ كلها نبتَ الأرومة من كعب
أغرَّ كأنَّ البدر سنة وجهه إذا ما بدا للناس في حلِّ العصب
أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه ورشت اليتامي في السَّغَابَةِ الجُذْب
فقل إن النبي ﷺ رد عليه خيراً، وكتب له كتاباً^(٢).

قيس بن المكشوم: ابن عبد يغوث المرادي، كان سيد قومه (مراد)، وقد نصح

عمرو بن معدي كرب رضي الله عنه لما ظهر أمر رسول الله ﷺ أن يذهب إلى رسول
ويسلم، فقال: ياقيس أنت سيد قومك، وقد ذكر أن رجلاً من قريش يقال له محمد ظهر
بالحجاز يقول إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نلقاه، وبادر فروة بن مسيك لا يغلبك على
الأمر. فأبى قيس ذلك وسفّه رأيه وعصاه؛ فقد كان مبغضاً له، وكان فروة بن مسيك رضي
الله عنه ينافس على الرياسة في مراد، فسبقه إلى النبي ﷺ، وأسلم فبعثه على صدقات
من أسلم من قومه^(٣).

مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع التميمي، يكنى أبا

حنظلة، وهو شاعر شريف، وفارس بني يربوع ومن رجالها المعدودين في الجاهلية، أسلم
واستعمله النبي ﷺ على صدقات قومه، فلما بلغه وفاة رسول الله ﷺ أمسك الصدقة وفرّقها
في قومه فجعل إبل الصدقة فسمى الجفول بذلك، وكان له موقف في وفاة النبي ﷺ فقد
قال^(٤):

وقلت خذوا أموالكم غير خائفٍ ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فإن قام بالأمر المخوف قائم أطعنا وقلنا الدين دين محمد

(١) نفسه ، والنوك : الخنق .

(٢) معجم الشعراء ص ٢١٠، رشت: عجبن.

(٣) معجم الشعراء ص ١٩٨

(٤) معجم الشعراء ص ٢٦٠

وقد قُتله ضرار بن الأزور في حروب الردة بأمر من خالد بن الوليد رضي الله عنه ووقعت نساء قومه في السبي، فقدم أخوه بن نويرة على أبي بكر رضي الله عنه، فأنشده مراثي أخيه مالك وناشده في دمه وفي سبيهم، فرد أبو بكر السبي إليه، وأغلظ عمر رضي الله لخالد بن الوليد رضي الله عنهما في أمر مالك، ولمالك شعر جيد كثير.

مالك بن عارم الأشعري: أحد المعمرين، أدرك الإسلام، وأسلم وبإيع النبي ﷺ، وكان مع علي رضي الله عنه يوم صفين.

خفاف بن ندبة بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي. وندبة اسم أمه ونسب إليها، وهو ابن عم الخنساء بنت عمرو بن الشريد الشاعر، وهو جاهلي، أسلم وكان صاحب لواء بني سليم يوم فتح مكة^(١).

عمر بن عدي كروب الزبيدي: وهو من مَنحج، وهو من فرسان العرب المشهورين، قدم على رسول الله ﷺ فأسلم، ثم ارتد بعد إسلامه باليمن، ثم أسلم وشهد القادسية^(٢).

مالك بن الدخشم الأنصاري^(٣)، حضر بدرًا، وأسر سهيل بن عمرو العامري يومها، وقال:

أسرت سهيلًا فلن أبتغي	أسيرًا به من جميع الأمم
وخندف تعلم أني الفتى	سهيلًا فتاها إذا تظلم
ضربت بذى الشفر حتى أثنى	وأكرهت سيفي على ذي السقم

أبو طالب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان يحب النبي ﷺ ويمنعه من المشركين ومات على أرجح الأقوال مشركًا. وله شعر كثير في الجاهلية، وكان جيد الشعر^(٤)، وله شعر قاله في الصراع الذي قام في مكة حول الإسلام، وقد تعرض بنو هاشم للإيذاء من ذويهم. وله قصيدة طويلة في ذلك، وقد مدح النبي ﷺ فيها، ومنها:

(1) الشعر والشعراء ص ٢١٧

(2) معجم الشعراء ص ٢٤١

(3) معجم الشعراء ص ٢٦٢

(4) طبقات الشعراء ٢٤٤/١

وأبيضُ يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

وقد زيدت فيها أبيات موضوعة، وهي صحيحة جيدة عند الأدباء^(١).

الأعشى الكبير، أبو بصير (ميمون) بن قيس بن جندل.. بن بكر بن وائل، ويلقب الصنّاجة^(٢)، وهو من الشعراء الفحول في الجاهلية، وأدرك الإسلام في آخر عمره، ورحل إلى النبي ﷺ ليسلم، فردّه رجال من المشركين وصرفوه بمال وعطايا، وقالوا إنه يحرم كذا وكذا.. ويحرم الخمر، ففيل عاد يتروى منها سنة ثم يقبل فمات بقرية باليمامة، وأرى أنه لم تك الخمر وحدها هي التي دفعته للعودة بل إلحاح المشركين به وعطاياهم له فأمل نفسه أن يعود بعد أن ينصرف عنهم، بيد أنه مات قبل العودة^(٣).

واختلف العلماء في زمن قدومه ليسلم، والمشهور أنه قدم بعد صلح الحديبية، فقد جاء في بعض الروايات أنه التقى بأبي سفيان فذكر له أمر الهدنة التي بينهم وبين محمد، وقد أشارت القصيدة إلى بعض ما حرّمه الإسلام وكان ذلك متأخراً، ومنها تحريم الخمر التي حرمت في سورة المائدة، وهي متأخرة^(٤).

وكان الأعشى مدمن خمر مغرمًا باللذات، ويعد الأعشى من الشعراء الفحول المتقدمين وكان أجاد الأعشى في الوصف والمدح والهجاء.

وكان الأعشى يعلم شيئاً من الحنيفية واليهودية والنصرانية، فقد كان ينزل بأهل الكتاب ويستمع إليهم وسمع شيئاً عن الإسلام وذكره في قصيدته التي مدح فيها رسول الله ﷺ وشك فيها بعض المحدثين، ولكن ما ذكره عن الإسلام لا يتجاوز ما انتشر بين العرب عنه، وذكر أن ما قاله في القصيدة يخالف ما كان عليه من حب الملذات والإقبال عليه، وهذا مردود عليهم؛ لأن الرجل قد أسن ولم تعد له فيها حاجة فأقبل يحسن خاتمته فسر بما حرّمه الإسلام وامتدحه.

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥/١

(٢) يلقب الأعشى الصنّاجة لما في شعره من غناء وقد ولد باليمامة بقرية منفوحة، ويقال إنه كان نصرانياً، وهو أول من سأل بشعره (يطلب العطية)، معجم الشعراء ص ٣٢٥.

(٣) ارجع إلى الشعر والشعراء ص ١٥٩، وقد أشرت الأعشى من ناحية الترتيب - وهو مقدم بشعره - لأن العلماء اختلفوا في مسألة رغبته في الإسلام، وعلاقته به.

(٤) قيل إن سورة "المائدة" آخر سورة نزلت وهي مدنية إلا الآية ٣ نزلت بحجة الوداع والآية ٢٠ نزلت بعد الفتح، وقد حرمت الخمر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وقد قال يمدح النعمان بن المنذر:

فلا تحسبني كافراً لك نعمة على شاهدي، يا شاهد الله فاشهد

ينكر أن يجحد فضله عليه، فعليه ملك موكل به يشهد عليه، وهو بقية من دين
إسماعيل عليه السلام.

أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف بن عنزة بن قيس بن ثقيف بن
هوازن. كان أمية شاعراً من ثقيف، وأخواله بني عبد شمس، وكان قد نظر في الكتب
وقرأ ولبس المسوح وتعبد، وكان يأمل أن يكون النبي الذي يتحدث عنه أهل الكتاب، فلما
بعث النبي ﷺ قيل له هذا الذي كنت تطلبه فذهب عنك إليه، فحسده، فأنزل الله تعالى فيه:
﴿وَأَنْزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَمَ وَمَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وكان في الجاهلية يتعصب لدين إبراهيم عليه السلام وإسماعيل، فحرم الخمر وشك في
الأوثان ودعا إلى الحنيفية، وقال فيها^(١):

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زور

وروى أبو الفرج عن عكرمة بن أبي جهل قال استنشدني النبي ﷺ قول أمية بن أبي
الصلت:

الحمد لله ممساتنا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي وممساتنا

رب الحنيفية لم تنفذ خزائنها مملوأة طبق الآفاق سلطانا

إلا نبي لنا منا فيخبرنا ما بعد غائتنا من راس محيانا

بيننا يربينا أبائنا هلكوا وبينما نقتني الأولاد أفنانا

وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف يلحق أحرانا بأولاتنا

فقال النبي ﷺ: "إن كاد أمية ليسلم"^(٢)، وقيل: "آمن شعره وكفر قلبه". وروى أنه قال
في مرضه الذي مات فيه:

كل عيش وإن تطاول دهرًا منتهي أمره إلى أن يزولا

(١) الأغاني جـ ٣/ ١٨٠ وكانت ثقيف تسكن الطائف، وكان أمية قد علم شيئا من كلام النبوة من المتحنفة
مثل ورقة بن نوفل وسمع من أهل الكتاب، وجالس الرهبان.

(٢) الأغاني جـ ٣/ ١٨٣ وروى مسلم رحمه الله مثل ذلك في صحيحه، وقد ذكرناه في صدر كتابنا. وروى
البخاري مثله في كتاب فضائل الأنصار، باب أيام الجاهلية "وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم".

ليتني كنت قبل ما قد بدالي في رؤس الجبال أرى الوعولا
أجعل الموت نصب عينك واحذر غولة الدهر إن الدهر غولا
ومات ولم يسلم^(١).

وقد رثي من قتل من المشركين يوم بدر فقال^(٢):

مأذا ببدر فالعقت قل من مرآبة جحاجح
هلاً بكيت على الكرام بني الكرام أولي المادح

وقد زعم أبو الفرج الأصفاني أن رسول الله نهى عن روايتها^(٣).

دريد بن الصمة بن خزاعة بن غزية بن جشم بن بكر بن هوازن، وهو فارس شجاع وشاعر فحل، وهو أول شعراء الفرسان، وأكثر غزواً، وأشعرهم، وأدرك الإسلام فلم يسلم، وخرج مع قومه يوم حنين مظاهراً للمشركين، وهو شيخ كبير تيمناً به، وليأخذون رأيه، وقد خالف مالك بن عوف رئيسهم رأيه، ومنعهم من قبول مشورته لنلا يكون له ذكر، وخالفه فقال دريد^(٤):

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشيد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم أو أنني غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويست وإن ترشد غزية أرشد
وقتل دريد يومئذ على شركه. وكان لدريد ابن يسمى سلمة وكان شاعراً وهو الذي رمى أبا عامر الأشعري بسهم فأصاب ركبته فقتله، وارتجز فقال^(٥):

إن تسألوا عني فإن سلمة ابن سمارير لمن توسمه
أضرب بالسيف رؤس المسلمه

(1) الأغاني جـ ٣/ ١٨٤

(2) طبقات فحول الشعراء س ١/ ٢٦٣، الأغاني جـ ٤/ ١٣٣

الممادح: ما يستحسن من الأخلاق، ضد المقابح (سوء الأخلاق) جمع مدحة. وزعم أبو الفرج الأصفاني أن رسول الله ﷺ نهى عن روايتها.

(3) الأغاني جـ ٣/ ١٨٠.

(4) الأغاني ٥/ ٩، وهذه الأبيات من الأقوال السائرة يتمثل بها الناس، وقيل إن الإمام علي رضي الله عنه تمثّل بها لما خالفه رجاله من الخوارج بعد صفين. وغزية: اسم عشيرته، وهي وصف من الغزو.

(5) نفسه ٢/ ٩.

قيس بن الخطيم : وهو ثابت بن عدي بن عمرو بن سواد بن الخزرج بن عمر بن حالك بن الأوس اليثربي، ويكنى أبا يزيد وهو شاعر مجيد فحل، فضله بعض الأدباء على حسان رضي الله عنه، كان يهاجي حسان في الجاهلية وينافره، فيما وقع بين الأوس والخزرج من فتنة في الجاهلية.

وكان حسان رضي الله عنه يمدح شعره، فقال: إنا إذا نافرنا العرب، فأردنا أن نخرج الحبرات من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم^(١).

وقدم قيس بن الخطيم على النبي ﷺ بمكة فعرض عليه الإسلام، فقال إني لأعلم أن الذي تأمرني به خير مما تأمرني به نفسي، وفيها بقية من ذاك، فأذهب فأستمتع من النساء والخمر، وتقدم بلدنا فأتبعك، فقتل قبل أن يتبعه ﷺ، وقيل إن زوجته أسنمت فبلغ النبي ﷺ أنه كان يؤذيها في دينها، فلما لقيه بمكة طلب منه ألا يؤذيها ففعل وأوفى وعده^(٢). ورويت بعض أشعار قيس للنبي ﷺ، فسأل عنها الأنصار وعن صدقه فيها.

عامر بن الطفيل وهو ابن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، ابن عم لبيد بن أبي ربيعة، فارس بني قيس، وكان عقيماً، وهو جاهلي أدرك الإسلام ولم يسلم، أتى النبي ﷺ في وفد من قومه، فقال له: تجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأمر من بعدك وأسلم. فقال النبي ﷺ: "اللهم اكفني عامراً واهداً بني عامر" فاتصرف وهو يقول والله لأملأها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مرداً و لأربطن بكل نخلة فرساً. وكان معه أربد بن قيس أخو لبيد لأمه، وقد عزم أن يغدرا برسول الله ﷺ، فدعا عليهما فمات أربد بصاعقة أحرقتة^(٣)، ومات عامر بغدة أصابته في حلقه فقال: غدة كغدة البعير!

أربد : وهو عمرو بن قيس بن خزيمة بن جزء بن خالد بن جعفر. وأربد لقبه^(٤)، وكان أسيراً كفرة وعزم الغدر مع "عامر" السابق، فاتصرفا يتوعدان رسول الله ﷺ، فقتله الله تعالى بصاعقة، ورثاه لبيد، وله شعر روته كتب الأدب والتاريخ.

أبو عزة الجمحي (عمرو بن عبد الله) شاعر، وكان مملقاً ذا عيال، فأسر يوم بدر كافراً، فقال: يارسول الله إني ذو عيال وحاجة قد عرفتها، فامنن عليّ صلى الله عليك، فقال

(1) معجم الشعراء ص ١٩٦.

(2) الأغاني ج ٢/ ١٥٨ وقيل كانت زوجة قيس بن الشماس وهو الأرجح.

(3) وقد رثاه أخو لبيد بشعره، فقد كان محباً له.

(4) معجم الشعراء ص ١٨، وأربد من ربذ التمر: اختلط سواده بكذره، فهو أربد .

عليّ: "على أن لا تعين عليّ!" يريد شعره، قال نعم. فعاهده وأطلقه، فقال^(١):

ألا أبْلِغَا عني النبيَّ محمدًا	بأنك حقٌّ والمليك حميدٌ
وأنت امرؤ تدعوا إلى الرشد والتقى	عليك من الله الكريم شهيدٌ
وأنت امرؤ بؤنت فينا مباءة	لها درجات سهلة وصعودٌ
وإنك من حاربته لمحاربٌ	شقى ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذُكرت بدرًا وأهلها	تأوبُ ما بي حسرة ووقعودٌ

فدعاه صفوان بن أمية بن خلف إلى الخروج يوم حرب أحد، فقال إن محمدًا قد منّ عليّ وعاهدته أن لا أعين عليه، فلم يزل به وكان محتاجًا، فأطعمه وطمعه حتى أطاعه. وقيل قال له: لك الله على إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أجعل بناتك مع بناتي، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر. فخرج فسار في بني كنانة فحرضهم، فقال^(٢):

يا بني عبد مناة الرزّامُ	أنتم حماة وأبوكم حامٌ
لا تعدوني نصركم بعد العام	لا تسلموني، لا يحلّ إسلام

وخرج أبو عزة مع المشركين في أحد، فأسرّه المسلمون، فقال: يا رسول الله منّ عليّ! فقال النبي ﷺ: "لا يلسع المؤمن من جحر مرتين"، وروي: "لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعتُ محمدًا مرتين. فأمر بقتله"^(٣).

هبيرة بن أبي وهب: بن عمرو بن عائد بن عمران بن مخزوم وكان شاعرًا، معدودًا في قريش وكان شديد العداوة لله ولرسوله فأذله الله تعالى وأبعده وطرده حتى صار الناس لا يباليون به، وقد هرب من مكة في الفتح إلى نجران، ومات بها مشركاً وأسلمت

(1) طبقات فحول الشعراء جـ ١/٢٥٣، وجمهرة الأمثال للعسكري جـ ٢/٣٨٧ - ٣٨٨، والسير

جـ ٢/٣٠٦، ٣٠٧، التنقي شهيد: شاهد حاضر، بواه منزلاً: نظر ما يرى، المباءة: المنزل، تأوب: رجع من الأوب، وهو هنا بمعنى جاء من الأضداد. يقول تأتي حسرة وتعود. وتغدو على وتروح.

(2) طبقات فحول الشعراء س ١/٢٥٤، ٢٥٥. الرزام: جمع رازم، رجل يثبت في مكانه من شجاعته في الحرب، وبنو عبد مناة بن كنانة أخو النضر بن كنانة جد قريش.

(3) السيرة جـ ٣/١١٧ والفائق للزمخشري: لسع، وطبقات فحول الشعراء س ١/٢٥٥، ويمسح عارضيه كناية عن الشماتة والترقب والتباهي بما فعل والسخرية والخديعة.

زوجته، وقد قال يوم أحد^(١):

قَدْنَا كِنَانَةَ مَسْنٍ أَكْنَفَ ذِي يَمَنِ عَرَضَ الْبِلَادَ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا

قَالَتْ كِنَانَةُ أَيْسَنَ تَذْهَبُونَ بِنَا قَلْنَا النَّخِيلَ! فَأَمُّوْهَا وَمَافِيهَا^(٢)

يقول: قدنا كنانة من مكة سالكين بهم مفاوز الأرض على ما كان يدفعها إلى المسير من حب الغزو والطمع في الظفر، فسألوا عن وجهتهم فقالوا نريد مدينة محمد (أرض النخيل) فقصدوها، يشير إلى غلبتهم يومئذ وكثرتهم.

أَبُو قَيْسٍ بْنُ الْأَسَلَتِ من بني وائل من الأوس، كان يحب قريشاً وصهرًا لها ويقيم فيهم، وله شعر يذكر فيه قريشاً وفضلها، ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض، وينهاهم عن الحرب، وقد كان لا يعادي رسول الله ﷺ، وقد نصح قريشاً أن تكف يدها عنه في شعر له، ويألم لما وقع في قريش من خلاف فذكرهم بمن أهلكتهم الحرب من الأمم السابقة، وعظم في قصيدته شأن قريش في الناس وأنهم إمام العرب ومما قاله^(٣):

أَقِيمُوا لَنَا دِينَاً حَنِيفاً فَأَنْتُمْ لَنَا غَايَةً، قَدْ يُهْتَدَى الذَّوَانِبِ

وَأَنْتُمْ لِهَذَا النَّاسِ نُورٌ وَعَصْمَةٌ تَوْمُونٌ وَالْأَحْلَامُ غَيْرُ عَوَازِبِ

وَأَنْتُمْ إِذَا حُصِّلَ النَّاسُ جَوْهَرٌ لَكُمْ سُرَّةُ الْبَطْحَاءِ شَمُّ الْأَرَانِبِ

وقيل أقبل يريد النبي ﷺ، فقال له عبد الله بن أبي: خفت والله سيوف الخزرج! قال: لا جرم، والله لا أسلم حولاً فمات في الحول^(٤).

الْأَسْوَدُ بْنُ الْمَطْلَبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَّى بْنِ قَصِي بْنِ كِلَابِ الْقُرَشِيِّ، كان مشركاً مسناً، وكان من مشايخ مكة، وهو من النفر الذين طلبوا من عبد المطلب أن يكف ابن أخيه عن الدعوة. وكان الأسود بن المطلب قد أصيب ثلاثة من ولده: زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَعَقِيلُ بْنُ الْأَسْوَدِ، وَالْحَرِثُ بْنُ زَمْعَةَ يَوْمَ بَدْرٍ، وكان يحب أن يبكي على بنيهِ، فبينما هو كذلك إذ

(1) طبقات فحول الشعراء س ٢٥٧/١، والسيرة ج ٤٠٨/٢، و ج ١٤٩/٤ - الأكناف: جمع كنف: الناحية، ذو يمن: موضع قريب من مكة. عرض البلاد: ما اتسع من أرجائها، ونواحيها: نصب على الظرفية، أزجى القوم: سامهم ودفعهم.

(2) النخيل: يريد به يثرب، وكانت ذات نخيل تعرف به، أم قصد.

(3) السيرة ج ٣٠٣/١ - ٣٠٥، وهي قصيدة طويلة. سره الشيء خيره وأعلاه. شم: جمع أشم. وهو العالي المرتفع، الأرانب: جمع أرنبه، وهي القصبه التي فيها ثقب الأنف.

(4) طبقات فحول الشعراء س ٢٢٧/١

سمع نائحة من الليل، فقال لغلام له وقد ذهب بصره: انظر هل أحل النخب^(١)؟ هل بكت فريش على قتلاها لعل أبكي على أبي حكيمة؟ يعني زمعة؛ فإن جوفي قد احترق، قال: فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته، قال: حين يقول الأسود:

وَيَمْتَعُهَا مِنَ النَّوْمِ السُّهُودُ؟ ^(٢)	أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بَعِيرٌ
عَلَى بَذْرِ تَقَاصَرَتِ الْجُدُودُ ^(٣)	فَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرِ وَلَكِنْ
وَمَخْزُومٍ وَرَهْطِ أَبِي الْوَلِيدِ ^(٤)	عَلَى بَذْرِ سَرَاةِ بَنِي هُصَيْنِصِ
وَبَكَّى حَارِثًا أَسَدَ الْأَسُودِ	وَبَكَّى إِنْ بَكَيتِ عَلَى عَقِيلِ
وَمَا لِأَبِي حَكِيمَةٍ مِنْ نَدِيدِ ^(٥)	وَبَكْيِهِمْ وَلَا تَسْمِي جَمِيعاً
وَلَوْلَا يَوْمٌ بَذَرَ لَمْ يَسُدُّوا	أَلَا قَدْ سَادَ بَعْدَهُمْ رَجَالُ

الزبير بن عبد المطلب: كان شاعراً، وشعره قليل، وما اطمأن العلماء إلى روايته^(٦):

ولولا الحبش لم تلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا

مقبس بن ضبابة بن حزن بن يسار، أسلم ثم ارتد فأهدر النبي ﷺ دمه، فقتله نميلة بن عبد الله (رجل من قومه) يوم فتح مكة، وهو القائل^(٧):

رَأَيْتِ الْخَمْرَ طَيِّبَةً وَفِيهَا	خَصَالٌ كُلُّهَا دَنَسٌ ذَمِيمٌ
فَلَا - وَاللَّهِ - أَشْرَبُهَا حَيَاتِي	طَوَالَ الدَّهْرِ مَا طَلَعَ النُّجُومُ

(1) النخب: البكاء بصوت، والمعروف فيه النحيب.

(2) السهود: عدم النوم.

(3) البكر: الفتى من الأهل، والجدود: جمع جد، وهو الحظ والبخت.

(4) سرادة القوم: خيارهم وأشرافهم.

(5) لا تسمى: أراد لا تسامى، فنقل حركة الهمزة إلى السين، ثم حذف الهمزة، ومعناه لا تملني، والنديد:

الشبيه والمثل، السيرة جـ ٢/٢٩٢.

(6) طبقات فحول الشعراء س ١/٢٤٦.

(7) معجم الشعراء ص ٤٣٥.

سأتركها وأترك ما سواها من اللذات ما أرسى يسوم

أبو زبيد الطائي: هو المنذر بن حزملة (الطائي) كان جاهلياً وكان نصرانياً، أدرك الإسلام ولم يسلم، فمات على نصرانيته^(١).

وهو من المعمرين، وأدرك خلافة عثمان رضي الله ونادم الوليد بن عقبة، وقيل شرب معه خمرًا فعزله عثمان، فقال في ذلك أبو زبيد:

من يرى العير لابن أروى على ظهر المروى خداتهن وربت عجال
وأروى هي أم عثمان رضي الله عنه والوليد، فهو أخوه لأمه. وقال في الخمر التي عوقب عليها الوليد بالعزل:

قولهم شربك الحرام وقد كان شراباً سوى الحرام جلال
وقيل عنه شعره إنه كان جيد الوصف، وقد أعجب النقاد ببعض شعره وليس له شعر في الصراع بين الإسلام والشرك؛ لأنه كان بمنأى عن الحجاز موطن الصراع. وقد شارك شعراء اليهود العرب في الحياة الأدبية، وشارك بعضهم في الصراع بين الإسلام ومعارضيه، وأشهرهم:

كعب بن الأشرف الطائي اليهودي: كان يعيش في يثرب (المدينة المنورة) مع أخواله من بني النضير، وكان سيّداً فيهم، ويكنى أبا ليلى وله شعر جيد، يعرف به وكانت له مجالس شعرية، ومباريات يناشدهم الشعر^(٢).

وقد شارك كعب بن الأشرف اليهود مؤمراتهم على الإسلام والمسلمين فكاد لهم وحرّض عليهم المشركين وهجا المسلمين وألب عليهم وشبب بنساء النبي ﷺ وبنساء المسلمين، فأمر بقتله^(٣). وقد ذهب كعب بن الأشرف إلى مكة بعد أن بلغه مصابب المشركين، وحرّضهم على قتال النبي ﷺ والثار لأشرافهم الذين قتلوا ببدر، وبكى أصحاب القليب (بئر بدر) ألقى به النبي ﷺ قتل المشركين)، ثم رجع كعب إلى المدينة فشبب بأم الفضل بنت

(1) معجم الشعراء ص ٢٧١ .

(2) كعب بن الأشرف شاعر يهودي، واختلف في نسبه فقيل: إنه من طيء، وأمه من بني النضير، فنشأ في أخواله وكان شاعراً فارساً، وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج، وكان عدواً للنبي ﷺ يهجو ويهجو أصحابه، ويخذل منه العرب، بعث النبي ﷺ نفرًا من أصحابه فقتلوه في داره - الأغاني ج ١٩/ ١٠٦ .

(3) معجم الشعراء ص ٢٣١ .

الحارث فقال^(١):

أَرَا حِلَّ أَنْتَ لَمْ تَخُلْ بِمَقْبَةٍ
صفراء رادعةً لو تُغَصَّرُ انعصرت
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها
أشباه أم حكيم إذ تواصَلْنَا
إحدى بني عامر جُنَّ الفؤاد بها
فرغ النساء وفرغ القوم والدُّها
لم أرَ شمسًا بليلاً قبلها طلعت

وتارك أنت أم الفضل بالحرم!
من ذي القوارير والحناء والكتم
إذا تأتت قياماً ثم لم تقم
والحبل منها متين غير مُنْجَذَم
ولو تشاء شفت كعباً من السقم
أهل النَّحْلَةِ والإيفاء بالذمم
حتى تجلّت لنا في ليلة الظلم

وشبب بنساء أخريات من نساء المسلمين حتى آذاهن، فقال النبي ﷺ: "من لي من ابن الأشرف!" فقتله محمد بن مسلمة رضي الله عنه وسليمان بن سلامة بن وقش، وعباد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عيسى بن جبر رضي الله عنهم.

جبل بن جوال : وهو من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن غطفان ، وكان يهودياً وكان في صفوف المعارضين للإسلام، وبكى جبل بن جوال بني النضير وبني قريظة وهجا المسلمين فقال^(٢):

أَلَا يَاسَعْدُ سَعْدَ بَنِي مُعَاذٍ
وأقفرَت البؤيرة من سلامٍ
وقد كانوا ببلدتهم ثقلاً
وجدنا المجد قد ثبتوا عليه
بمجد لا تغيبه البدورُ
كأنكم من المخزاة عورُ
وقد زُر القوم حامية تفورُ
تركتهم قدركم لا شيء فيها

فرد عليه حسان بن ثابت رضي الله عنه ، فذكر خيانتهم وغدرهم ، فقد نصرُوا قريشاً ، وأولى بهم أن ينصروا من معهم يثرب ، وخالفوا كتابهم ولم يعملوا به ، وأصروا على الكفر، فجددوا نبوة محمد ﷺ^(٣): وقيل إنه أسلم وله صحبة .

(1) تاريخ الطبري، محمد بن جعفر بن جرير الطبري - دار المعارف ط- ١٨/٦

(2) السيرة ج- ٣/٣١٢، ٣١٣ .

(3) ديوان حسان ص ١٩٤ .

تفاد معشر نصرُوا قريشاً
هم أوتوا الكتاب فضيعوه
كفرتهم بالقرآن وقد أتيتهم
وليس لهم ببلدتهم نصير
وهم عَمَى من التوراة بور
بتصديق الذي قال النذير

سِمَاك اليهودي: وهو من شعراء اليهود المشهورين، وكان يهاجي شعراء الإسلام.

وقد حزن لمقتل كعب بن الأشرف وبكاه قائلاً^(١):

أرقت وضافني هم كبير
أرى الأخبار تنكره جميعاً
وكانوا الدارسين لكل علم
قتلتهم سيد الأخبار كعباً
تدلى نحو مخمود أخيه
فغادره كأن دماً نجيعاً
فقد وأبيكم وأبي جميعاً
بليل غيرُهُ ليل قصير^(٢)
وكلهم له علم خبير
به التوراة تنطق والزبور
وقدماً كان يأمن من يجير
ومحمود سريره الفجور^(٣)
يسيل على مدارعه غير^(٤)
أصابت إذ أصيب به النذير

كعب بن أسد بن سعيد القرظي: اليهودي (من بني قريظة) وله مع قيس بن

الخطيم مناقضات في يوم بُعث^(٥).

وشاركت المرأة في الصراع بدور كبير، فنساء المسلمين كن من وراء أزواجهن وأبنائهن، ونساء المشركين الموتورات الثكليات والأرامل ممن فقدن رجالهن وذويهم، كان لهن أثر كبير في المعارك فقد كن يحرضن الرجال على الثأر والانتقام. وقَتيلة بنت الحارث التي رثت أخاها النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف، وقد قتله على بن أبي طالب رضي الله عنه بعد بدر لما قاله في الإسلام والمسلمين وما فعله .

(1) السيرة جـ ٢٠٨/٣ .

(2) ارقت : سهرت وامتنعت من النوم، وضافني : نزل بي وزارني.

(3) انظر حديث مقتل كعب بن الأشرف في الجزء الثاني (٤٣٦ وما بعدها).

(4) النجيع: الدم الطرى، وقوله "مدارعه" يروى بالبدال المهملة وبالذال المعجمة، فأما من رواه بالبدال المهملة فهو جمع مدرعة — بكسر الميم وسكون الدال — وهو الثوب — وخصه بعض أهل اللغة بما كان من صوف.

(5) ارجع إلى معجم الشعراء ص ٢٣٢ .

ونسبت إليها قصيدة طويلة ترثيه فيها أولها:

يا راکباً إن الأثیل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق^(١)

وخنساء: وهي تماضر بنت عمرو وبن الشريد وهي أخت صخر بن عمرو، وهي

جاهلية وأسلمت، ولها مراثي مشهورة في صخر ومعاوية أخويها، وغيرهن.

* * * * *

(١) العقد الفريد جـ ٥/٢٧١، والسيرة جـ ٣/٤١٩، ٢٠٤ والأثيل: مكان قرب المدينة قتل فيه النضر.

موضوعات الشعر

تناول الشعر قضايا منها السياسي، ومنها الديني ومنها الاجتماعي، ومنها القومي (يراد به العصبية القبلية، ويدخل في السياسي أيضاً)، ومنها الحربي الحماسي (ويدخل في السياسي أيضاً)، فقد غلبت السياسة على الشعر الجاهلي، والإسلامي، لارتباط الشعر بالصراع القبلي والصراع على السلطة والصراع المذهبي.

وقد كان للصراع القبلي أثر كبير في ازدهار الشعر وتطوره، وأهمية دوره عند العرب، وأثره في حياته، فقد كانت القبائل تفخر بشعرائها، وتلحق من ليس منها من الشعراء بها، وكان سادتها يقولون الشعر ويعدون من السؤدد (السيادة). وكانت تنقسم اتجاهات وأهواء ونزعات، فبعضهم تبنى نغمة قبلية، أو تعصب لحمية الجاهلية، وهؤلاء هم القوميون الذين تعصبوا لأقوامهم، وجمهور شعراء العرب كانوا يتعصبون لأقوامهم، وقد نهى الإسلام عن حمية الجاهلية ودمها.

وبعضهم شارك في الحياة السياسية؛ فلزم بلاط أحد الملوك وأصبح واحداً من رجاله، يدعوا إليه وينافح عنه ويجمع له الناس، ومن هؤلاء النابغة الذبياني الذي عاش في بلاط المناذرة، وأصبح مقرباً من أبي قابوس النعمان بن المنذر. وبعضهم شغلته الحياة العامة وقضايا المجتمع، فساهم فيها بشعره ورأيه، وتبنى قضايا الإصلاح الاجتماعي. وبعضهم اتجه اتجاهًا دينيًا فانصرف عن الحياة إلى التأمل والبحث عن الإله والخلوص إليه، وشغلته قضية الإيمان وصلاح الناس وتوعيتهم فخاف الآثام والظلم، ونبذ ما عليه الناس من وثنية وجاهلية. وبعضهم غلب عليه النزعة الحربية والفروسية، وله فيها تاريخ كبير، وقد كان العرب يعدون الفروسية شرفاً. وقد أثرت هذه النزعات في الأغراض الشعرية، فكل غرض يدخل في نزعة منها، وقد تتنازع النزعات معظماً.

والشعر العربي قديماً وحديثاً يدين للسياسة بفضل عظيم، فهي التي رعت هذبتة، وطورته، وجعلت له ميداناً رحباً ومكاناً عظيماً بين العرب، ووسعت دوره في الحياة وأثره فيها، وارتقت به فحلته من البداوة إلى الحضارة ومن ضيق إلى سعة فتخطى القبيلة إلى الدولة ومن فقر إلى غنى، فقد كان الشعر سلعة قوم ربحوا منها وعاشوا في رخائها.

ويعد الشعر الذي قيل في الحروب والصراع القبلي والصراع على السيادة، ومدائح السادة والملوك والأشراف شعراً سياسياً، والشعر الذي تهاجي به شعراء الإسلام وشعراء المشركين، وكل ما قيل في الصراع بين الإسلام والمشركين شعر سياسي وسببه النزاع في

الدين وكذلك شعر الفرق والمذاهب والأحزاب والطوائف.

وقد غلب على شعر عصر النبوة الطابع الديني والسياسي، والدعوة الإسلامية أهم حدث في هذه الفترة والصراع بين سلطان الإسلام وبين قبائل العرب الذين تعصبوا لجاهليتهم وتقاليدها وأنظمتها البالية، وخشية سادة الجاهلية على سيادتهم ومصالحهم ووقوفهم ضد قيام دولة إسلامية واحدة^(١).

وقد ظهر الشعر الديني في العصر الجاهلي وكان يتناول قضايا العقيدة والإيمان، وتقديس الإله المعبود، ورجال الدين، والدعوة، والقائمين على المقدسات، واحترام الدين ومبادئه، والدفاع عنه، والمعارك الدينية. وللشعر علاقة وطيدة بالدين، فقد نشأ الشعر وترعرع في كنف المعابد، وسماهم رجال الدين، فقد أنشدوا شعرا يتوسلون به إلى آلهتهم ويتقربون إليها به زلفى، فمدحوا الآلهة وهاموا في تقديسها، ودورها في حياتهم.

وكان الشعر وسيلة الشاعر في إخراج ما يختلج في نفسه وتعباً به ويمثل مرحلة المخاض التي تريحه من أثقاله النفسية، ولم يك له وسيلة غير القول فوسائل اللهو والنسيان محدودة وليس له سبيل إلا أن يفض ما احتبس داخله عن آخره، فيزجي فراغه وخلوته بالشعر وحياته، وقد كان إلهه أسمى ما ينظر إليه ويأمل، فيتوسل إليه بشعره ويشكوا إليه همه.

وقيل إن الشعر كان تطوراً لما يقوله الكهان وسدنة المعابد من كلام مصنوع مقطع موزون وله أثر الموسيقى في النفس ليضطرب السامع ويؤثر فيه، فقد كانوا يسجعون الكلام ويقسمونه ويجعلون له إيقاعاً وتنغيماً.

ورأى بعض العلماء وجود صلة بين الحماسة والمدح والفخر وبين الإله، فالشاعر ينشد أناشيد دينية ويمدح إلهه ليكون معه في الحرب، فكان يتوجه إليه قبل ذهابه إلى الحرب وقبل سفره. وقيل إن الرثاء في الأصل كان تعويذة للميت فيذكر محاسنه ومجده في قبره، ونشأ الغزل من تمجيد الآلهة والغناء لها، فتطور عن ذلك الشعر، وهي اجتهاد والمؤكد يقيناً أن هناك صلة بين الشعر والكهانة والسحر، وما جاء في القرآن الكريم يؤكد هذا، فقد زعم المشركون أن ما يؤتاه النبي ﷺ من القرآن مما أوحى به الجن إليه أو من أثر السحر أو أن ما يأتي الشعراء من الإلهام يأتيه، وقد عرضوا القرآن على كلام الشعراء، فلم يك

(١) ارجع إلى : الحكم القبلي في العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو المصرية

ط ٢٠٠٢/١م وقد فصل المؤلف هذا الموضوع فيه تفصيلاً.

شعراً، وقد دفع الله تعالى ذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاوْنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)﴾ [الحاقة].

وزعموا أنه من وحي الشيطان، فنزله الله تعالى عما تنزل به الشياطين على أوليائها من الإنس من المنجمين والسحرة فقال تعالى: ﴿هَلْ أَنبَأَكُم عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمَّ وَأَكْثُرُهُم كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُهُمْ (٢١١)﴾ [الشعراء]، ورموه بالسحر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبا: ٤٣].

فأهل الجاهلية يربطون الشعر بالسحر، والكهانة، والشعوذة، والدجل، والجن، والشياطين، وكانت فكرة تنزل الشياطين من ابتكار الشعراء. فقد زعم أبو النجم (الشاعر) أن له شيطاناً يأتيه وأن لكل شاعر شيطاناً مثله إما أنثى أو ذكراً، قال^(١):

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
وزعموا أن للأعشى شيطاناً ينفث في روعه الشعر وسنماته مسخلاً، وزعموا كذلك أن عمراً بن قطن الذي كان يهاجيه له تابعة من الجن تسمى جهنم^(٢). وكان الشاعر يتخرص الحديث عنهم، ويدعي الشعر عنهم ليروع به الناس، وينفرد عنهم به، فيخوفونهم بشعره وأثره فيهم، وكان يسلك سلوكاً غريباً في الناس ليوهم بذلك؛ فكان يرتدي حلة خاصة غريبة، ويحلق بعض رأسه، أو يترك من شعر رأسه ذوابتين، ويدهن أحد شقي رأسه وينتعل نعلًا واحدًا، ويسلك بعض مسالك الكهان وسدنة المعبد، فيخوف الناس ويدعي أن هجاءه سيقع بمن يهجوّه، فيتطير منه الناس ويتشاءمون ويصرفونه عن هجائهم بالعطايا والهبات ويتألفونه بعتاء ثابت أحياناً ويتقون غضبته. وقد كان للفروسية دور كبير في حياة العرب، يحمون زمارهم ويصدون أعداءهم، وبها

(1) الحيوان للجاحظ جـ ٢٢٩/٦ أبو النجم العجلي، الفضل بن قدامة وهو مقدم على العجاج، معجم

الشعراء ص ١٨٠

(2) الحيوان جـ ٢٢٦/٦، والمؤتلف والمختلف ص ٢٠٣، والشعر في العصر الجاهلي للدكتور شوقي

ضيف ص ١٩٧

معاشهم، فقد كان العرب يعيشون أحياناً على الغارة إن أجدبت البيئة فينهبون ما غيرهم، فإن علموا أن فيها شيئاً لشاعر مجيد ردوا عليه ماله لئلا يتعرضوا لهجائه، وقد كانوا يخشون لسان الشاعر، فقد يصير هجاؤه سبة لهم في العرب يعيرونهم به، فقد كان الشاعر يرفع بشعره قوماً ويخفض به آخرين، وقد فخر الأقرع بن حابس فقال للنبي ﷺ: إن ذمّي شين ومدحي زين، فقال ﷺ: "ويلك إنما هو الله عز وجل". يريد أن ما يقوله من ذم يقع بمن ذمه، وأن مدحه يقع بمن مدحهم.

وروى أن الحارث بن ورقاء الأسدي أغار على عشيرة زهير بن أبي سلمى، واستاق فيما استاق إبلاً له وغلماً، فقال زهير شعراً يتوعده فيه بالهجاء المقذع الذي يدنس عرضه كما يدنس الدسم الثوب الأبيض، فقال^(١):

ليأتينك مني منطق قذع باقي كما دنس القبطية الودك

ففزع الحارث من قوله ورد عليه ما سلبه منه. وكان الشاعر يدعي بعض الخرافات والتعاويذ يخوف بها الناس. روى أن زرعة بن ثوب الغطفاني خدع غلاماً من عشيرة الشاعر مزرد بن ضرار كان يرعى إبلاً لأبويه فاشتراها منه بغنم واستاقها، فغضب أبو الغلام وشكا ذلك لمزرد، فقال: أنا ضامن لك أن ترد عليك بأعيانها، فأنشأ قصيدة يتوعد فيها زرعة بن ثوب الذي خدع الغلام، فقال له: إن الإبل سوف تجلب عليهم وعلى إبلهم شراً كالمرض والجرب لا تشفى منه إلا بمشقة وأن ذلك سيحل بهم. قال:

فيا آل ثوب إنما زود خالد كنار اللظى لا خير في زود خالد

بهن دروء من نحاز وغدة لها ذربات كالثدي النواهد

جربن فما يهتأن إلا بغلفة عطين وأبوال النساء القواعد

فأسرع زرعة برد الإبل، لأصحابها^(٢).

وكان الإيمان في الجاهلية تشغل رجالاً في الجاهلية، ومنهم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. وقد فكروا في وثنية قريش،

(١) الأغاني جـ ١٠/٣٠٧، ٣٠٨. القذع: القبيح، القبطية: كل ثوب أبيض، ودك: دسم.

(٢) المفضليات ص ٧٩، والعصر الجاهلي ص ١٩٨. خالد اسم الغلام الذي خدعه زرعة، الذود: الجماعة القليلة من الإبل، دروء: جمع درء وهو النتوء، النحاز: داء يصيب الإبل بالسعال، الغدة: طاعون الإبل، الذربات: جمع ذربة، وهي رأس الخراج، النواهد: النواهيض، يهتأن: يطلبن، الغلفة: شجر يدبغ به الجرب، عطين: يدبغ به بعد العطن، القواعد: العجائز.

وما زادوه في دين إبراهيم عليه السلام، فأنكروا ذلك وبحثوا عن الدين الحق، فالتمسوه في الحنيفية الصحيحة دين إبراهيم عليه السلام في البلاد، فاتصل ورقة بن نوفل بالنصرانية وبحث عن الإيمان بها، فعلم علم أهل الكتاب، وهو الذي صدق نبوة النبي محمد ﷺ وعلم أنه النبي الذي بشر به موسى وعيسى عليهما السلام. وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه حتى أدرك الإسلام فأسلم، ثم هاجر إلى الحبشة مع المسلمين ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فتنصر في الحبشة وفارق الإسلام، ومات هناك نصرانياً، وتمسكت زوجته بدينها وعادت وتزوجها النبي ﷺ. وعثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم، فتنصر وحسنت منزلته عنده. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف لم يدخل يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، وقال: أعبد رب إبراهيم وترك ما زاده قومه فيه. وروي أن النبي ﷺ قال فيه: "يبعث أمة واحدة"، وأجاز لابنه وعمر بن الخطاب ابن عمه أن يستغفروا له. ومما قاله زيد في توحيد الله ونبذ الوثنية^(١):

أدين إذا تَقَسَّمت الأمورُ	أربأ واحداً أم ألف رب
كذلك يفعل الجندُ الصبور	عزلت اللات والعزى جميعاً
ولا صتَمي بني عمرو أزورُ	فلا عَزَى أدين ولا ابنتيها
لنا في الدهر إذ حَلَمي يسيرُ	ولا غنماً أدين وكان رباً

وقال أيضاً^(٢):

وقولاً رصيناً لايني الدهرَ باقياً	إلى الله أهدي مذحتي وثنائيا
إله ولا رب يكون مذانيأ	إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه
فإنك لا تخفى من الله خافياً	ألا أيها الإنسان إياك والردى
فإن سبيل الرشد أصبح بادياً	وإياك لا تجعل مع الله غيره

وقد نظر زيد بن عمرو بن نفيل في اليهودية والنصرانية فلم يرض منهما شيئاً ومات على عقيدة التوحيد، ورثاه ورقة بن نوفل، وكان على مذهبه فقال^(٣):

تجنبت تنوراً من النار حامياً	رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما
------------------------------	----------------------------

(1) السيرة جـ ١/ ٢٤٤

(2) السيرة جـ ١/ ٢٤٥ وتنسب أيضاً لأمية ابن أبي الصلت، وقولاً رصيناً: محكماً، لايني: لا يفتر ولا يضعف.

(3) السيرة جـ ١/ ٢٥٠، الطواغي: جمع طاغية، وهو ما عبد من دون الله.

بدينك رباً ليس ربُّ كمثله
وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكك الدين الذي قد طلبته
ولم تك عن توحيد ربك ساهيا

وكان أبو قيس بن الأسلت وشاعر الأوس، وكان متحيراً من أمر الدين، وقد بايع الأوس النبي ﷺ، ومرت بدر وأحد والخندق وما زال متحيراً، فقال معبراً عن شكه^(١):

أربُّ الناسِ أشياءَ أَلَمْتُ يَلْفُ الصَّعْبُ منها بالذَّلُولِ
أربُّ الناسِ أمّا إن ضَلَلْنَا فَيَسِّرْنَا لمَعْرُوفِ السَّبِيلِ
فلوْلا رَبَّنَا كُنّا يَهُوداً وما دينُ اليهودِ بِذي شُكُولِ
ولوْلا رَبَّنَا كُنّا نَصَارَى مَعَ الرُّهْبَانِ فِي جَبَلِ الْجَلِيلِ
ولكنّا خُلِقْنَا إذْ خُلِقْنَا حَتِيفاً دينُنَا عن كلِّ حِيلِ
نسوقُ الهَدْيَ تَرْسُفُ مَذْعَنَاتُ مُكَشَّفَةً المَنَاقِبِ فِي الجُلُولِ

يدعو الله تعالى أن يهديه إلى الدين الحق من بين تلك الأديان: اليهودية والنصرانية والإسلام، فنظر في دين اليهودية فلم يجد له نظيراً في الحقائق ولا مثيل يعضده أو يقويه، ونظر في النصرانية فلم يرتضه ولم يقبل الرهبة، وامتدح الحنيفية دين آبائه، وبيت الله الحرام.

وكان أمية بن أبي الصلت يتحدث بكلام النبوة، فكان قد قرأ كتب أهل الكتاب، ويحدث بما علمه منها فيذكر في شعره أشياء لا تعرفها العرب، وكان يدعي أموراً ويؤلف أسماء يعمي بها على الناس ويعظم بها ما يدعيه من تدين وكان يلبس المسوح ويتعبد ويذكر الأنبياء، وحرم الخمر وشك في الأوثان، وطمع في النبوة لما علمه من أهل الكتاب أن نبي آخر الزمان يبعث من العرب، فكان يرجو ذلك، فلما بعث النبي ﷺ، حسده وكاد له وأغرى به المشركين. وكان في صفوف المشركين يكذب الرسول ﷺ وخاصمه، وينكر دينه ويطعن في نبوته. ومن شعره في العقيدة قوله^(٢):

(١) السيرة جـ ٢/٤٦، الذلول: السهل اللين، وشكول: أراد أنه ليس ذا موافقة، وهو جمع شكل، الجيل:

الصفن، المثل من الناس، ترسف: تمشي مشي المقيد، ومذعنات: منقادات، الجلول: جمع جل، وجبل الجليل بفلسطين، والجلول جمع جل.

(٢) الأغاني جـ ٣/١٨٠

كل دين يوم القيامة عند الله - له إلا دين الحنيفية زور

وكان النبي ﷺ يسمع شعره في الدين، فيعجب لصدقه في بعضه وعدم إيمانه به، وينكر بعضاً مما ادعاه، فيبتسم ﷺ كالمصدق مما يذكره من وصف الله تعالى في شعره^(١).

وكان أصحاب النبي ﷺ بمكة يدعون إلى الله، وينكرون ما عليه قريش من وثنية، ويشهدون بما علموه من دينهم، وقد جلس عثمان بن مظعون رضي الله عنه في مجلس من قريش بعد أن رد جوار الوليد بن المغيرة، واستحى أن يكون في جوار مشرك وكان لبيد بن ربيعة بن مالك بن كلاب ينشدهم شعره، فقال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان بن مظعون: صدقت، قال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول. قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذي جلسكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه، فخضرها، والوليد بن المغيرة يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما - والله - يا بن أخي - إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة.

فقال عثمان: بل - والله - إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال الوليد: هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك، فقال عثمان: لا.

وكان عمرو بن الجموح من شيوخ يثرب، ولم يسلم وكان من سادات بني سلمة وشريفاً من أشrafهم، وله صنم يعبد، وقد أسلم بنو سلمة، فعدو على صنمه ليلاً وألقوه في حفرة بها عذر الناس، فأخذه عمرو وغسله وطهره وطيبه، ثم أعاده إلى مكانه، فعدوا عليه مرات يفعلون به مثل المرة الأولى، وهو يعيده إلى مكانه فلما ينس من إلهه الذي لا يدفع الشر عن نفسه، وضع سيفه في عنقه ليدافع به عن نفسه، فعدا عليه فتيان بنو سلمة، وأخذوا السيف، وقرنوا الصنم كلباً ميتاً ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها من عذر الناس، فوجده عمرو بن الجموح منكساً مقروناً بكلب، فبئس منه، وعلم أنه ليس

بإله، فلا يدفع الضر عن نفسه، وأسلم وحسن إسلامه، وقال في ذلك^(١):

والله لو كنت إلها لم تكن	أنت وكلب وسط بئر في قرن
أف لملقاك إلها مستدن	الآن فتشذك عن سوء الغبن
الحمد لله العلي ذي المنن	الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي أنقذني من قبل أن	أكون في ظلمة قبر مرتهن

بأحمد المهدي النبي المؤتمن

لقد تدبر أمر صنمه فلم يجد لديه قدرة على نفع نفسه ودفع الضر عنها، فقد خدع فيه لما أبصره من أمره، فشكر الله تعالى على أن من عليه بالإيمان، وأنقذه من العذاب بالنبي ﷺ.

وقد ظهر لدى المؤمنين الموقنين شعر ديني جديد في توحيد الله تعالى يثني عليه ويعظمه ويشكره ويطلب عفوه ورضاه، ويشكر على نعمة الإيمان، ومن ذلك قول حسان بن ثابت^(٢):

وأنت إله الحق ربّي وخالقي	بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا	سواك إلها، أنت أعلى وأمجّد
لك الخلق والنعماء والأمر كله	فإياك نستهدي، وإياك نعبد
لأن ثواب الله كل مؤحد	جنان من الفردوس، فيها يخلد

وهذا النوع من الشعر الديني يعبر عن يقين الإيمان بالله تعالى، وإخلاص العبادة له والإيمان بالبعث والحساب، وقد أنكر أهل الجاهلية ذلك.

وعقيدة الإسلام تلزم المسلمين الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله وكتبه و اليوم الآخر والقدر خيره وشره، وقد جمعهم حسان في شعر له، أنشد رضي الله عنه للمصطفى ﷺ:

(١) السيرة ج ٢/٦٢، القرن: الحبل، ومستدن: ذليل مستعبد، والغبن: سفه الرأي، ويقال: غبن فلان رأيه مثل: سفه فلان نفسه، جاز تعديته لما تضمن معنى غيره، وهو لازم كأنك قلت: خسر فلان نفسه. والدين واحدها دينة: العادة، ويقال دين بمعنى عادة وجمعت على دين مثل نحل، ومثل، وذلك من باب حمل الشيء على ما يفيد معناه، لأنهم حملوا معنى الدين على النحلة.

(٢) ديوان حسان ص ١٥٤ صلاة يؤديها حسان للخالق والاعتراف بالله تعالى إلها لا شريك له، وإياك يارب نستهدي وإياك نعبد ولنا في الآخرة الثواب الصالح وفي جنة الفردوس خلود نفوسنا.

شَهِدْتُ بِأَنَّهُ إِنْ مَحَمَّدًا
وَأَنْ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَيْهِمَا
وَأَنْ الَّتِي بِالْجَزْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ
وَأَنْ الَّذِي عَادَ الْيَهُودَ ابْنُ مَرْيَمَ
رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عَلٍ^(١)
لَهُ عَمَلٌ فِي دِينِهِ مَتَقَبَّلٌ^(٢)
وَمَنْ دَانَهَا فَلٌ مِنَ الْخَيْرِ مَعَزِلٌ^(٣)
رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ
مُرْسَلٌ^(٤)
وَأَنْ أَخَا الْأَحْقَافِ، إِذْ يَعْذِلُونَهُ
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَنَا أَشْهَدُ مَعَكُمْ"^(٥)
يَقُومُ بِدِينِ اللَّهِ فِيهِمْ فَيَعْدِلُ^(٥)

-
- (1) عل: ظرف مكن مبني على الضم في محل جر بمعنى فوق.
(2) يحيى عند النصاري: يوحنا المعمدان .
(3) جمع الوادي: حيث تجزعه أي تقطعه، نخلة: موضع في الحجاز بين مكة والطائف، داتها: دان بها وأراد بها العزى، صنم كان لقريش وبني كنانة، قل من الخير: خال من الخير.
(4) قوله : عادى اليهود أي عاداه اليهود هو وابن مريم السيد المسيح عليهما السلام.
(5) أخو الأحقاف: هو النبي هود، والأحقاف: ديار عاد وهي أرض في ظاهر بلاد اليمن.
(6) الديوان ص ٣٠٢

سفيان بن حرب، فأخبره أنه يريد رسول الله ﷺ ليسلم، فقال له: يا أبا بصير، إنه يحرم الزنا، فقال الأعشى، والله إن ذلك لأمر مالي فيه أرب، فقال يا أبا بصير، فإنه يحرم الخمر، فقال: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، ولكني منصرف فأترؤى منها عامي هذا، ثم آتبه فأسلم، فأنصرف فمات في عامه ذلك قبل أن يلقي النبي ﷺ ويسلم.

وقد اختلف العلماء في زمن هذه الرواية فهي تروى بمكة، وقد جاء في القصيدة أنه يريد يثرب، وقد ذكر ابن هشام أنها وقعت بمكة، واعترض بعض العلماء عليه، وقالوا إن الخمر حرمت في المدينة بعد بدر في سورة "المائدة"، وأرى أن هذا حمل على ما كان النبي ﷺ يفعله، فقد كان عفاً ولا يشرب الخمر، وقد يكون ذلك من عند المتكلم؛ ليرده عن النبي ﷺ فذكر للأعشى ما يحبه فحرمه.

وقد مدح النبي ﷺ بقصيدة بلغت أربعة وعشرين بيتاً، وقد وقع تقديم وتأخير في الأبيات في بعض الروايات وما ذكرناه برواية ابن إسحاق^(١).

وقد يكون تحريم الخمر والزنا من قول الرجل الذي لقيه ليصرف الأعشى عنه، فذكر له بعضاً مما يحبه من أمور الجاهلية، وجاء في رواية غير رواية ابن هشام أن الأعشى لقي عامر بن الطفيل في بلاد قيس، وهو مقبل إلى رسول الله ﷺ فذكر له عامر أنه يحرم الخمر فرجع، وهذا أولى بالصواب؛ لأنه ذكر صراحة أنه يريد يثرب وتحريم الخمر كان بعد بدر في سورة "المائدة" وهي من آخر ما نزل^(٢).

وقد شك بعض المحدثين في صح نسبة هذه القصيدة إليه لما تضمنته من معان إسلامية، وشكوا كذلك في قصائد أخرى تحدث فيها عن النصرانية، وأقاموا شكهم على أن نفسية الأعشى خلاف ما جاء في هذه القصائد من الإيمان والصلاح، وقد جاء في هذه القصيدة بعض آداب الإسلام وجاء في بعض قصائده الأخرى بعض مبادئ المسيحية، وهذا يخالف نهجه الخلقي في الحياة، وأرى أن هذا ليس كافياً للطعن في هذه القصائد؛ لأن المسيحية كانت بالعراق والشام واليمن والحبشة، وقد كان ينزل بهذه البلاد ويتصل بمن فيها من النصارى، وما جاء في قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ كان لا يخفى على أحد ممن سمع بدعوة النبي ﷺ، فقد أصبح حديث العرب، وهو ما جعله يقبل عليه، ونحن بحاجة

(١) السيرة جـ ١/ ٤١١، ٤١٢.

(٢) ارجع إلى: الروض الأنف جـ ٢/ ١٢٦.

إلى أدلة أخرى للطعن فيها^(١). وقد قال قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ قبل أن يلقاه وقد سمع به، وعلم من دينه ما علم وقد بدأها بمقدمة شكا فيها عينه من الرمد، وقد بات ليله يتألم مثل الملدوغ الذي منع النوم، ليس ذلك من عشق النساء، ولا من نسيان الحبيب، فقد ترك ذلك، ولكن الذي فعل به ذلك صنّع الدهر به، وما فقد من شبابه وماله ورفاقه فله هذا الدهر (يشكوه إلى الله تعالى)، يقول:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدًا وبِتَ كما باتَ السليمُ مُسَهَّدًا^(٢)
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيتُ قبلَ اليومِ خُلَّةً مَهْدَدًا^(٣)
ولكن أرى الدهر الذي هو خائنٌ إذا أَصْلَحَتْ كَفَايَ عَادَ فَاَفْسَدًا^(٤)
كهُولًا وشبائنًا فقدت وثرؤة فله هذا الدهر كيف تَرَدَّدًا

ثم ذكر بعضًا من شبابه، وحبّه المال الذي طلبه منذ أن كان صبيًا ثم شابًا ثم كهلاً ثم شيخاً، وكان لا يكف عن السفر والتنقل في الجزيرة بين "النَجِير" (موضع في حضرموت) وصرخَد (موضع الجزيرة) وكان يجوب هذه البلاد الواسعة بابل بيض سريعة، يباري بعضها بعضاً في السرعة.

قال^(٥):

وما زلت أبغي المالَ منذُ أنا يافعٌ وليدًا وكَهْلًا حينَ شَبِتَ وأمردًا
وأبتذلُ العيسَ المراقيلَ تغتلي مَسَافَةً ما بينَ النُّجَيْرِ فَصَرخَدًا

(1) ارجع إلى الشعر الجاهلي ص ٣٤٢ وقد شك الدكتور شوقي ضيف في هذه القصيدة وغيرها من قصائده التي تناول فيها شيئاً من النصرانية، ولكني أرى أن خلق العبث، والمجون لا تمنعان الشاعر أن يقول شعراً يذكر فيه الدين، وقد فعل ذلك غير شاعر في الإسلام.

(2) الأرمد: الذي يشتكي عينيه من الرمد، السليم: الملدوغ، وقيل له سليم تيمناً بشفائه مثل قولك للمريض: صحيح أو بخير أو بعافية. وقولك تخبر بوفاة شخص: تعيش أنت! ويروى: وعادك ما عاد السليم المُسَهَّدَا

(3) الخُلَّة: الصداقة، ويرى فيه "صحبة" وهي بمعناه، ومهدد اسم امرأة كان يخالئها.

(4) يروى: كفاه.

(5) اليافع: الذي قارب زمن الاحتلام. العيس: اسم جنس، وهي الإبل البيض يخالطها حمرة. المراقيل: من الإرقال، وهو السرعة في السير. تغتلي: يزيد بعضها على بعض في السير. النجير: مكان بحضرموت من اليمن. صرخد: مكان في الجزيرة.

وانتهى من هذه المقدمة التي جعلها مدخلاً لموضوع قصيدته، ودخل في الموضوع ممهّداً له بسؤال السائل عن مقصده ووجهته في السفر، فأخبره أنه يريد يشرب، وجعل الحديث عن ناقته.

وقد ذكر محمد بن إسحاق أنه توجه إلى مكة ليلقى رسول الله ﷺ بها^(١)، وجاء في القصيدة أنه أراد يشرب، فأوقع ذلك في خلاف، وأرى أنه مر بمكة أو كان بمكة وأراد المدينة، فلما علم المشركون منه قصده صرفوه عنه، وترك الحديث عن مقصده وتكلم عن ناقته، فوصف ناقته وصفاً دقيقاً، فهي ناقة سريعة تجد في السير، فلا تنبعث في المشي ولا تعقل فيه فتكسل، وإذا مشت في الهاجر (وقت القائلة) تلوت وخلطت في مشيها غير مستقيمة، وهي ترجع عن سيرها مثل حرباء الظهيرة، يريد أنه لا تهاب الهاجرة، ولا تتأثر بها وهي نشيطة قوية، وقد أقسم على نفسه ألا يشفق عليها من تعب حتى يلقي بها محمداً. وترك الناقة وتحول إلى مديح النبي ﷺ الكريم المعطاء صاحب الفضل فهو نبي يدعو إلى الحق والفضيلة وذكره قد ملأ البلاد فبلغ الأغوار والمرتفعات، ويعطي بسخاء ولا يمنع عطاءه أبداً.

وذكر وصايا النبي ﷺ، وهي: التزود بالتقوى والعمل الصالح والعمل للآخرة، فإنك إن عرفته يقيناً ندمت على ألا تكون مثله، فتعمل لآخرتك، وتعلم أن الموت يرصدك ومصيبك.

ألا أيُّ هذا السائلِ أين يَمَّتْ	فإن لها في أهل يثرب مَوْعِداً ^(٢)
فإن تسألني عني فيأرب سائل	حفي عن الأعشى به حيث أصعداً ^(٣)
أجدت برجلتيها النجاء وراجعت	يذاها خفافاً ليئناً غير أحرذاً ^(٤)
وفيها إذا ما هجرت عجرفية	إذا خلّت حرباء الظهيرة أصيداً ^(٥)
وآليت لا آوي لها من كلاله	ولا من حفي حتى تلاقى محمداً ^(٦)

(١) السيرة النبوية جـ ٣/١٣ والروض الأنف جـ ٢/١٣٧

(٢) يمت: قصدت، يثرب: المدينة المنورة، وكانت تسمى يثرب قبل الهجرة، وقد جاء في رواية ابن إسحاق أنه قدم مكة ليلقى النبي ﷺ فيها، وأرى أنه قد يكون قد مر برجال من مشركي مكة، فأتته عن الذهاب إلى النبي ﷺ بالمدينة، وجاء عن غيره أنه لقي عامر بن الطفيل قبيل وفاة النبي ﷺ، فقال له ذلك.

(٣) خفي: مبالغ في السؤال. أصعد: ذهب.

(٤) الخفاف: تلوي يديها في السير من النشاط أو تميل. أجرد: مرض يصيب اليد.

(٥) هجرت: مشت في الهاجرة، وهي وقت القائلة. العجرفية: تخلط في غير استقامة.

(٦) لا آوي: لا أشفق عليها ولا أرحمها وروي: لا أرثي وهي بمعناها. الكلاله: التعب.

تُرَاحِي وتُلْقِي من فواضله نَدَى^(١)
أغار لعمرى في البلاد وأنجدًا^(٢)
وليس عطاء اليوم مانعة غدا^(٣)
نبيّ الإله حيث أوصى وأشهدا
ولا قيت بعد الموت من قد تزودا
فترصد للموت الذي كان أرصدًا^(٤)

متى ما تُتَاخِي عند باب ابن هاشم
نبي يرى ما لا ترون وذكره
له صدقات ما تغبُّ ونائل
أجذك لم تسمع وصاة محمد
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ندمت على أن لا تكون كمثلته

وقد علم الأعشى بعض ما حرمه الإسلام على الناس، فقد حرم أكل الميتة، وقد كان أكل الجاهلية يخدشونها بسهم، ويدعون أنها أحلت للطعام ويأكلونها، وحرم الذبح للنصب أو الذبح للأصنام وحرم ما ذبح لغير الله، فقد كان أهل الجاهلية يذبحون لأصنامهم ويطلبون رعوس الأصنام بدم الذبيحة، ونهى عن عبادة الأوثان من دون الله وحرم الزنا وأمر بصلة الأرحام وفك الأسير، وأمر بالعبادة لله ووحده وأمر بعدم السخرية من الفقير، وعدم عبادة المال. فاحذر أكل الميتات وما خدش منها بسهم، ولا ما ذبح للأصنام ولا تعبد الأصنام بل اعبد الله تعالى، ولا تزني بحرة إلا أن تتزوجها أو تمتنع عن ذلك، وصل رحمك، وفك الأسير، وسبح الله تعالى في العشي والضحي، ولا تحمد الشيطان بل أحمد الله تعالى، ولا تسخر من ذي فاقة أضرت به، لا تحسبن أن المال يخلد صاحبه. وهذه المحرمات التي ذكرها بعض ما حرمه الله تعالى على المسلمين في بدء الدعوة، ولم يأت فيها ذكر التكاليف والصوم، والزكاة والجهاد وما ذكره مجمل ما ورد في السور المكية:

فإياك والميتات لا تقربنَّها ولا تأخذ سهمًا حديدًا لتفصدًا^(٥)
ولا النصب المنصوب لا تنسكنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدًا^(٦)

(1) فواضل: جمع فاضلة. ندى: جود، ويروى تراحي: تريحى من الراحة، يروى في موضع ندى: يدا، وهي النعمة.

(2) أغار: بلغ الغور، وهو انخفاض من الغور. أنجد: بلغ النجد وهو ما ارتفع من الأرض.

(3) تغب: من أغب. النائل: العطاء

(4) ترصد: تعد

(5) تفصد: كان أهل الجاهلية يفصدون الميتة بسهم ثم يأكلها أي: يخدشها به.

(6) النصب: حجارة كانوا يذبحون لها مفردا نصب، النسك: الدم الذي كانوا يقدمونه لأصنامهم ويطلبون رعوسها به، يرد ما ذبح للأصنام، الوثن: الصنم، ويروى ولا تعبد الشيطان.

ولا تقربن حُرَّةً كان سرُّها
 عليك حراماً فانكحرن أو تأبداً^(١)
 وإذا الرحم القرْبى فلا تقطعنه
 لعاقبة ولا الأسير المقيد^(٢)
 وسبِّح على حين العشيات والضحى
 ولا تسخرن من بئس ذي ضرارة^(٣)
 ولا تحسبن المال للمرء مُخلداً^(٤)
 لقد ترتبت الأبيات ترتيباً تقليدياً صار فيه الشاعر على منهج غيره من الشعراء
 السابقين والمعاصرين.

فبدأ القصيدة بمقدمة ذكر فيها الحبيب، ولكنه لم يستطرد في أمره كثيراً، ولكنه دخل في
 الموضوع، فعبّر عن مرحلة القلق النفسي التي كان يعيشها، وقد ملّ الحياة وضاق بما
 عاناه وندم على فعله وتحسر على عمره الضائع، وكان هذا القلق دافعاً له في البحث عن
 الحقيقة ليقطع قلقه وحيرته، وقد استعان على رحلته الشاقة ليؤمن بناقة اقتضب في وصفها
 فلم يسترسل في الحديث عنها ؛ مثل غيره من الشعراء الذين أفردوا قصائد لها ، وبعضهم
 يجعل لها النصيب الأكبر من القصيدة.

وقصيدة الأعشى أربعة وعشرون بيتاً في ديوانه، ونقصت بيتاً في رواية ابن إسحاق،
 فوصف ناقته في بيتين فقط، وهي تسير سيراً معتدلاً حثيثاً، ثم وصف سيرها في وقت
 القائلة، وهي تتصدى الظروف القاسية فلا تثنيها عن السير.

وقد كانت الناقة وسيلة الانتقال ، ولها أهميتها في الصحراء ، وأثرها في الحياة ،
 فقد كانت ثروة أهل البادية تقاس بما لديهم من النوق، لأهميتها في الحياة البدوية.

وانطلق بعد وصف الناقة الموجز في الموضوع الرئيس، وهو مدح النبي ﷺ فوصف
 خلقه، ثم دعوته وشهرته في العرب، وكرمه وبعض وصاياه ﷺ، واستغرقت هذه
 الموضوعات ستة أبيات. ثم أنهى القصيدة بالحديث عن نواهي الإسلام وما حرمه على
 الناس، وبلغ ذلك ستة أبيات أيضاً، وهو عدد أبيات المقدمة أيضاً، والمقدمة تمثل مرحلة
 انفجار الشاعر وما يجيش به صدره من الشعر وعبر عن ذلك في مقدمة تمثل مرحلة

(1) لا تقربن حرة: لا تزن بها، ويروى لا تقربن جارة. سر: نكاح، يريد جماعها. التأبد: التعزب وترك
 النساء، ولهذا قيل للوحوش أوابد، وقيل معناه: ترهب، ويقال للراهب متأبداً.

(2) روى صدر البيت: ولا السائل المحروم لا تتركه.

(3) العشي قبل المغرب، والضحى: بعد طلوع الشمس حتى الظهر.

(4) البئس: الفقير. ذو ضرارة: مضطر ، والضرارة بمعنى واحد، وروي ذي ضراعة،
 الضراعة: الذل.

الحيرة والغضب والثورة والمعاناة، وتكاد تكون المعاناة في المقدمات قاسماً مشتركاً بين الشعراء كلهم يعانون ويتألمون وتتملكهم الحيرة ولا يهدعون إلا عند آخر بيت، فقد تخلص الشاعر من كثير من أحماله التي أثقلته فأمضى إلى النهاية مستريحاً آمناً.

ولكن خفافيش الليل عباد الظلام أضلوه، فقد نفسوا عليه (حسدوه) أن أبصر النور في الدنيا، فسوف رؤية النور، فباغته الموت ليقضي آخرته في حالك الظلم!

وقد أثارت هذه القصيدة جدلاً بين المحدثين، فبعضهم يشك فيها ومن أبرزهم الدكتور شوقي ضيف، ويقيم شكه على ما جاء فيها من معاني بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧] جاء في قوله: "إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى"، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] جاء في قوله: "فإياك والميتات.." وقوله: "ذا النصب.."، وقوله تعالى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١] جاء في قوله: "وصل على حين العشيات والضُحى"، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤] صاغها في قوله: "ولا السائل المحروم لا تتركه.."، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١] قال فيها: "ولا تسخرن من بائس..."، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَنَّحْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] صاغها في قوله: "ولا تقربن جارة.." وهذا النوع من المعاني في الشعر يعرف بالافتباس، والتضمين.

ويرى الدكتور زكي مبارك أن قصيدة الأعشى ليست في درجة قصائد المديح النبوية؛ لأنه - على ما يرى - لم يقل هذا الشعر، وهو صادق النية في مدح الرسول ﷺ، وإنما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبي الإسلام، وآية ذلك أنه انصرف حين صرفته قريش، ولو كان صادقاً ما تحول، فقد حدثوا (يريد رواية خبر الأعشى) أن قريشاً رصدوه على طريقه حين بلغهم خبره وسألوه أين يريد؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ليسلم، فأفهموه أنه ينهاه عن الزنا والقمار والربا والخمر، فقال: لقد تركني الزنا وما تركته، وأبدى زهادته في القمار رجاء أن يصيب من النبي ﷺ عوضاً منه، وقال عن الربا: ما دنت ولا أدنت. وأبدى جزعه عند ذكر الخمر وقال: أوه! أرجع إلى صباغة قد بقيت لي في المهراس فأشربها.

فقال له أبو سفيان: هل لك في خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن الآن في هدنة فتأخذ مائة من الإبل، وترجع إلى بلدك سنتك هذه وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً، وإن ظهر علينا أتيت، فقال: ما أكره ذلك. فلما كان بقاع "منفوخة" (قرية باليمامة) رمى به بعيره.

وأرى أن ما وقع للأعشى وقع لغيره من بعض المشركين، فقد هم الوليد بن المغيرة أن يسلم بعد أن سمع من النبي ﷺ ولكن بطائنته من المشركين صدوه، ومات مشركاً. وقد بذل مشركو قريش عطاء كثيراً ليصدوا الأعشى عن الإسلام ومازالوا به حتى رجع عن قصده، والرجل لم يسلم ولم يعرف مفهوم الإسلام ولم يتذوق الإيمان فنقول إنه غير صادق في مدحه، ولكنه مثل غيره سمع عن نبي ظهر من قريش يدعو لدين جديد ويحرم عليهم بعض أمور الجاهلية وما جاء في قصيدته عن الدين ليس إلا معارف عامة يعلمها عامة من سمع بالإسلام، وما شاب عليه في الجاهلية أقوى في نفسه - وهو شيخ - مما سيعرفه في الإسلام ويقوم عليه ويرعى حرمة. والروايات المتعددة تفيد أن الأعشى قصد المدينة بعد صلح الحديبية، فقد أوقع صلح الحديبية هدنة بين محمد ﷺ وبين مشركي مكة. وما جاء في القصيدة من ذكر تحريم الخمر كان في هذه الفترة فقد حرمت الخمر في سورة المائدة، وهي مدنية (وهي من آخر ما نزل من القرآن الكريم). وقد جاء ذكر "يثرب" في القصيدة، وكانت تعرف بهذا الاسم بين مشركي العرب، وهو ما ينفي عنها الوضع في الإسلام فسي فترة لاحقة، فقد ذهب اسم يثرب، وعرفت بين المسلمين بمدينة الرسول ﷺ.

واختلاف المعاصرين في شأنها، وعدم ورود نص قديم يشكك فيها، يجعلني أرى رأي من شك فيها حتى يتبين دليل الشك يقيناً، ولكن الشك قام على الظن وهو لا يغني شيئاً، والمصادر القديمة اختلفت فقط في الرواية. وقد قيل إنها لم تكن عن عاطفة دينية قوية وإنما قيلت مثل غيرها من قصائد المديح الجاهلية رغبة في التكسب، ولك أن تشك في صدقه، وأن تشك في هويته الدينية، فالرجل قالها وهو مشرك لم يلق الرسول ﷺ بعد وقد مدحه بما سمعه عنه وعن دينه رغبة في رضاه والتقرب منه بيد أنه لو رآه وآمن لكان شأنه غير ذلك، وهذا الأمر مسلم به، وليس من الإتياف أن نقضي في عواطف الناس ونواياهم، وهذا أمر لا يتكشف لنا. ولم يتورع بعض المحدثين عن أن يقولوا في شعر حسان مثل ما قالوه في الأعشى، فقد زعموا أن حسان قد مدح النبي ﷺ بما مدح به الجاهليين، لأن شكل القصيدة هو الشكل الذي قامت عليه في الجاهلية ومدح النبي ﷺ بما مدح به ملوك الجاهلية، وهذا افتراء واجترأ وتخرف على شاعر رائد في الإسلام،

وتزعم الشعراء في الدفاع عن الإسلام، فلم يكن سهلاً أن يهدم حسان شكل القصيدة الجاهلية، وهذا الشكل يمثل أصول هذا الفن، ولا شك أن حسان تأثر بالقرآن الكريم وتمثل بمعانيه، وكان أكثر وعياً من غيره بما يريده النبي ﷺ، فقد خلص شعره من أمور الجاهلية وهذبه وجعله في جوهر موضوع القصيدة، وكان يحترس لنفسه من سقطات القول وهزله، وأعجب الرسول ﷺ منه ذلك ويحثه عليه، ودعا له وأخبره أن جبريل عليه السلام يؤيده عليهم، وقد أحدث حسان ﷺ تغييراً في معاني الشعر، فقد تأثر بأسلوب القرآن الكريم ومعانيه وألفاظه، فتجاوز الوصف الحسي إلى الوصف المعنوي، فمدح محاسن الأخلاق والفضائل والآداب النبوية.

وكان يبدأ قصيدته أحياناً بمقدمة غزلية أو بكائية ثم يتركها ساخراً، ويستخف شأنها ولا يقف أمامها طويلاً فيتركها إلى موضوع القصيدة، فقد أوجز في المقدمة وتورع عما ينافي الإسلام في المقدمة الغزلية والخمرية، وسوف نذكره لك في موضعه إن شاء الله. ناهيك عما قام به حسان رضي الله عنه من تطوير في الألفاظ ودلالاتها واقتباساته من القرآن الكريم وتأثره به، فقد وظف بعض أجزاء الآيات ومعانيها في شعره، وهذا لم يقع في شعر الأعشى إلا في قصيدته التي بين يديك، فلم تكن له صحبة في الإسلام، ولم يعرف عنه إلا ما سمعه^(١).

وشكك بعض الأدباء في أشعار الأعشى التي ذكر فيها شيئاً عن النصرانية، فزعموا أنها وضعت عليه، وبعضهم نسب هذه القصائد إلى راويته يونس بن متى النصراني، فقالوا نحلها للأعشى، وكتب الأدب تذكر أن الأعشى كان نصرانياً، وذكر عنه راويته يونس بن متى أنه كان ينزل كل سنة نجران، ويسمع من أساقفتها، فكل شيء في شعره في النصرانية، أخذه منهم^(٢).

وقد ردوا عليه كثيراً من شعره الديني، فزعموا فيه الوضع والانتحال، وحجتهم أن خلق الأعشى كانت علي غير ما جاء في هذا الشعر، وليس هذا بدليل فالقرآن الكريم ذكر أنهم يقولون ما لا يفعلون، وأنهم في كل وادٍ يهيمون، وأخبار الشعراء تؤكد ذلك، فكثير منهم صحت عنه أشعار في الخلاعة والمجون والفحش، وصحت عنهم أخرى في الصلاح

(١) شكك بعض الباحثين في قصائده النصرانية، لأن راويته في الإسلام كان نصرانياً فزعموا أنه زاد ذلك في

ديوانه، وهو يونس بن متى .

(٢) الأغاني جـ ١٠/١٣٦

والتقوى والإيمان. فهم يقولون ما لا يفعلون تكسبا وإغراء وادعاء، وقد يكون عجزاً، فيرضى نفسه بخياله ويترك له العنان فيفعل في الخيال ما أعجزه عنه الواقع، وفي ذلك أخبار كثيرة تؤكد كذب الشعراء **﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾** [الشعراء: ٢٢٦].

ولقد تعرض النبي ﷺ لطعنات المشركين في الخارج والمنافقين واليهود في الداخل، وقد سلمه الله تعالى منها، ومن ذلك ما تحدث به بعض المنافقين من حديث الإفك، فقد اتهموا السيدة عائشة رضي الله عنها في صفوان بن المعطل رضي الله عنه وكان المقصود من ذلك النبي ﷺ. وقد برأها الله تعالى في سورة "النور". وكان حسان رضي الله عنه من الذين خاضوا في حديث الإفك الذي تحدث به بعض المنافقين في حق عائشة رضي الله عنها وقد تبرأ حسان من ذلك. وقد كان صفوان ﷺ صالحاً عفاً، وقتل بعد ذلك شهيداً، فقال حسان يعتذر مما قاله فيها:

حصان رزان ما تزنُ بريبةٍ	وتُصنِّح غرثي من لحوم الغوافل ^(١)
حليَّة خير الناس ديناً ومنصباً	نبيّ الهدى، والمكرّمات الفواضل ^(٢)
عقيلةٌ حيٌّ من لؤيٍّ بسن غالب	كرام المساعي، مجذها غير زائل ^(٣)
مهذبةٌ قسّـد طيب الله خيمها	وطهرها من كل سوء وباطل ^(٤)
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم	فلا رفعت سوطي إلى أنامل ^(٥)
وإن الذي قسّـد قيل ليس بلائط	بها الدهر بل قول امرئ بي ماحل ^(٦)
فكيف وودي ما حييت ونصرتي	لآل نبيّ الله زيّن المحافل ^(٧)
له رتبٌ على الناس كلهم	تقاصر عنه سورة المتناول ^(٨)

(1) حصان رزان: عفيفة ذات الثبات والوقار، تزن: تتهم، غرثي: جائعة، الغوافل: مفرداها غالفة: أي أنها لا ترتع في أعراض الناس. الديوان ٣٠٣.

(2) الحليّة: الزوجة.

(3) العقيلة الكريمة، والمساعي: جمع مسعاة وهو ما يسعى فيه من طلب المجد والكرم.

(4) الخيم: الأصل

(5) الأنامل: الأطراف من الأصابع. وقد يقصد الأصابع كلها.

(6) لائط: لارق. الماحل هنا المشاء بالنميم، يقال محل به إلى السلطان أي وشى به ورفع إليه كذباً.

(7) لآل النبي: لأتباعه وأهله وأتباعه.

(8) الرتب: ما أشرف من الأرض، استعارة للمجد الشرف. سورة: وثبة.

رَأَيْتَكَ وَلِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ، حُرَّةٌ من المحصنات غير ذات غوائل^(١)

ولما بلغ قوله: وتصبح غرثي من لحوم الغوافل. قال عائشة: لكنك يا حسان ما تصبح غرثان من لحومهن^(٢). لقد تجاوز حسان في مدحه المدح الحسى الذى يقوم على المنفعة، ولم يصف الجسد، بل مدح محاسن الأخلاق، فأتى بمعانى جديدة ومنها: العفة والزانية والهدى والرشاد والتقوى، والترفع عن الرزيلة والخوض فى أعراض الناس، والترفع عن المفساد والشرور، واستخدم المفردات القرآنية نحو: حصان، محصنات، الهدى، الطهر، السوء، الباطل، المغفرة.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول يقود جبهة النفاق والمعارضة في المدينة، ويتربص بالنبي ﷺ ويكيد له، ويدس عليه من يشكك في أمره، ويوهنه.

وهو الذي أذى رسول الله ﷺ في أهله، فاتهم السيدة عائشة في صفوان بن المعطل رضي الله عنه، وكان برًا صالحًا، وقد شكا رسول الله ﷺ أذاه إلى قومه الأنصار، وقد تحدث بقوله بعض الناس ومنهم حسان بن ثابت ؓ، ومسطح بن أثانة وحمئة بنت جحش في ناس آخرين^(٣). وقد برأها الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَبِيرٌ لَّكُم لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]. وقد عفت عنه السيدة عائشة رضي الله عن حسان، فكان يدخل عليها، وأنشدها قصيدته التي بين يديك. روى مسروق أنه قال: دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعرا يشيب بأبيات له فقال:

حَصَان رَزَانٌ مَا تَزْنُ بِرَبِيبَةٍ وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك. قال مسروق فقلت لها: لم تأذنين له يدخل عليك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقالت: فأى عذاب أشد من العَمَى! إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ، وفي رواية: "كان يذب عن رسول الله ﷺ"^(٤).

(1) الغوائل: المفسد والشرور. الديوان ص ٣٠٣.

(2) رواه مسلم في مناقب حسان ؓ.

(3) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، وفتح الباري ج ٧/٤٩٦.

(4) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب حديث الإفك. ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل حسان بن ثابت. يشيب: تغزل، حصان: محصنة عفيفة، رزان: كاملة العقل، ورجل رزين، ما تزن: ما تتهم، من =

وروى البخاري عن عروة بن الزبير: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وكانت تقول: إنه الذي قال^(١):

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاءً

وهي قصيدة طويلة قالها حسان قبيل فتح مكة.

يقول حسان بن ثابت في السيدة عائشة رضي الله عنها إنها محصنة عفيفة وكاملة العقل، وما تتهم بفاحشة وتعف نفسها عن الغيبة والنميمة ولا تغتاب أحداً، فهي جائعة فلا تشبع من أكل لحوم المؤمنات الغوافل اللاتي يظنن بأنفسهن خيراً، ولم يذكر شيئاً حسياً في وصفها، ولم يطلب عطاءً، وقد تأثر بالقرآن الكريم، فضمن شعره ألفاظه ومعانيه، ونلاحظ في بيته الذي ذكرناه في مدح عائشة رضي الله عنها ومعنى عجز البيت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقد أراد حسان أن يقول إنها عفيفة اللسان، ولا ترتع في أعراض الناس. وقد جاء في صحيح مسلم أنها قالت له: "لكنك لست كذلك"^(٢) أي لم تتورع عن أكل لحوم الناس عندما خضت في حديث الإفك، وقد تاب الله تعالى عليه. وانتقل حسان من مدح خلقها إلى مدح مكانها من رسول الله ﷺ فهي زوجته، وهو خير الناس ديناً ومكاناً، فهو النبي ﷺ.

وهي من بيت كريم في قريش، ثم ذكر حسن خلقها وعفتها. واعتذر عما قيل عنه أنه خاض في عرضها، فدعى على نفسه بشل يده إن كان قال شيئاً من حديث الإفك وأنكر أن يكون قد قال شيئاً، وليس شيء مما قيل واقعاً بها، وما قيل في ادعاء من مشاء بالنميمة. وكيف أقول كذباً في حليلة خير الناس، وودي لهم وولائي ونصرتي لآل النبي فله شرف يتناول به على الناس، ولا يصل إليه من يتطلع إليه فأنت غفر الله تعالى لك حرة عفيفة، ليس بك سوء.

= زenn: ظن، غرثى: جائعة، ورجل غرثان، يريد لا تغتاب الناس، فلا تشبع من لحومهم ولهذا فهي جائعة لامتناعها عن أكل لحوم غيرها من الغوافل.

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك وفتح الباري جـ ٧/٩٦؛

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه.

الاعتذار

الاعتذار أو الاستعطاف، الاستمache وطلب العفو، وهو فن نشأ في العصر الجاهلي في ظل المدح، وتتداخل فيه معاني الشكر، والشكوى، والندم، والحب، والولاء، والرجاء، والاستعطاف، والأمل. ويعد النابغة الذبياني صاحب أشهر قصائد الاعتذار، فقد وقع بعض قومه أسرى في أيدي الفساسنة بالشام، فأقبل عليهم بمدح ويتشفع فيهم، فكان سبباً في غضب النعمان بن المنذر عليه فهم أعداءه، والنابغة شاعره الخاص المفضل، فأسرع النابغة بالاعتذار إليه، وقال فيه أروع قصائد الاعتذار، وأشهر اعتذارات قصيدته التي قال فيها^(١):

أنبت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد
وقصيدته التي يقول فيها:

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب
والمعتذر يلح في الاعتذار ويتذلل ويرجو، ويسترحم، ويعترف بذنبه ويقر به ويأمل العفو ويثق في عفوه وسماحة خلقه، وأنه لن يرده، ولن يسلمه.
ويتميز هذا النوع بحسن الديباجة وقوة اللفظ ودقته وجمال الصور وابتكارها والتجديد فيها، ونجد للوشاة دور في الحدث، وهدف الشاعر يلقي عليهم المسئولية، ويجعلهم سبباً في الخصام والهجر فهم الذين أوقعوا به وسعوا فيه وهو ضحيتهم. وازدهر هذا الفن في الإسلام، وقيلت فيه قصائد مشهورة في الأدب العربي، وأصحاب هذه القصائد كانوا ممن ناصب الرسول ﷺ العدا، فهجوه وتطاولوا على المسلمين، والإسلام مستضعف، فنصره الله تعالى ومكن له، فأتوا إلى النبي ﷺ معتذرين طالبين العفو، وألحوا في الطلب، وأخلصوا التوبة، فقبل الرسول ﷺ منهم، فقد كان يقدم عفوه ورضاه على غضبه وعقابه. وعبروا عن صدق اعتذارهم بمدح صادق بلغوا فيه مرتقى عظيماً، فصار مثلاً فريداً في المدح، والصلة بين المديح والاعتذار قوية، فالأول دليل صدق على الثاني.

وتعد قصيدة كعب بن زهير أروع نموذج لهذا الفن في عصر النبوة وبعض الأدباء

(١) أبو قابوس لقب النعمان بن المنذر - ارجع إلى الأغاني جـ ١٥٤/٧، ومن أشهر أبياته:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
وقوله : فباتك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع وهما من اعتذارته إلى النعمان.

يجعلونها مديحاً، وآخرون يجعلونها اعتذاراً، وقد جمعت بينهما، فقد اعتذر كعب رضي الله عنه عما أحدثه وقاله، ثم مدح.

اعتذار كعب بن زهير وقصيدته "بانت سعاد"

كعب بن زهير بن أبي سلمى شاعر ابن شاعر جاهلي مشهور عرف بالحكمة، وشقيق شاعر أيضاً هو بجير بن أبي سلمى، وقد أرسل كعب بجيراً ليستعلم نبأ النبي ﷺ ويأتيه بخبره، فأسلم بجير عندما لقي النبي ﷺ، فعلم كعب بإسلام أخيه، فغضب عليه وقال شعراً أغضب النبي ﷺ، فقيل: أهدر دمه، فأرسل إليه بجير يخبره بذلك وطلب منه القدوم إلى النبي ﷺ والاعتذار إليه.

وقد أرسل إليه أخوه بعد منصرف النبي ﷺ من غزو الطائف قافلاً إلى مكة يقول له إن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوهم ويؤذيه، وبقي من شعراء مشركي قريش عبد الله بن الزبيري، وهبيرة بن أبي وهب، وقد هربا من مكة، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وحثه على الإسلام.

فكتب كعب إلى بجير يلومه على ما يدعو إليه من القدوم إلى النبي ﷺ والاعتذار والتوبة والدخول في الإسلام، وأنه لن يترك دين آبائه وأمهاته.

فأرسل إليه شعراً جاء فيه (وهو برواية محمد بن إسحق)^(١):

ألا أبلغنا عني بجيراً رسالةً	فهل لك فيما قلتَ ويحك هل لكَا ^(٢)
فبين لنا إن كنتَ لست بفاعلٍ	على أي شيءٍ غير ذلك دَلْكا
على خلقٍ لم أُلْفَ يوماً أباً له	عليه وما تُلْفِي عليه أباً لكَا
فإن أنتَ لم تفعلَ فلست بأسفٍ	ولا قائلٍ إما عثرتَ لعاً لكَا ^(٣)

(1) ارجع إلى: شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ، جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، تحقيق الدكتور محمود حسن ط/ ١٤٠١هـ، ١٩٨٥م - الوجالة العامة للتوزيع. وكعب من الشعراء المخضرمين (في الجاهلية وأدرك الإسلام) - ارجع إلى الأغاني جـ ١٥٠/ ١٤٠، وارجع إلى السيرة جـ ٤/ ١٥٠ - ١٥٣. والقصيدة من البحر البسيط وهي عند بعض العلماء سبعة وخمسون بيتاً وعند بعضهم واحد وستون بيتاً. وقد اعتمدنا على رواية السيرة، ونقلنا شرح معاني الكلمات عن الأستاذ محيي الدين عبد الحميد .

(2) ويحك: كلمة تقال إشفاقاً وترحمًا لمن يحب أن لا يقع في الهلاك خشية عليه بخلاف وبلك.

(3) بأسف: أرد لست بنادم، وقوله "لعلك" هذه كلمة تقال للعاثر، يدعي له بها، ومعناها قم واستعش، وروى: "سفاك بها المأمور وجاء: "سفاك أبو بكر" - الأغاني جـ ١٥٢/ ١٤٢، وعثرت: أخطأت في السير.

سقاك بها المأمون كأساً رويةً

ورواه ابن هشام على هذا النحو:

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي بِجِيرًا رِسَالَةً

شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأْسًا رَوِيَةً

وخالفت أسباب الهدى واتبعته

على خلقٍ لم تُلَفْ أُمًّا وَلَا أَبَا

فإن أنت لم تفعل فلست بآسف

فأنهلك المأمون منها وعلكا^(١)

فَهَلْ لَكَ فِيهَا قُلْتُ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَ

فأنهلك المأمون منها وعلكا

على أي شيء ونب غيرك دلكا

عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

ولا قائل إمّا عثرت لعا لكا

وبعث بها إلى بجير، فلما أنت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله ﷺ، فأنشده إياها، فقال رسول الله ﷺ لما سمع "سقاك بها المأمون": "صدق وإنه لكذوب"، أنا المأمون" وذلك أنهم كانوا يسمون رسول الله ﷺ المأمون والأمين، وروى: "سقيت بكأس عند آل محمد". ولما سمع "على خلقٍ لم تلف أبا ولا أبا عليه" قال: "أجل لم تلف عليه أباه ولا أمه" فأرسل بجير إلى كعب ينصحه ثانية، ويدعوه إلى الإسلام، وترك أمر الجاهلية^(٢):

مَنْ مَبْلُغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي

إِلَى اللَّهِ، لَا الْغَزَى وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ

لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمَقْلُتٍ

فَدَيْنُ زَهِيرٍ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينَهُ

تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ

فَتَجُو إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتَسْلَمُ

مَنْ النَّاسِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ

وَدَيْنُ أَبِي سَلَمَى عَلَيَّ مُحَرَّمُ

فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بدأ، قال قصيدته التي مدح فيها رسول الله ﷺ وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه، فذكر أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إن كعب ابن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك به؟ فقال رسول الله ﷺ: "نعم". قال: أنا يا رسول

(1) وأنهلك: سقاك النهل، وهو الشرب الأول، وعلك: سقاك العلل، والعلل: الشرب الثاني.

(2) شرح قصيدة كعب بن زهير ص ٣٥، وديوان كعب بن زهير ص ٤

أبيات، فالقصيدة يربطها مضمون واحد إلا المقدمة التي اتخذها الشاعر مدخلاً إلى الموضوع الرئيس، وهو الاعتذار الذي توجه في آخر القصيدة بالمديح، وقد وصل الشاعر المقدمة بالموضوع، فقد أمست سعاد بأرض بعيدة صعبة، لا يصل إليها إلا ناقة عتيقة نجيبة، فانتقل من الحديث عن سعاد إلى وصف الناقة التي تحمله إليها، وربط بين الناقة وبين موضوع القصيدة الرئيس، وهو الاعتذار الموشى بالمدح، فقد سعى الوشاة جانبي الناقة ليخبروه أن النبي ﷺ سيقتله جزاء قوله، فطلب منهم أن يتركوا الناقة لسبيلها، فما قدره الله تعالى واقع به، والموت نهاية كل حي. وتعد المقدمة مدخلاً وتمهيداً يهيئ المتلقي لموضوع القصيدة، وقد استرسل فيه كعب وبسط القول ليعطي المتلقي سعة من الوقت ليهدأ، ويتحول إليه، فقد دخل فلتة وأعلن عن نفسه، فأذهل الجالس، فبسط القول وسرد قصة حبه التي شقى بها، ويتودد بها إلى المتلقي، فقد ابتلى بهجر الحبيب، وبعد مقامه عنه، فلا يصل إليه إلا بمشقة على ناقة فتية، واسترسل في وصف الناقة فوصفها وصفاً دقيقاً للمتلقي جعله يتأمل كل شيء فيها، فصرف المتلقي عن حالة الانفعال إلى حالة تأمل وإعجاب، فسرّى عنهم بوصف الناقة. قال كعب بن زهير رضي الله عنه:

بانت سعاداً فقلبي اليوم متبول	متيم إثرها لم يقد مَكْبُول ^(١)
وما سعادُ غداة البين إذ رحلوا	إلا أغنُ غضيض الطرف مكحول ^(٢)
هيفاء مقبلية عجزاء مديرة	لا يشتكى قصر منها ولا طول ^(٣)
تجلوا عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت	كأنه منهل بالراح مَعْلُول ^(٤)
شجت بذي شيم من ماء محنية	صاف بأبطح أضحي وهو مشْمُول ^(٥)

- (1) يقول: ذهبت سعاد حبيبتي وهلك قلبي من فراقها، فهو ذليل معبد من بعدها، ومكبل بحبها.
- (2) الأغن: الصبي الصغير الذي في صوته غنة، والغنة: الصوت الذي يخرج من الخياشيم، ومعنى غضيض الطرف: فاتر الجفن، ويروى "غداة البين إذ برزت".
- (3) الهيفاء: ضامرة البطن والخصر، والعجزاء: عظيمة العجيزة وهي الردف.
- (4) تجلو: تصقل، والعوارض: الأسنان، و"ذي ظلم" هو الفهم، والظلم - بفتح فسكون - ماء الأسنان وبريقها، ومنهل: اسم مفعول من أنهله إذا سقاه نهلاً، والراح: اسم من أسماء الخمر، ومعلول: اسم مفعول، عله إذا سقاه عللاً.
- (5) شجت: مزجت، وأراد بذي شيم الماء البارد، والشيم - بفتحيتين - البرد، والمحنية: منتهى السوادي، ويقال: هو ما انعطف منه، الأبطح: الموضع السهل، ومشمول: هبت عليه ريح الشمال، وهي عندهم ريح باردة إذا هبت.

تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب غادية بيض يعاليل^(١)

يقول: فارقنتي سعاد^(٢) وبعدت، فقلبي سقيم مضني هالك بحبها، فهو متيم بحبها ومستعبد به ذليل من بعد فراقها، فقد صار أسير حبها ومقيداً، يريد أنه فقد إرادته وصار أسيرها، فكأنه قد شد في كلبة سرج وهي حلقة في مؤخرة السرج، أو وضع في رجله قيد. ووصف سعاد فقال: كانت سعاد وقت رحيلها كالصبي الصغير في صوته غنة، وكانت فاترة النظر مكتحلة، فتركت التحديق واستيفاء النظر خجلاً، وكان ذلك خلقة بها، يريد كانت تغض بصرها فلا تمنع التحديق حياء، وهذا ما يزيد الرجل ولعاً بالمرأة.

وهذا يستحسن في خلق المرأة، فالحياء شطر الجمال. وكان الكحل من زينة النساء تضعه في العين. وهي طويلة القامة وليست بالقصيرة فيعاب قصرها ولا بمفرطة في الطول فتعاب به، ولها عجيذة عظيمة، وكان ذلك مستحسن عند الرجال.

فهي طويلة القامة وهي مقبلة، عظيمة العجيذة وهي مدبرة، وليست بالطويلة ولا القصير. وهي إن ابتسمت كشفت أسناناً مصقولة براقه بيضاء ذات ماء نقي (لعاب) صاف كأنه منهل، وهو الشرب الأول (وهو أكثر صفاء ونقاء)، قد مزج بالخمير وعلله بها، وقد كانوا يخففون وطأة الخمر بالماء لثقلها وشدتها، وقد شرب أولاً ثم تعلل فشرب ثانية، والماء يشرب ثانية إن استحسن. وأصل ذلك أن الإبل إذا شربت في أول الورد سمي ذلك نهلاً، فإذا ردت إلى مشاربها سقيت الثانية، وتسمى "العَلَل" والأولى "النَهْل".

وهذه الخمر قد مزجت بماء بارد من منتهى الوادي صاف من منتهى أرض سهلة منخفضة بها رمل وحصى، هبت عليه ريح الشمال فكشفت عنه ما علا سطحه ونقته من النفايات. يريد: أنه ماء صاف نقي، تنفي الرياح ما وقع فيه الماء من تبين أو عود، وقد ملأ هذا الوادي مطر سحابة تمطر بالغدو أو بالليل، وقد تسبب هطول المطر في رغبة بيضاء علت بالماء. أو هذا الماء صاف أزالته الرياح عنه ما به من عوالق وشوائب، وقد

(1) أراد بالقذى ما يقع في الماء من تبين أو عود أو غيره، وأفرطه: ملأه، وسارية: سحابة، تسري فتطر

بالليل، يعاليل: واحداً يعلول، والغدير: يريد به السيل، والحباب الأبطح، والغادية التي تمطر الغدو.

(2) سعاد امرأة يهاها حقيقة أو ادعاء، وقد كان مطلع القصيدة الجاهلية يتوج بافتتاحية غزلية أو بكائية

يبكي فيها أمراً مضى أو يذكر فيها حب امرأة وفراقها أو يرثى قتيلاً أو ميتاً أو خمرة يذكر فيها أثر

الخمير، وظلت في الإسلام حتى ثار عليها بعض الشعراء (منهم أبو نواس)، وقد اعتمدنا على شرح

قصيدة كعب بن زهير لجمال الدين محمد بن هشام الأنصاري - وشرح الأستاذ محمد محيي الدين عبد

الحميد شعر سيرة ابن هشام حـ ١٥٣/٤.

الله كعب بن زهير. وروى عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يارسول الله، دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ:

"دعه عنك فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه" قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم في رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول^(١)

وروى أنه أقبل على النبي ﷺ، وهو في المسجد، يحدث أصحابه، وهم حلقة ثم حلقة وهو ووسطهم، فيقبل على هؤلاء يحدثهم ثم على هؤلاء ثم على هؤلاء، فأقبل كعب، فتخطى الناس حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: "يارسول الله، الأمان، قال: "ومن أنت؟ قال: كعب بن زهير، قال: أنت الذي يقول.. كيف قال يا أبا بكر، فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

سقاك أبو بكر بكأس روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

فقال رسول الله ﷺ: "مأمون والله"، ثم أنشده قصيدته التي اعتذر فيها مدح النبي ﷺ، وهي "بانت سعاد". وروي أنه لما بدأ ينشد لم يقبل النبي ﷺ، لأنه بدأ قصيدته بالحديث عن سعاد، وما أصابه من حبها، وأطال في ذكرها فلما بلغ إلى قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فما زال إنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا خور معازيل

أشار رسول الله إلى أصحابه أن يسمعوا كعب بن زهير^(٢). وقيل: إنه ﷺ قال ذلك عندما

قال:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما بهم عن حياض الموت تهليل

وقيل: إنه لما وصل إلى قوله^(٣):

(1) البين: الفراق، وبانت: ذهبت وفارقت، وسعاد: اسم امرأة، ومتبول: هالك، من التبل - بفتح فسكون - وهو الهلاك وطلب النار، وميم: مبعذ مذل، ومنه سمو تيم اللات: أي عبدها، ويروي "مميم عندها لم يجز" ومعناه: ذهبت سعاد وفارقتني، وأصبح قلبي هالك فهو متعلق بها ومقيد بحبها - السيرة جـ ١٥٢/٤، وشرح الديوان ص ٤٠٥ وشرح قصيدة كعب ص ٣٤، ٣٥

(2) الأغاني جـ ١٥/١٤٣

(3) شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ، تأليف جمال الدين محمد بن هشام. تحقيق الدكتور محمد حسن أبو ناجي - ط ١/١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ص ٣٧ وقد ذكر ذلك أبو بكر بن الأثير.

إن الرسول لسيفٌ يستضاء به مهتدٌ من سُيوفِ الله مسلولٌ

رمى عليه النبي بُرْدَة (عباءة) كانت عليه^(١). وقيل إنه غضب من الانتصار عندما عرفوه فتواثبوا يقولون للنبي ﷺ ائذن فيه. فقال: "وكيف وقد أتاني مسلماً"، وقد كف عنه المهاجرون وسروا بإسلامه، فعرض بالانتصار في موضعين منها، ومدح المهاجرين. وقد فسر الأدباء بيتين في القصيدة على أنه عرض فيهما بالانتصار أولهما أنه ذكر مواعيد رجل يسمى عرقوب قيل أصله من الأوس وقيل نسبه من نسب الانتصار قال:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل

وبيته الثاني:

يمشي مشي الجمال الزهر بعضهم إذا عرّد السـود التنابيلُ

يمدح المهاجرين، وعرض برجل من الانتصار قام إليه ليقتله فكفه النبي ﷺ عنه، وقيل إنه ترك مدح الانتصار، فطلب منه النبي ﷺ والمهاجرون أن يمدحهم، وقيل إن المهاجرين غضبوا وقالوا ما مدحنا من هجا الانتصار، وعوتب على ذلك^(٢)، فمدح الانتصار في قصيدة أخرى أرجأناها إلى آخر "بانت سعاد" وأولها:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقب من صالح الانتصار

قال ابن هشام : وذكر لي عن علي بن زيد بن جذعان أنه قال^(٣): أنشد كعب بن زهير

رسول الله ﷺ في المسجد: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

وتسمى قصيدة "بانت سعاد"، وبعض العلماء يقول: "قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ"^(٤). وهي سبعة وخمسون بيتاً في رواية ابن هشام في شرحه، وقد بلغت المقدمة منها سبعة وثلاثين بيتاً، منها ثلاثة عشر في ذكر سعاد، ومنها عشرون في وصف الناقة، وأربعة في تخويف الوشاة كعباً من القتل لما قاله، واعتذر إلى النبي ﷺ في اثنا عشر بيتاً، ومدح النبي ﷺ ومن معه من قريش وغيرهم من المهاجرين في ثمانية

(١) جاء في بعض المصادر أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عرض عليه فيها عشرة آلاف درهم، فقال: ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً، فلما مات كعب بعث معاوية رضي الله عنه إلى ورثته بعشرين ألف درهم، فأخذها منهم، وكان الخلفاء يلبسونها من بعده في ولاية الخلافة.

(٢) ارجع إلى الأغاني جـ ١٥/١٤٤، والديوان ص ٧٢٦

(٣) السيرة: جـ ١٦/٤، وشرح الديوان ص ٦، ٧

(٤) شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ لابن هشام الأنصاري - ط دمشق.

نزل هذا الماء سيولاً مرة بعد مرة من سحابة بيضاء تسري فتمطر بالليل فمألت مواضع الماء في الأبطح، وقال متحسراً عليها وشاكياً تنكرها لما وعدت به:

فيالها خلّة لو أنها صدّقت
بوعدّها أو لو أن النصّح مقبول^(١)
لكنها خلّة قد سيط من دمها
فجّع وولّع وإخلاف وتبديل^(٢)
فما تدوم على حال تكون بها
كما تلّون في أثوابها الغول^(٣)
وما تمسك بالعهد الذي زعمت
إلا كما يمسك الماء الغرايل
فلا يغرّتك ما منت وما وعدت
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
أرجو وآمل أن تدنو مودتها
وما مواعيدُها إلا الأباطيل^(٤)
وما إخال لدينا منك تنويل^(٥)

وتحسر على صداقتها، وقال: ما أكرمها من صداقة ومودة (يتعجب)، لو أنها دامت وتمت على ما نريد، أو أنها قبلت نصيحتي، ولكنها أبت على فوق الفراق، ولم تصدقني في وعدي الذي وعدت به، وهذا ما ينقصها أنها لم تصدق في وعدها.

ولكن مودتها لم تدم طويلاً، وفجعت فيها بالكذب والإخلاف والتبديل، فإن هذه المرأة قد خلط بدمها الإفجاع بالمكروه، والكذب في الخبر والإخلاف في الوعد، وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك سجية لها، ولن يزول عنها ذلك، وهي مولعة بما هي عليه.

فليست لها حال واحدة تكون عليها، فهي تتلون في أثوابها مثل ساحرة الجن أو سعالى الجن (إناس الشياطين) فهي تتلون - فيما يزعمون - كل وقت، وتقول البلاد (تختلف إليها)

(1) ويروى: ويل أمها خلّة، ويروى: أكرم بها خلّة، وخلّة للذكر والأنثى.

والخلّة هنا: الصديقة، يقال: هي خلتي، بمعنى صديقتي وصاحبتي، ويقال للرجل خلّة أيضاً، قال شاعر الحماسة: ألا أبليغا خلّتي راشداً وصنوي قديماً إذا ما تصلّ

(2) سيط: تروى هذه الكلمة بالسين والشين، فأما من رواها بالسين فقد عنى أنه خلط بدمها ما يذكر بعد ذلك من الصفات، تقول: سطت الشيء أسوطه، إذا خلطته، وأما من رواها بالشين فقد أراد معنى غلي وارتفع وعلا، والولع - بفتح فسكون - الكذب.

(3) الغول: ساحرة الجن أو الواحدة من السعالى (إناس الشياطين)، وهو من خرافات الجاهلية.

(4) عرقوب: اسم رجل يضرب به المثل في خلف الوعد.

(5) إخال - بكسر الهمزة - فعل مضارع بمعنى الظن، وكسر همزة المضارعة في هذا الفعل خاصة لغة تميم من بين العرب وهو فصيح، وفتحها لغة أسد، ويروى:

أرجو وآمل أن يعجلن في أيدٍ وما لهن طوال الدهر تعجيل

وتهلك من تشاء، وهذا من معتقدات الجاهلية. ولا توفي بعهد وعدت به، فتخلف وعدها وتبدده، فهي في عهودها كالغرايبيل لا تمسك الماء، فهي لا تتمسك بعهدها. فلا تنخدع بأمانيها ولا بوعودها فأمانيها وأحلامها معك خداع. وصار مواعيد عرقوب مثلاً لها بين الناس لشهرة اتصافها بالإخلاف.

وعرقوب: رجل يضرب به المثل في خلف الوعد، وقيل هو رجل من العمالقة، يسمى عرقوب بن صخر، وقيل هو من الأوس، وقد وعد أخاً له ثمرة نخلة، وقال: انتني إذا طلع النخل، فلما أطلع قال: إذا أبلح، فلما أبلح قال: إذا أزهى، فلما أزهى، قال: إذا أرطب، فلما أرطب قال: إذا صار تمرًا، فلما كان تمرًا جذه من الليل ولم يغطه شيئاً، فضربوا به المثل من الإخلاف. فقالوا أخلف من عرقوب.

ورأى بعض العلماء أنه من الأوس فذكره يعرض بالأنصار؛ لأنهم قاموا عليه عندما عرفوه يريدون قتله، ومن ذهب إلى هذا الوجه قال إن العماليق قد نزل جماعة منهم يثرب، ومنهم يثرب بن عبيد، وعرقوب منهم، وقد كان يرجو أن تحسن مودتها ويأمل ذلك منها، ما بقي من عمره، فقد كان يرجو أن تفي بما وعدت وما أظن أنها ستوده أو تدنوا مني، وجاء في رواية أخرى أنه عم الحكم فجعلهن لا يصدقن طوال عمرهن. ويسمى هذا في البديع الترجيع، فقد قرر أنها ستوده ثم عاد على ما قرره بالنقض، فهو يرجوا مودتها، ولكنه لن ينل منها شيئاً، فرجا شيئاً وظن خلافه.

وانتقل إلى الحديث عن الناقة التي تحمله إلى المكان الذي نزلت به سعاد، فوصف الناقة ومشقة الرحلة وقدرة الناقة على اجتياز هذه الظروف القاسية. فقال:

أَمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبْلَغُهَا	إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَاسِيلُ ^(١)
وَلَنْ يُبْلَغَهَا إِلَّا عَذَافِرَةٌ	لَهَا عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالٌ وَتَبْغِيلُ ^(٢)
مِنْ كُلِّ نَضَاحَةٍ الذَّفْرَى إِذَا عَرَقَتْ	عَرَضَتْهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ ^(٣)

(1) المراسيل: السريعة، النجيبه: الكريمة، العتيق: الكريم أو حسن أو رائع.

(2) العذافرة - بضم العين وبعد الألف فاء مكسورة -: الناقة الضخمة، والأين: الفتور والإعياء، والإرقال: مصدر أرقل، وهو ضرب من السير، ومثله التبغول وهو مشي يشبه سير البغال لشدة.

(3) نضاحه: ترويح هذه الكلمة بالحاء المهملة وبالحاء المعجمة، وهي التي يرشح عرقها، وبعض أهل اللغة جعل النضج بالمعجمة أكثر من النضح بالمهملة ورأى ابن جنى أن النضج فوران الماء من أسفل مندفعاً عن قوة، قال تعالى: (فيهما عينان نضاختان) والذفرى - بكسر الهمزة وسكون الفاء - عظم في أصل الأذن، ويقال: هي نفرة خلف الأذن، وهي أول ما يعرق من البعير، وعرضتها: همتها، وهو من قولهم: =

ترمي الغيوب بعيني مفرد لهق
إذا توقدت الحزنان والميل^(١)
ضخم مقلدها فغم مقيدها
في خلقها عن بنات الفحل تفصيل^(٢)

وشكا فراقها فقال: لقد صارت بأرض بعيدة، فوصف أرضها بالبعد ولا يصل إليها إلا ناقة ماهرة فتية، وذكر ما يتصل بذلك من وصف الناقة.

ولن تستطيع الوصول إليها إلا نوق عتاق أو ما يبلغها شيء إلا نوق كريمات حسناوات ذوات سرعة وعدو. وهذه الأرض لا يبلغها إلا ناقة صلبة عظيمة سريعة العدو، من صفتها أنها إذا أعيت وكلت من السير سارت إرقالاً (ضرب من السير أو نوع الخبب)، وتبغياً (ضرب آخر من السير يشبه سير البغال لشدته)، فما ظنك بها إن لم تكل؟ وهي ناقة فوارة العرق من النقرة التي خلف أذن الناقة، وهي أول ما يعرق منها إذا عرقت، وهي جلدة للسفر قوية تجتاز الطريق إذا طمست علامته، فهمتها طريق طامس الأعلام.

وإن هذه الناقة تقدر على السفر قوية عليه، وتطيقه، فتقطع الطريق المجهول وترمي ما ارتفع وانخفض بعينين مثل عيني ثور شديد أبيض إذا اشتدت الأرض الغليظة الصلبة أو اشتدت أعلام الطريق أو معالمه أو اشتدت عقد الرمل الضخمة؛ وإن هذه الناقة تشبه في وقت توقد الأرض عيون الثور الوحشي الفاقد لابنه في حدة النظر وحدة الجسم والنشاط. وهي ضخمة العنق، وممتلئ موضع التقيد منها، وهو من الرجل، وهي مفضلة من بين بنات الفحل، وقال مسترسلاً في الوصف:

= بعير عرضة للسفر: أي جل عليه قوى، وطامس: متغير، والأعلام: العلامات التي تكون في الطرق يهتدي بها، وأراد أنه ليس بها علم.

(1) الغيوب: جمع غائب، مثل شاهد وشهود، وحاضر وحضور، ويرى في مكانه "النجاد": وهو جمع نجد، وهو ما ارتفع وعلا وقوله "بعين مفرد" أراد بعيني مثل عيني ثور مفرد، وهو الذي انفرد في الصحراء، ولهق: هو شديد البياض، وهو فتح اللام، وهاؤه مكسورة أو مفتوحة، مثل: أبيض يقق ويقق، والحزان، جمع حزيز، وهو المكان الغليظ الصلب، والميل: جمع أميل أو ميلاء، ويقال: الميل هو العلم الذي يبنى على الطريق، ليعرف المسافر الطريق.

(2) المقلد مكان التقيد، وهو العنق، وفعم: أي ممتلئ، ومقيدها: موضع التقيد منها وأراد به الرجل.

غَلْبَاءُ وَجَنَاءُ عَلَـكُومَ مَذْكُرَةٌ	فِي دَفِّهَا سَعَةً قَدَامَهَا مِيلٌ ^(١)
وَجِلْدُهَا مِّنْ أَطُومٍ مَا يُؤَيِّسُهُ	طَلَحَ بَضَاحِيَةِ الْمُتَنِينَ مَهْزُولٌ ^(٢)
حَرْفٌ أَخُوها أَبُوها مِّنْ مُّهْجَتِهِ	وَعَمَّهَا خَالَها قَسُودَاءُ شَمْلِيلٍ ^(٣)
يَمْشِي الْقَرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزَلِّقُهُ	مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابٌ زَهَالِيلٌ ^(٤)
عَيْرَانَةٌ قَذَفَتْ بِالنَّحْضِ عَنْ عَرْضِ	مَرْفُقِهَا عَنْ بَنَاتِ الزُّورِ مَفْتُولٌ ^(٥)
كَأَنَّمَا فَاتَ عَيْنَيْهَا وَمَذْبَحُهَا	مِنْ خَطْمِهَا وَمِنَ اللَّحْيَيْنِ بَرَطِيلٌ ^(٦)

(1) الغلباء: الغليظة الرقبة، والوجناء: عظيمة الوجنتين، والعلكوم: الشديدة، ومذكورة: يريد أنها في عظم خلقها تشبه الذكر من الأباغر، والدف - بفتح الدال وتشديد الفاء - الجنب، وقد أقام هنا الواحد عن المثنى، فهما جنبان، وقوله "قدامها ميل" وصف لها بطول العنق.

(2) يريد أن جلدها قوي شديد الملاسة لسمنها وضخامتها، فالقراد المهزول من الجو لا يثبت عليها ولا يلزق بها، والأطوم: هي الزرافة أو السلحفاة البرية، شبهها بإحداها في الملاسة، ويؤيسه: يذله ويؤثر فيه. والطلح - بكسر الطاء وسكون اللام - القراد، والضاحية: البارزة الظاهرة، وأراد بالمثنين ما اكتنف صلبها عن يمين وشمال من عصب ولحم، ومهزول: صفة الطلح.

(3) الحرف في الأصل حرف الجبل، وهو القطعة الخارجة منه وشبه الناقة به في الصلابة، أو الحرف هو حرف الخط وشبه به الناقة في الهزال والضمور، فهذه الكلمة تحتل هذين المعنيين، وأبوها أخوها، وعمها خالها يريد بهذه العبارة أنها مداخللة النسب في الكرم، فلم يدخل في نسبها أجنبي، والهجنة - بضم فسكون - ههنا - غلط الخلق كغلظ البرانين، والناقة مهجنة: أي كريمة، والهجين: الكريم من الإبل، ومعه هجان، والقوداء: الطويلة الظهر والعنق، والشمليل - بكسر فسكون - السريعة.

(4) هذا البيت في معناه تأكيد لقوله فيما سبق "وجلدها من أطوم" واللبنان - بفتح اللام - والأقرب: الخواصر واحدا قرب - بزنة قفل وجمل - وزهاليل: صفة لأقرب ولبنان معا، وهو جمع زهلول، وهو بزنة عصفور، الأملس الناعم.

(5) عيرانة: يريد أنها تشبه العير في شدته ونشاطه، والعير: حمار الوحش، والنحض - بفتح فسكون - اللحم. وأراد من أنها قذفت به أنها ممتلئة الجسم منه، ويقال: امرأة نحیضة؛ إذا كانت عبلة ضخمة كثيرة اللحم، والعرض - بضم العين المهملة والراء - الجانب والناحية، الزور - بفتح فسكون - الصدر أو وسطه أو أعلاه، وبنات الزور: ماحوله وما يتصل به من الأضلاع، ومفتول: مدمج محكم.

(6) قال محمد محيي الدين: وقع هذا البيت متأخراً في بعض النسخ عن البيتين التاليين له، وآثرنا ترتيب هذه النسخة لموافقتها لرواية ابن هشام الأنصاري في شرحه لهذه اللامية، وفات: تقدم، ومذبحها: منحراها، وهو مكان المذبح، والخطم - بفتح فسكون - الأنف، واللحيان - بفتح فسكون - مثنى لحى، وهو الحنك، والبرطيل - بكسر فسكون - معول من حديد، وهو أيضاً حجر مستطيل، يصفها بكبر الرأس.

تمرٌ مثل عسيب النخل ذا خصلٍ في غارزٍ لم تخونته الأحاليل^(١)

وهي غليظة الرقبة عظيمة الوجنتين تشبه في خلقها الذكر من الأباعر، وفي جانبي عنقها سعة، يصفها بطول العنق وغلظها. وجلدها قوي شديد الملاسة لسمنها وضخامتها، فلا يستطيع القراد المهزول من الجوع أن يثبت علي جانبيها ولا يلزق لملاستها واكتناز اللحم بهما، والمنتان متنى ظهرها، وهما ما اكتنفا صلبها في الظهر. وهي مثل حرف الجبل في القوة والصلابة، أخوها يشبه أباه في الذكر وعمها يشبه خالها في ذلك أو هي من إبل كرام فبعضها يحمل على بعض فليس في نسبها دخيل، وفحفظ نوعها، وهي من كرام الإبل عظيمة الخلق، وهي طويلة الظهر أو العنق، وخفيفة سريعة. ويمشي القراد على جلدها لاستوائه، فيزلق ولا يثبت لسمنها وملاسة جلدها، ويزلق من الصدر والخواصر لملاستها، وقد شد الجلد عليها لسمنها. وهي تشبه العير (حمار الوحش) في شدة نشاطه كأنها قذفت به فنسبت إليه لامتلاء جانبيها ومرفقها من أعلاه مدمج محكم، أو أن مرفقها جاف عن صدرها. إنها تشبه العير لصلابتها، وامتألت أعراضها لحمًا، فهي لم تجلب فهي تامة الخلق لم ينقصها الحلب، ومرفقها من عند الأضلع المقدمات من الزور مفتول. ووصفها بكبر الرأس وعظمه، فقال: كأنما تقدم معول من حديد عينيها ومنخرها من الموضع الذي يقع عليه الفطام والعظمين اللذين تنبت عليهما اللحية أو أن ما تقدم هذه الأماكن حجر مستطيل يكنى به عن عظم رأسها. وهي في سيرها تمر سهلة مثل مرور عسيب الجريد الذي لم ينبت عليه الخوص في ضرع ليس به لبن، فضرع الناقة الممتلى يعوقها عن الحركة، ولم يضعفها الحمل والولادة والحلب، وهذا الضرع لم تنتقصه الأحاليل (أي فتحات الضرع) يريد أنها لا تحلب، وذلك أقوى لها على السير، أو نفي الضعف عن الناقة بنفيه عن ضرعها، فالضرع قد لا يمسك ما فيه فيسقط مع الحركة، وقال:

قنواء في حرثيها للبصير بها عتق مبين في الخدين تسهيل^(٢)

(1) عسيب النخل: جريده الذي لم ينبت عليه الخوص، فإن نبت عليه سمي سعفاً، الخصل - بضم ففتح - جمع خصلة - بضم فسكون - وهي اللقافة من الشعر، وأراد بمثل العسيب ذنبها، والفرز: أراد به ضرعها، وتخونته: تنتقصه، والأحاليل: جمع إحليل، وهو بزنة قنديل مخرج البول.

(2) القنواء: المحدودية الأنف، والحرثان: الأذنان، ويروى بدل قنواء "وجناء" وهي صلبة الوجنة، ومعنى "في حرثيها للبصير بها عتق" أن من رأى أذنيها عرف عنقها وكرمها، وقد وقع هذا البيت متقدماً على البيتين قبله مع أن البيت الذي أوله "تمر متأخر عن البيت الذي أوله "كأنما فات.. الخ". وقد تقدم هذا البيت على ما قبله في بعض الروايات.

تَخْدِي عَلَى بَسْرَاتٍ وَهِيَ لَاحِقَةٌ
سُمُرِ الْعُجَايَاتِ يَتَرَكْنَ الْحَصَا زَيْمًا
كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا إِذَا عَرِقَتْ
يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الْحَرَبَاءُ مُصْطَخِذَا
وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيهِمْ وَقَدْ جَعَلَتْ
ذَوَابِلُ مَسْهِنٍ الْأَرْضَ تَحْلِيلُ^(١)
لَمْ يَقْهِنَ رُؤُوسَ الْأَكْمِ تَنْعِيلُ^(٢)
وَقَدْ تَلَفَعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ^(٣)
كَأَنَّ ضَاحِيَةَ الشَّمْسِ مَمْلُولُ^(٤)
وَرَقَى الْجَنَادِبِ يَرْكُضْنَ الْحَصَا قَيْلُوا^(٥)

يقول: وفي أنفها احديداب ومن رأى أذنيها عرف عتقها وكرمها، وفي الخدين سهولة وانبساط. وروي أن النبي ﷺ لما سمع هذا البيت قال لأصحابه: "ما حراتاها؟ فقال بعضهم: عيناها، وسكت بعض، فقال ﷺ: هما أذناها". ومعناه: إذا نظر البصير بالإبل إلى أذنيها وسهولة خديها بان له كرمها.

(1) تخدي: تسرع، وروى في مكانه "تهوي"، والمعنى واحد، والبسرات: قوائمها، يريد أنها تسح السير بها كلها، واللاحقة: الضامرة الخفيفة اللحم، وذوابل: جمع ذابل، وهو اليابس: وإذا كانت القوائم قليلة اللحم لم تكن رحلة ولا مسترخية، وذلك أنشط لها وأقوى لسيورها، وقوله: "مسهن الأرض، تحليل" إشارة إلى سرعة رفعها قوائمها، يعني أنها إنما تمس بقوائمها الأرض قليلاً كمن يتحلل من يمين.

(2) العجايات - بضم العين المهملة - ومثله العجاوات: جمع عجاية أو عجاوة، وهي لحمة متصلة بالعصب المنحدر من ركبة البعير إلى الفرس، وزيم - بكسر الزاي وفتح الياء - هو المتفرق، يريد أنها لشدة وطنها الأرض تفرق الحصى وراءها، والأكم - بضم الهمزة وسكون الكاف - محفف من الأكْم - بضم الهمزة والكاف جميعاً - والأكْم: جمع إكام - بزنة كتاب وكتب - والآكام: جمع أكم - بزنة جبل وجبال - والأكْم: جمع أكمة، وهي ما ترفع من الأرض.

(3) قال الأستاذ محمد محيي الدين: وقع هذا البيت في بعض النسخ متأخراً عن البيتين التساليين له ههنا، وآثرنا ترتيب هذه النسخة لما ذكرنا قريباً، والأوب: مصدر آب بمعنى رجع، وتلفع: التحف، والقور: جمع قارة، هي الجبل الصغير، العساقيل: السراب، قال الجوهري: لم أسمع بواحدة، يريد أن يشبه رجوع ذراعي نالفته في وقت الهاجرة، عند اشتداد الحر وانتشار السراب فوق صفار الجبال، بذراعي عيطل، وسيأتي بيان المشبه به في بيت آخر، وهو خبر كان الواقع في صدر هذا البيت.

(4) الحرباء - بكسر فسكون - ضرب من العطاء، وهو حيوان بري له سنام كسنام الجمل يستقبل الشمس، ويدور معها حيث دارت ويتلون ألواناً، ويقال: هي أم حبيش، وقوله "مصطخذاً" أي مصطلياً بحر الشمس، ويروى في مكانه "مرتبناً" أي مرتفعاً، وضاحية: ما برز منه للشمس وظهر، ومملول: محروق، أصله من الخبز المليل أو المملول، وهو المصنوع في الملة، وهو بفتح الميم وتشديد اللام الرماد الحار.

(5) الحادي: الذي يسوق الإبل، والورق: جمع أ ورق، وهو الأخضر إلى سواد، ويروى في مكانه "يقع"، وهو جمع أيقع، والأيقع: الذي فيه ألوان، ومثله الأرقط، والجنادب: جمع جندب، وهو ذكر الجراد، ويركضن الحصى، يدفعنه، وقيلوا: فعل أمر من قال يقليل إذا استراح وقت القيلولة، وهو مقول القول الذي في أول البيت.

وهي تسير "تخدي" (ضرب من السير سريع) على قوائمها جميعاً، بيد أنها تحسن السير بقوائمها كلها، وهي ضامرة خفيفة، فمس قوائمها الأرض سلساً سهلاً، وهو إشارة إلى سرعة رفعها قوائمها على الأرض، فهي تتحلل من قسمها بمس الأرض، إشارة إلى سرعة عدوها ولطف مسها الأرض وعلى أرجلها جلد أسود من الركبة إلى الظفر، وذلك من كثرة السير وما تلاقيه من الطريق، أو قوائمها سوداء من أثر السير، وهي تفري الحصى بأرجلها فتفرقه من شدة العدو.

يريد أنها تفرق الحصى بشدة، وطئها الأرض ولا تحفي في سيرها فتفتقر إلى النعل، فالخف لا يتأثر بالأرض. لم يق أرجلها التنعيل: رءوس الأكم، فأرجلها لا يحتجن أن ينعلن لأنهن غلاظ، وأرجلها سمر يتركن الحصى متفرقاً، ولا يحتجن نعلاً لقوتهن. ورجلاهما الأماميتين ترمي الحصى خلفها من شدة السعي في وقت الهجرة والحر الشديد، وقد عرقت ذراعاها الأماميتين، وهما تشدان في الأرض وتواجهان الحر الشديد مثل الحرباء القائم من الحر منتصباً، وقد اسود جانبها الذي يواجه الشمس.

وقيل: يريد أن يشبه ذراعي الناقة في شدته بالحرباء التي تمسك بجزع الشجرة وتقف في وجه الشمس تستقبلها، فتدور معها وتتلون ألواناً بحر الشمس، ويضرب بها المثل في الحزامة، لأنه يلزم ساق الشجرة فلا يرسله إلا ويمسك ساقاً أخرى، فيقف الحرباء يتصدى الشمس وكأن ما برز للشمس وظهر منه محروق. ومعنى البيتين معاً لاتصالهما: أن الأماكن العالية تلفت بالسراب في يوم يظل الحرباء فيه يستقبل الشمس وكأن ما برز منه للشمس محترق من شدة الحر.

ويقول الحادي (سائق الإبل) لمن في القافلة - وطوال الجراد يدفعن الحصى من شدة الحر - استريحوا وقت القيلولة لمشقة السير في الحر. يريد أن ناقتة لا تكف عن السير في الهجرة والقيلولة. واستطرد في ذكر مشقة الرحلة ومعاناة الناقة وقدرتها على مواجهة مشقة السفر، فقال:

شدَّ النهار ذراعاً عِيْطَلْ نَصَف قامت فجاوبها نَكْدُ مَثَاكِيلُ^(١)
نَوَاحَةٌ رَخْوَةٌ الضَّبْعَيْنِ لَيْسَ لَهَا لَمَّا نَعَى مَكْرَهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ^(٢)

(1) عيطل: الطويل، النصف: بين الذي بين الشابه والكهله، نكد: جمع نكدي: وهي الناقة التي لا يعيش ولداها. والمثاكيل: جمع مثكال: التي فقدت ولداها.

(2) نواحة: كثيرة النواح، وهي التي تبكي ولداها، الضبعين: متنى الضبيع: العضد، المعقول: العقل.

تَفْرِى اللِّبَانَ بِكُفْيِهَا وَمَدْرَعُهَا مُشَقُّ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَابِيلُ^(١)

يقول: كانت تسعى، وقد ارتفع النهار واشتد حره، وهى لا تكف عن السير، وكأنها وهى تسرع لها ذراعان طويلان، فتمشى مثل الناقة التى بين الشابة والكهله (يشبه ذراعيها بذراعى المرأة التى تلطم لما فقدت ولدها، وجاوبها نساء فقدن أولادهن، فزاد ذلك من شدة حزنها ولطمها)، يريد بذلك سرعة عدو الناقة. وهى المرأة كثيرة النواح وقد ظهر عضداها، وهى تنوح وتجاوبها النائحات على بكرها الذى فقدته، وقد فقدت عقلها لشدة حزنها على ولدها؛ فخمشت وجهها وشققت صدرها بأظافرها ودقته، يريد بذلك حال الناقة وهى مسرعة.

وتحول الشاعر من الحديث عن الناقة وماعنته فى رحلتها إلى مقصده الرئيسى، وهو الاعتذار، فترك سعاد والناقة ومشقة الرحلة، وتحول إلى معاناة أخرى، فقد ابتلى فى رفاقه الذين تنكروا له لسوء سوابقه وما قاله فى الإسلام، وهو مشرك، فقال:

تسعى الغواة جنابَيْهَا وقولهمُ إنك يا ابن أبى سُلْمَى لمقتول^(٢)

وقال كل صديق كنت آملُـه لا ألهيئكُ إنى عنك مشغول^(٣)

فقلت: خلوا سبيلى لا أبأ لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول^(٤)

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول^(٥)

دخل الشاعر إلى موضوع القصيدة الرئيسى، وهو الاعتذار، فذكر دور سعاية الوشاة وتخذيْلهم إياه وشمايتهم به، وإلحاحهم عليه وتخويفهم إياه، وهم أول من استقبله، فلم يجدهم مرحبين بل وجدهم مخوفين ومخذلين وشامتين، فلم يعبا بهم، وقد ذكر الوشاة، ليجد رد فعل حسن ولطف به ورفق، فذكر ذلك يستشفع به فى اعتذاره، فالشاعر العربى كان يشكو ذل الفقر وقسوة الحياة وإهمال الناس لينال هبات السادة، وكان يتوسل بما وقع عليه من ظلم ليجد معيناً، وقد ذكر كعب مرارة الهجر ومشقة السفر وسوء مقابلة الوشاة،

(1) تَفْرِى: تقطع، اللبان: الصدر، المدرع: قميصها، مشق: شقوق كثيرة، التراقى: جمع ترقوة، عظام الصدر التى عليها القلادة، رعايل: قطع.

(2) الغواة (وفى رواية: يسعى الوشاة): تسعى: أوشى به، والغواة: جمع غاو، والوشاة: جمع واش.

(3) لا ألهيئك: لا أشغلك عما أنت فيه، أى: تعهد نفسك دون معونتى لك.

(4) لا أبأ لك: دعاه عليه، يراد به التوبيخ.

(5) حدباء: يراد به النعش الذى يحمل عليه الموتى.

ليكونوا شفعاء في اعتذاره.

وقد تخلّى عنه الجميع، وتركه من كان يرجوا وساطته، وقال له لا أغنى عنك شيئاً، فاعتن بامر نفسك وقم لحاجتك وحدك، فباتى في شغل من أمرى، فلم يجد معيناً ولا مجيراً، وقد توصل إلى حقيقة من عيون الحكمة أن الموت نهاية كل حى، فلا يخشى عاقبة الأمر الذى أقدم عليه، فكل ما قدره الله تعالى يكون، ولا مفر من قدره، وهذا يؤكد حسن اعتقاده وسلامة عقله ورغبته فى الإيمان خلافاً لمن زعم أنه اعتذر خشية القتل، وهو إلماح من بعيد إلى استقطاب المشاعر والرغبة الشديدة فى الاعتذار، وصدر اعتذاره بما أخبر به من أن رسول الله ﷺ توعده بالقتل وقد قدم عليه معتذراً طمعاً فى عفوهِ.

قال:

وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ ^(١)	نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلٌ ^(٢)	مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً الـ
أُذْنِبَ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ ^(٣)	لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوِشَاةِ وَلَمْ
يَرَى وَيَسْمَعُ مَا قَدْ أَسْمَعَ الْفِيلِ ^(٤)	لَقَدْ أَقُومُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ
مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلٌ ^(٥)	لِظِلٍّ يَرْعُدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ
جُنْحُ الظَّلَامِ وَثُوبُ اللَّيْلِ مَسْدُولٌ ^(٦)	مَا زِلْتُ أَقْتَطِعُ الْبِيدَاءَ مُذَرِّعًا
فِي كَفٍّ ذِي نَقَمَاتٍ قِيلُهُ الْقِيلِ ^(٧)	حَتَّى وَضَعْتَ يَمِينِي مَا أَنَا زَعَهَا
وَقِيلَ إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولٌ ^(٨)	فَلَهُوَ أَخَوْفُ عِنْدِي إِذْ أَكَلِمَهُ

المعنى: أخبرت أن النبى ﷺ أوعدنى بشر لسوء فعلى، وبنى الفعل للمجهول فلم يعين المخبر، ليستعطف النبى ﷺ فعلمى المخبر ليجد العفو، وقابل الوعد بالعفو عند الرسول ﷺ

(1) يروى: أنبئت: أخبرت خبراً صادقاً، الإيعاد يكون بالشر وبالخير.

(2) مهلاً: اسم فعل بمعنى لا تعجل على أو أرفق بى، نافلة: عطية وهبه زائدة.

(3) الواشى: الذى يسعى بالوقعة بين الناس، أو الذى يزوق الكلام.

(4) وروى: أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل.

(5) روى: لظل ترعد من وجد بوادره. والبوادر: اللحم الذى بين العنق والكتف.

(6) روى: وثوب الليل مسبول. أى مسدل طويل مرخى.

(7) روى: حتى وضعت يمينى ما أنا زعه: ونقمت مفرداً نقمة وهو الغضب الشديد.

(8) روى: لذاك أهيب عندى إذ أحكمه.

وذكر الرسول ﷺ للتعظيم، ولتقوية الرجاء، فالناس تعلم حسن خلقه وتقديمه العفو على العقاب، لما يتمتع به من سماحة ورحمة جبل عليها.

فقال للنبي ﷺ: لا تعجل على وارفق بي، فقد أنزل الله تعالى عليك نوراً مبيناً مفصلاً تعظ به وترشد إلى الحق، وهذا البيت يستعطف فيه النبي ﷺ، ويطلب الرفق به والأناة في أمره، ويدعو الله تعالى له بالهدى الذي يقتضى الصبر عليه، واعترف بما في القرآن الكريم من هدى ومواعظ وبيان للناس، وهذا دليل على صدق رغبته في الإسلام واقتناعه به.

وسمى القرآن الكريم نافلة أى زيادة فى الفضل والإحسان، فقد أعطاه الله تعالى فضلاً عظيماً وزاده فضلاً بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يُقَاتِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أى زيادة على العلم الذى أحسنه وأتقنه^(١).

وفى القرآن الكريم تفصيل لكل شيء، فيبين للإنسان ما يحتاجه من أمرى المعاش والمعاد.

وتضرع كعب إليه فقال: لا تعاقبنى بما سعى به الناس إليك عنى أننى ذكرت بك بسوء، فلا تستبح دمي بأقوال من يزوق الكلام ويزيد فيه قصداً للإفساد، ولم أرتكب ذنباً، ولم أفعل ما ادعوه، فلا تعتد بقولهم وإن كثرت فى الأقوال.

وقد صرت فى موقف صعب أمامك لما أنا فيه ضيق واتهام، فبانى فى موقف لا يقدر عليه من له قوة، فالفيل الذى عرف بالقوة لا يقدر على تحمله، فلو كان فى موقعى هذا لأصابه هلع شديد ورعده حتى يصفح رسول الله ﷺ ويرضى فيسكن.

وقد قطعت طريقاً صعباً طمعاً فى عفوه وقد جئت مبيعاً معاهداً عهداً لا إقالة، فقد وضعت يمينى فى يمينه وضع طاعة وهو أشده هيبة وتوقيراً فى قلبى وأنا أكلمه، وقد قيل لى إنك مسنول عما فعلت، وروى: "لذاك أهيب عندى إذ أكلمه"، وقد أعرب عن مقصده الحقيقى الذى مهد له بما سبق من الغزل والوصف والمدح، فقد ذكر أنه قطع الرحلة الطويلة إلى النبي ﷺ وليس إلى سعاد، وأن الناقة الفتية القوية قطعت رحلتها الشاقة مسرعة دون توقف ليصل بها إلى النبي ﷺ.

وانتقل من الاعتذار إلى مدح الرسول ﷺ بالشجاعة فقال:

(1) ارجع إلى شرح فصيحة كعب ص ٢٧٣.

من ضيغم بضراء الأرض مخدرةً في بطن عثر غيل دونه غيل^(١)
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما لحم من الناس مغفور خراويل^(٢)
إذا يساور قرتاً لا يحل لـه أن يترك القرن إلا وهو مغلول^(٣)
منه تظل سباع الجو نافرةً ولا تمشى بواديه الأراجيل^(٤)
ولا يزال بواديه أخو ثقةً مضرج البز والدرسان مأكول^(٥)

يمدح النبي ﷺ، فيقول فيه إنه أسد من أسود الأرض يعيش بوادى الأسود فى مأمن من حوله أشجار من دونها أشجار، يقبل أول اليوم فيطعم شبليه لحماً يريد أنه يقتل أعداءه، فيتركهم مجندين فى التراب، بعد أن اشتفى منهم، وتظل سباع الأرض نافرة خائفة لا تهدأ ولا تأمن كره عليهم، ولا يمشون بأرضه خشية منه، يصف النبي ﷺ بأنه مثل الأسد الذى تخافه السباع، والأسود ساكنة من هيبته ولا يمشى أحد بواديه.

وهو بأرضه واثق بنفسه لا يخشى أحداً، وهو مخضب بالدماء وقد مزق عدوه وترك ثيابهم ممزقة، وهذا تشبيه بليغ، ثم مدح الرسول ﷺ مدحاً خاصاً لم يسبق إليه شعراء الجاهلية، فالرسول ﷺ نور يستضيء به الناس، ويرشدون به إلى الصواب والحق، فقد أخرج الله تعالى به الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان. قال:

إن الرسول لنور يستضاء به مهتد من سيوف الله مسلول

يعد هذا البيت أشهر بيت فى قصيدة كعب، بل يعد من عيون الشعر ومن الأبيات السيارة، ويدخل فى روائع المدائح النادرة لما جمع فيه من إيجاز اللفظ وحسن التشبيه

(1) روى: من خادر من ليوث الأرض مسكنه: من بطن ... الضفيم: الأسد، الخادر: الداخل فى الخدر، وهو الأجمة التى يسكنها الأسد، وضراء الأرض: ما وراء الشجر، ومخدر الأسد، غابته التى يسكنها، وعثر: مكان تكثر به الأسود. والغيل: الأجمة.

(2) يغدو: يذهب أول النهار، يلحم: يطعم لحماً. الضرغام: الأسد، يريد بهما أسدين من أشباله. مغفور: ممرغ فى العفر، الخراويل: القطع.

(3) يساور: يواش، القرن: المثل الذى يقاومه فى الشجاعة، مغلول: أثر فيه، ويروى: مجدول: مطروح فى الجدالة (الأرض).

(4) الجو: اسم موضع، أو البر الواسع، نافرة: خائفة هائجة، ويروى: ضامرة، والأراجيل: الجماعات من الرجال.

(5) الوادى: المكان الذى فيه، مضرج: مخضب بالدماء، البز: السلاح، الدرسان: الثوب الخرق البالى، وأخو ثقة: تعبير يدل على الثقة فى النفس والثبات.

وقوة المعنى، وهذا المعنى لم يسبق إليه فى الجاهلية بل يعد من ابتكار كعب، وجاءت فيه روايات منها: "إن الرسول لسيف يستضاء به"، وروى أن كعباً قال: مهند من سيوف الهند مسلول، فقال النبى ﷺ موجهاً: "من سيوف الله". والله أعلم.

ومعناه إن الرسول ﷺ إمام هدى ونور للعالمين، يرشد الناس إلى الحق، وهو سيف مسلول على أعداء الله فلا يرد سيفه فى غمده حتى يدين الناس بدين الله تعالى، وهذا السيف من أجود أنواع السيوف فهو مهتد أى هدى حاد قاطع، بتار شديد اللمعان، وروى: إن الرسول لسيف يستضاء به" يريد: يهتدى به إلى الحق، والسيف الهندى شديد اللمعان لما يعكسه من الضوء، فشبه به النبى ﷺ وهو تشبيه بليغ مؤكد، وهذا النبى العظيم فى صفوة من خيار قريش، نصره وهاجروا معه وقاتلوا معه الكفار. قال:

فى عَصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ	بِطْنِ مَكَّةَ لَمَّا اسْلَمُوا: زَلُّوا ^(١)
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسُ وَلَا كُشْفُ	عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلُ مَعَاذِيلُ ^(٢)
شَمُ الْعَرَانِينَ أَبْطَالُ لِبُوسُهُمْ	مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سِرَابِيلُ ^(٣)
بَيْضُ سَوَابِغٍ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقُ	كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ ^(٤)
لَيْسُوا مَفَارِيحَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ	قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا ^(٥)

(1) عصبه: جماعة، يريد المهاجرين، وروى فى فتية" زلوا: تحولوا من مكان إلى آخر، يريد أن كفار مكة ضيقوا عليهم فهاجروا من مكة فراراً بدينهم.

(2) أنكاس: جمع نكس، وهو الرجل الضعيف، يريد: ليسوا بضعفاء. كشف: جمع أكشف: من لا ترس معه فى الحرب، والميل: جمع أميل: لا يسقطون عن الخيل، ولا يهربون من لقاء العدو، والمعازيل: جمع معزال: من لا سلاح معه، فهو أعزل من السلاح. يريد أنهم فى عدة الحرب، فلا يضعفون ولا يجبنون، ولا يميلون عن لقاء العدو، وليس بمعازيل من السلاح.

(3) شم: جمع أشم، وهو الذى يشمخ بأنفه كبراً، والعرائن: جمع عرنين، وهو الأنف، أى هم أعزة أبطال، لبوسهم من نسج داود: كناية عن الدروع، وهو مشهور بصناعة الدروع وضرب به المثل فى ذلك، الهيجا: الحرب، وأصله الهيجاء، فقصره للضرورة الشعرية، والسرابيل: جمع سربال: وهو ما يرتديه المحارب.

(4) بيض: جمع أبيض، سوابغ: جمع سابغ، أى كاس طويل، يصف السراويل بأنها بيض طويلة، شكت: انسجت أو أدخل بعضها فى بعض، حلق: جمع حلقة، والقفاء: نبات منبسط متشابك يشبه حلق الدروع. ومجدول: محكم الصنعة، أو أدخل بعضه فى بعض بإحكام.

(5) مفاريح: مفردا مفراح، مجازيع: مفردا مجزاع، وهو مبالغة فى الفرح وشدة الجزع، نيلوا: أصابهم عدوهم. يريد أنهم لا يسرفون على أنفسهم فى الفرح بالنصر، ولا يجزعون من الهزيمة.

يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرُ يَعْصُمُهُمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ^(١)
لَا يَقَعُ الطُّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ وَمَالَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ^(٢)

المعنى: إن الرسول ﷺ نور يهتدى به، يجاهد الكفار في جماعة متماسكة قوية من قريش، وروى "في فتية من قريش" وعصبة: جماعة من الناس مابين العشرة والأربعين، وقد ثبتوا معه على الإيمان، فاضطهدهم المشركون فهاجروا بدينهم، وثبتوا مع النبي ﷺ في دار الهجرة وجاهدوا معه، وهم أهل شجاعة وإقدام.

ولا يميلون عن لقاء العدو خشية وليسوا بعزل من السلاح فلا يفرون، فهم أقوياء ذو سلاح وفرسان عند اللقاء، وهم أصحاب مجد وسيادة وكرم أبطال، وشجعان ويخوضون الحروب الضارية لا يخشون الطعان ودروعهم محكمة سابعة تحميهم، ومتسربلون بها جيذاً، وكأنها لإحكامها وقوتها من صنعة داود عليه السلام، ويضرب به المثل في إجادة صنع الدروع، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنُكْمُ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وهذه السراويل المسدلة عليهم (الدروع) بيض جلوة صافية طوال، شُكَّتْ أدخل بعضها في بعض، وسُمِّرَتْ، وقد نسجت من حلق، أو حلق أدخلت في بعضها بعضاً، وجدلت كأنها مثل شجر الققاء، وهو شجر ينبسط على الأرض متشابك يشبه حلق الدروع.

وإذا ظفروا بعدوهم ، لم يظهر عليهم الفرح ، وإذا ظهر عليهم عدوهم لم يجزعوا فهم شجعان وأصحاب هم وأشداء صبر في الحرب ولا يعبأون بالخطوب، وليس ذلك منهم بأول فعل ولا هو بمستنكر، فهم صَبْرٌ وإذا نُكِبُوا لا يجزعون. وهم يمشون مشى الجمال البيض، يحميهم من أعدائهم ضرب شديد ويكفهم إذا هرب السود القصار وأعرضوا.

وقد شبههم بالجمال في المشى، وهو يريد امتداد قامتهم وعظم خلقهم، وأراد بـ"ضرب" نكرة للتهويل. وأراد بوصف "الزهر" أنهم بيض أي سادات لا عبيد وعرب لا أعراب، وقيل إنه أراد بالسود التنابيل الأتصار يعرض بهم، لأنهم أرادوا قتله، وعردوا:

(1) الزُّهْرُ: جمع أزهر: أبيض، عرد: هرب من القتال وفر، السود للتنابيل: السود القصار، يهجو الجبناء الذين لا يثبتون للعدو، ومفرد تنابل: تنبال: القصير.

(2) الطعن: الضرب بالحربة والخنجر، نحور: موضع الذبح في العنق، حياض: جمع حوض، يريد ميدان الحرب، تهليل: فرار يرى أنهم لا يهزمون فيقع الطعن في ظهورهم، بل يقتلون وهم يقبلون على الموت، وروى أن النبي ﷺ أشار إلى من حوله عندما سمع هذا البيت أن اسمعوا، لإعجابه به.

هربوا وفرّوا وتركوا القتال منهزمين، والتناوبل واحدها تنبال وهو القصير. ولا يقتلون من ظهورهم، فهم لا يولون الدبر بل يقطع الطعن في نحورهم، وهم يتقدمون إلى أعدائهم، ولا يتأخرون عن حياض الموت إذا تأخر غيرهم عنها ونكص. يريد أن يصفهم بالشجاعة والإقدام وأنهم لا ينهزمون ولا يخشون الموت، فلا يرون له بديلاً فهم طلاب الشهادة.

فلا يفرون ولا ينهزمون فيقع الطعن في أديبارهم بل هم يواجهون القتال، فيقع الطعن في نحورهم، واختار النحر؛ لأنه موضع الطعن في الجمال.

وقد اختص المهاجرين بالمدح دون الأنصار لما ذكرناه سابقاً أنهم اشتدوا عليهم عندما عرفوه وهموا به، فحمل في نفسه فلم يذكرهم، وحمل الموضعين اللذين ذكرناهما على أنهما تعريض بالأنصار، وهو مذهب بعض الشارحين، ولهما وجه آخر من المعنى قد بيناه. وبعد، فقد شاكلت هذه القصيدة قصائد الجاهلية في الشكل، فقد بدأ الشاعر بمقدمة بكائية شكا فيها فراق الحبيبة "سعاد" وإخلافها الوعد، ونزولها بأرض بعيدة وعرة ذات تضاريس غير مستوية، والسفر إليها شاق، ووصف الشاعر وسيلة المواصلات "الناقة"، وهي الوسيلة الوحيدة التي تصلح للسير في الصحراء القاسية وعرفت بسفينة الصحراء، وقد أطل الشاعر في وصف الناقة وعزّر مكانتها، واستطرد في وصف صفاتها المتعددة وما يميزها، وانتهى من وصفه أنها فريدة النوع نسيج وحدها، وقد أكثر القول فيها والإعجاب بها، أكثر مما ذكر به الحبيبة التي وصف صفاتها الذميمة فقط، ولم يذكر شيئاً عن محاسنها، بل تغزل في الناقة فوصف رأسها وعنقها وذراعيها الأماميتين ثم الأرجل معاً، والجسم الذي وصفه بالاكتناز والملاسة والصلابة، ووصف سيرها وحركتها وشدتها، وحسن هيئتها، وهذا الوصف من الممكن أن يحمل على ما كان يصف به الحبيب حبيبته في تغزله بها، فكان ناقة كعب امرأة طويلة القامة معتدلة غضة طويلة العنق فتية ذات سيقان طويلة مكتنزة، وهذا يشعر أنه ترك التغزل في المرأة وجعل الناقة بديلاً لها حياء من النبي ﷺ وصحبه، وليساق بين المقدمة وبين الاعتذار والمدح، فذكر جمال المرأة ووضعها وتعلقه بها لا يناسب غرض الشاعر الرئيس، وهو الاعتذار، وقد أسرف الشاعر في الحديث عن رحلة السفر المزعومة إلى الحبيبة والناقة التي ستحملة إليها، بيد أنه بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة التي أسرف في وصفها ليست إلا نسج الخيال، فالرجل — على ما فهم من ظروف إنتاج القصيدة — قالها وهو قادم في الطريق إلى النبي ﷺ.

وهذا يشير من بعيد إلى أن المقدمة ليست هدفاً للشاعر بل تقليداً شعرياً سار عليه سابقوه من الشعراء؛ فالشاعر على طول مقدمته لم يذكر لنا نتيجة هذه الرحلة الشاقة إلى

الحبيبة، وهي رحلة في الخيال البشري سبج فيه الشاعر وطوف، وتحول تحولاً مفاجئاً في رحلة السفر؛ فقد فاجأنا بأنه وصل بهذه الناقة المتميزة إلى النبي ﷺ، فسعاد ليست حقيقة بل رمزاً لما أخفق فيه من قبل، فقد انعكس إخفاق الشاعر وشعوره بالهزيمة على مقدمة القصيدة، فالأصدقاء تركوه وحيداً وانشغلوا عنه، وشمّت به بعضهم وخوفوه، وقد كان يحبهم ويثق فيهم، وفي لهم بوعده، ولكنهم خذلوه مثل سعاد تماماً التي أخلفت وكذبت، وسيطر عليه الحزن في المقدمة والألم، واستلذ رحلة الألم التي قطعها ليصل إلى اليقين، ولم يشتك الألم الذي عاناه، بل اشتكى حال الناقة وما داهمها من ظروف قاسية، يريد حال نفسه، فالناقة ليست وحدها التي واجهت الرحلة الشاقة فقد كان في صحبتها، ولم تك هذه الرحلة الشاقة للوصول إلى الحبيب المذكور، في أول القصيدة، بل إلى حبيب آخر أعز عليه وأكرم من تلك التي منت وأخلفت، ولعله كان يرمز للحبيبة إلى الحياة التي عاشها، ولعله كان يرمز للناقة إلى نفسه التي كابدت الصعاب وعاشت محنة الاغتراب والوحدة.

وقد عظم من شأن الناقة التي حملته في هذه الرحلة الشاقة، وامتدحها، لأنها وصلت به إلى الحقيقة التي كان يبحث عنها، فقد ضاقت به نفسه ولم يجد لنفسه نجاه في الأرض، فلن يفر من نهايته، وقد أيقن أن الإيمان هو الحقيقة التي بحث عنها في الصحراء الممتدة، وقد كان لديه عزم وإصرار؛ ليصل إليه، وقد رمز إلى ذلك في حديثه عن ضراوة الحر وشدته في القيلولة أو الهاجرة، وقسوة السير في الأرض الساخنة والحجارة، ورمز إليه بعدو الناقة وسرعتها ونفيها الرمال من خلفها لسرعتها وعجلتها لتصل إلى هدفها وعدم توقفها للراحة و في القيلولة عندما قيلت الحيوانات لتحتمي من الحر، لكنها سارعت الزمن لنلا يفوتها الهدف التي شقيت لأجله وكابدت في الوصول إليه، ولم تعباً بالعثرات.

وتعرض الشاعر لمحنة قاسية فقد ابتلى برفاق خوفوه العقاب، وهؤلاء الرفاق سعوا بجانب الناقة، فهو لم ينزل عنها بعد، وقد صدم بجفوة رفاقه الذين لم يحتفوا بقدومه، بل خذلوه وخوفوه وانصرفوا عنه فصار وحيداً، ولم يك هذا متوقعاً بعد هذه الرحلة الشاقة.

لكنه لم يعبأ بموقفهم حياله وصداهم إياه، فانتفض (ثائراً) دعوني، ولم يلتفت إلى شيء مما قالوا، فقد أصبح على يقين صادق بما هو عليه، فقد آمن بقدر الرحمن "فكل ما قدر الرحمن مفعول" وإيمانه بالرحمن جعله يؤمن بقدره في النهاية التي سيلقاها، وهذا يقين المؤمن الصادق، واختار من صفات الله تعالى "الرحمن" طمعاً في رحمته بعد أن ضاقت به الأرض، وفقد الصديق. ودخل على رسول الله ﷺ، وهو المقصود من الرحلة التي أعد لها ناقة فتية حملته إليه، وأعلن اعترافه بأنه رسول، وخاطب الغائب تعظيماً "هو" و"رسول

الله" ولم يقل "محمدًا" على ما خاطبه به مشركو العرب، وذكر عفوه ليستعطفه، وهو ما أرسل به إليه أخوه بجير رضى الله عنه. وتحول من حديث الغائب إلى الحاضر ملتفتًا إليه داعيًا له، فخاطبه:

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
سقرآن فيها مواعظ وتفصيل
يطلبه من أن يتمهل عليه وألا يعجل به، ليعرض عليه أمره، فذكر من شأن الوشاة ما ذكر، والوشاة لهم شخصية ذات حضور في الشعر، فلهم دور في موضوع الاعتذار، وقد قال النابغة الذبياني معتذرًا:

لئن كنت قد بلغت عني خيانة
لمبلغك الواشي أغش وأكذب
وقال كعب:

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت عني الأقاويل
ثم ذكر له شدة ما يعانيه من شدة الموقف وثقله عليه، وأعلن بيعته، وأخذ على نفسه العهد وفاء له ثم مدحه ﷺ ومدح أرومته، وشبهه بالأسد الذي يقيم في مكان منيع، وقد عز في أصحابه، وأشبع من حوله، وفاض طعامهم، وزاد حاجتهم إليه، وأصبحت الغلبة للنبي ﷺ ولأصحابه، وهابته العرب وبادرت بمصالحته والدخول في طاعته. ثم التفت إلى بطانته الصالحة ورجاله الأفذاذ الذين خاض بهم المعارك، وليس لهم مطلب إلا الموت دونه، وهم رجال أشداء على الكفار رحماء بينهم.

وتجاهل كعب رضى الله عنه شطرًا عظيمًا من أصحابه ﷺ، وهم الأنصار في منزلة بعد المهاجرين ولهم بلاؤهم في الإسلام، فقد نصرُوا الإسلام وبذلوا المال والنفس فيه، ويحبون من هاجر إليهم ويكرمونه، وقد تركهم كعب لشيء في نفسه، ولكن رسول الله ﷺ والمهاجرين أبوا أن يخصصهم بمدح دون إخوانهم الأنصار، فألقى ما في نفسه حبًا لله ولرسوله ﷺ ومدحهم.

واللغة التي استخدمها كعب هي نفسها لغة شعراء الجاهلية، ولكنه لم يستخدم لغة جبليّة وعرة فيها تكلف وخرابة بل شابّهت لغة الحضر، وفيها اختيار ودقة، وذلك في المقدمة، ولكنه في مديحه استخدم مفردات إسلامية ذات دلالة جديدة مثل: رسول الله، سيف الله، الإسلام.

وقد كان العرب يطلقون على المسلمين الصابنين من صبا أي: ترك دينه ودان بآخر، وكان قوم غزاهم خالد بن الوليد، فلا يحسنون أن يقولوا أسلمنا، فيقولوا صبانًا، يريدون أسلمنا. ومثل العفو، القرآن، نافلة، وهي الزيادة عما أوجبه الله تعالى، واستخدمها كعب

بمعنى الزيادة في العطاء كرمًا وسخاءً عليهم أو زيادة في الفضل، والهدى، والموعظة،
التفصيل (يريد : التبیین) "الذنب"، "إذن الله".

ولم يتأثر كعب في قصيدة بالقرآن الكريم إلا في الألفاظ التي ذكرناها، ولم يتأثر بأسلوبه
تأثر حسان رضى الله عنه؛ لأنه حديث عهد بالإسلام، وليس لديه رصيد كاف من القرآن
يتأثر به أسلوبًا ولفظًا، وليس هناك مضامين إسلامية كثيرة لعدم علمه بها، لكنه في
قصائده التي تلتها تأثر بالقرآن الكريم وحديث النبي ﷺ.

وقد وقع في القصيدة بعض التشبيهات غير المتكلفة، وكلها مقتبسة من البيئة ومنها :
تشبيه ماء الأسنان (اللعب) بماء الوادي فيه رمل وحصى صغار وذلك في الصفاء.
وشبه صوت سعاد بصوت الطفل الذي يلهج بغنة من طرف أنفه، وذلك لبعد المسافة فلم
يميز كلامها، والغنة : أن يشرب الحرف صوت الخيشوم، وقد شبهها بالطفل في صوته
وفتور طرفه.

وشبه اختلاف حال سعاد (يريد اضطراب مزاجها وشخصيتها) بتلون الغول، وكان
العرب يهولون من أمر الغول، ويشبهون عدم الوفاء بالوعد والعهد وتبديد الوصل
بالغرابيل التي لا تمسك الماء، وشبهها في الإخلاف بعرقوب، وهو رجل ضرب به المثل في
الإخلاف، قال علقمة الأشجعي: (١)

وعدت وكان الخلفُ منك سجيةً مواعيد عرقوب أخاه يثيرب

وشبه رأس الناقة بالحجارة، التي لها طول أو بالمعول، وذلك في إشارته إلى عظم
رأسها، وشبهها في السرعة بمرور عسيب النخل. وشبه جلد الحرباء الذي سودته
الحرارة، بالجلد المحترق. وشبه حركة الناقة السريعة بيدي المرأة التي فقدت ولدها ومن
حولها نساء يجاوبنها وهي تضرب وجهها وصدر بيدها وتخمش وجهها.

وشبه شدة الموقف عليه وتأثره به وهو أمام رسول الله ﷺ أنه أصبح في قوة إسماع الفيل
لأثر القول في نفسه، وكانوا يتوهمون أن الفيل أسمع الأشياء، وأقواها، قال لبيد: (٢)

لو يقوم الفيل أوفيًا له زلَّ عن مثل مقامي وزحل

توهم لبيد أيضًا أن فيل الفيل "مدربة" أشد الأشياء لما له من قدرة على سياسة الفيل،
وتصريفه. وشبه رسول الله ﷺ بالأسد في الشجاعة، وذلك في مكنه بين الأسد وبوادي

(1) شرح قصيدة كعب ص ١٥٩.

(2) شرح ديوان كعب ص ٢٠.

الأسد، وبَيْتُهُ من دُونِهِ بَيْتٌ فَهُوَ آمِنٌ، وشَبَّهَهُ أَيْضًا بِالسَّيْفِ الهِنْدِيِّ فِي الْقُوَّةِ وَاللِّمَعَانِ لِمَا فِي حَدِّ السَّيْفِ مِنْ لِمَعَانٍ، وشَبَّهَ الدَّرُوعَ بِنَبَاتِ الْقَفْعَاءِ الْمَجْدُولِ. وَهُوَ نَبَاتٌ لَهُ وَرَقٌ وَثْمَرٌ، فَشَبَّهَ حَلْقَ الدَّرُوعِ وَتَدَاخُلَهَا فِي بَعْضِهَا، بِحَلْقِ الْقَفْعَاءِ الْمَتَدَاخِلَةِ وَهُوَ نَبَاتٌ أَرْضِي كَانَ حَبُّهُ حَلْقَ الدَّرُوعِ، وَقَدْ جَدَلْتُ أَيَّ أُدِيرْتُ وَفَتَلْتُ، وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضِهِ.

وشَبَّهَ الْمُهَاجِرِينَ فِي مَشْيِهِمْ إِلَى الْعَدُوِّ بِالْجَمَالِ الزَّهْرِيِّ (الْبَيْضِ)، وَهُمْ يَرْتَدُّونَ الدَّرُوعَ، وَرَوَى: "مَشَى الْجَمَالُ الْجُرْبُ"؛ لِأَنَّ الْجَمَلَ الْأَجْرَبَ يَطْلِي بِالْقَطْرَانِ، فَشَبَّهَهُمُ الدَّرُوعَ عَلَيْهِمُ بِالْجَمَالِ الْجُرْبِ، وَهَذَا بَعِيدٌ وَالْأَوَّلَى أَحْسَنُ. وَجَاءَتْ الصُّورُ قَلِيلَةً، وَمِنْهَا أَنْ جَعَلَ مِنْ صَدَاقَةِ سَعَادٍ دِمَاءً خَلَطَتْ بِالْفَجْعِ وَالْإِخْلَافِ وَالتَّبْدِيلِ، وَجَعَلَ اللَّبَانَ (صَدْرَ النَّاقَةِ) يَزْلُقُ الْقِرَادَ، وَالْقِرَادُ هُوَ الْفَاعِلُ، وَجَعَلَ السَّرَابَ يَتَلَفَعُ بِالْقُورِ. وَالضَّرْبُ يَعَصِمُ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْمَوْتِ، وَقَدْ فَرَّ عَنْهُمْ السُّودُ الْقَصَارَ وَتَرَكَوهُمْ فِي مَوَاجِهَةِ الْمَوْتِ. وَهِيَ تَشْبِيهَاتٌ وَصُورٌ مِنَ الْبَيْئَةِ الَّتِي عَاشَ فِيهَا الشَّاعِرُ، وَهِيَ بَيْئَةُ بَدْوِيَّةٍ صَحْرَاوِيَّةٍ، وَلَيْسَ فِيهَا تَكْلَفٌ أَوْ تَعْقِيدٌ.

وبَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ يَرَوْنَ أَنَّ كَعْبًا أَنْشَأَ قَصِيدَتَهُ رَجَاءً فِي النِّجَاءِ مِنَ الْقَتْلِ، وَلَيْسَتْ عَنْ عَاطِفَةٍ دِينِيَّةٍ، وَاسْتَدْلَوْا لِذَلِكَ بِمَا رَوَى عَنْ سَبَبِ قَيْلِهَا وَمَا وَقَعَ بَيْنَ كَعْبٍ وَأَخِيهِ بَجِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَنَّهُ غَاضِبُهُ، فَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهَا قِيلَتْ اعْتِذَارًا، وَمَدَحُ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ خَشِيَ عِقَابَهُ، قَالَ الدُّكْتُورُ مَبَارَكُ: "وَقَدْ نَظَرْتُ طَوِيلًا فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ فَلَمْ أَرْ غَيْرَ مَا قَرَرْتُ، [وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ سَابِقًا] فَهِيَ قَصِيدَةٌ جَاهِلِيَّةٌ تَغْلِبُ عَلَيْهَا قُوَّةُ السَّبْكِ، وَلَكِنَّهَا تَخْلُو مِنْ رُوحِ الدِّينِ، وَلَا غَرَابَةٍ فِي ذَلِكَ. فَإِنَّ كَعْبَ بْنَ زُهَيْرٍ لَمْ يَمْدَحِ الرَّسُولَ إِلَّا لِيَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ، وَمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهِ لَا يَنْتَظِرُ مِنْهُ صَدَقُ الثَّنَاءُ".^(١) وَأَقُولُ: كَيْفَ عَرَفَ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ، وَأَنَّهُ قَالَهَا خَوْفًا وَلَيْسَتْ عَنْ عَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ، وَالرَّجُلُ آمِنٌ، وَحَسَنُ إِسْلَامِهِ؟ وَمَاذَا كَانَ يَنْتَظِرُ مِنْ رَجُلٍ لَا يَعْرِفُ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَمْ يَسْلَمْ بَعْدَ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ؟ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ صَادِقًا فِي اعْتِذَارِهِ وَمَدَحِهِ، وَقَدْ بَلَغَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ مِنَ الشُّهُرَةِ مَا بَلَغَتْ، وَتَعَدُّ الْأَبْيَاتُ الَّتِي مَدَحَ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ عَيُونِ الْمَدْحِ وَدَرَرِهِ فِي التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ؟!

وَقَدْ نَاقَضَ الدُّكْتُورُ مَبَارَكُ نَفْسَهُ، فَقَدْ قَالَ: "وَالَّذِينَ نَقُولُ بِهِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَقَدْ اِهْتَمَوْا بِهَا اِهْتِمَامًا عَظِيمًا، وَعَدَّوْهَا مِنْ أَجْمَلِ مَا قِيلَ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ، وَعَنَى بِهَا الشُّعْرَاءُ فَشَطَرُوهَا وَخَمَسُوهَا وَعَارَضُوهَا، وَأَوَّلَعَ بِشَرْحِهَا فَرِيقٌ مِنْ كِبَارِ الرِّجَالِ". وَذَكَرَ رَجَالًا فَحَوْلًا، وَأَشْهَرَهُمُ ابْنُ هِشَامٍ الْأَنْصَارِيُّ النَّحْوِيُّ، وَالسِّيُوطِيُّ،

(١) المَدَانِحُ النَّبَوِيَّةُ، زَكِي مَبَارَكُ، ص ٢٤٠، ٢٥.

ومحمد حسن المرصفي، وممن عارضها من الشعراء ابن نباته المصري، ولم تزل الشعراء ينسجون على منوالها إعجابًا بها.

وقد اهتم بها المستشرقون حديثًا، فترجموها إلى لغتهم، ولها مكانة خاصة بين الصوفية فهي عندهم في درجة بردة البوصيري الذي تأثر بها أيضًا، وعكف عليها الدارسون حديثًا ونالت اهتمامًا عظيمًا منهم، وقد أغرتني ببحثها فأعطيته من البحث والعناية ما لم أعطه غيرها، ولو لم يك لعرب غيرها في مقدمة الشعراء الفحول، ولكفته وحدها، وقد عُرف كعب بها مثلما عرف سيبويه بكتابه، بيد أن الدكتور مبارك على ما ذكر من شهرتها وإعجاب رجال الأدب واللغة والنحو، والمتصوفة بها، فإنه قال فيها ما لم يقل به أحد، وليس قوله قائمًا على حجة بل اعتقاد شخصي وظن في عاطفة الشاعر وصدقه، وهو يذكر عنها أن الشعراء ولعوا بها، والباحثون والشرّاح، وتوارث المسلمون احترامها.

وإجماع هؤلاء عليها لا يرضيه، ولا يزيل عنه ظنه بالرجل الذي لم يطلع على ما في قلبه، وقال: "ولولا ما في ألفاظها من الوعورة لشاعت في البيئات الصوفية، وأصبحت من حملة الأوراد، وكان لها ما صار للبردة من السيرورة بين العوام والخواص".^(١) والرجل لم يكن متصوفًا ولم ينشأ التصوف في عصره، فهو لاحق عليه، واللغة التي استخدمها الشاعر هي لغة الشاعر نفسه وهي لغة مدرسة زهير، وهي اللغة التي استخدمها شعراء عاشوا بين البادية والحضر، وليست غريبة كاللغة التي بدأ بها طرفة معلقته والتي وصف بها ناقته "لخولة أطلال ببرقة ثمهد"، وقد استخدم لغة بدوية تحتاج معجمًا لغويًا، وفيها من الوعورة ما فيها.

وقد عاب بعض الباحثين على كعب مطلع القصيدة الذي أطل فيه، ووصفه المطول للناقّة، الذي يعد من الأشياء المحلية التي تتعلق بالبادية ولا يتذوقها إلا الأعراب، وأقول إن إطالة الشاعر في المقدمة كانت عرفًا أو تقليدًا. وهذه المقدمة تشبه غيرها من المقدمات التي توجت بها المعلقات وكثير من أشعار الجاهلية وظلت تقليدًا في الإسلام. وقد ذكرنا أسباب الإطالة فيها، وهذه المقدمة التي نقدها المحدثون نالت اهتمام رجال الأدب واللغة، ويتبين مما ذكره الدكتور زكي مبارك أنه كان يقارن بين مديح كعب والأعشى وحسان بمديح الصوفية الروحي الذي هاموا فيه، فأشبهه الغزل، والمتغزل فيه رسول الله ﷺ، وهذه مقارنة غير عادلة، فليست هذه المدائح من هذا النوع ولم تظهر على عهدهم الصوفية،

(١) المدائح النبوية ص ٣٨.

وليسوا من رجالها، وهو اتجاه ظهر في الأدب متأثراً بالإسلام والنصرانية واليهودية
والفلسفة والثقافات الوافدة من فارس والهند واليونان، فالتصوف متعدد الروافد، وليس
التقشف والزهد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون من هذا النوع المذهبي، وإن
كان التقشف والزهد من مناسك التصوف.

وليس لنا إلا أن نقول إن قصيدة كعب بن زهير رضى الله عنه من القصائد التي يفخر
بها الشعر العربي، وتعد معلماً بارزاً فيه، وتضاف إلى غيرها من الأعمال الأدبية الخالدة.

* * * * *

الفخر

الفخر جنس من المدح ، ولكنه موجه إلى الذات ما يتصل بها وما تنسب إليه كالعشيرة والقبيلة والمدينة والعصبة التي ينتمي إليها ، ويفخر بماله أو لقومه من فضائل ، وقد ظهر هذا الفن في العصر الجاهلي على أيدي شعراء القبائل التي لها عز ومجد وكثرة العدد ، والشعراء من ذوي السيادة والمجد .

كانت النغرة القبلية أعلى الأصوات في الفخر ، فقد كان العرب يتعصبون لقبائلهم تعصباً مغالياً ، فجعلوا القبيلة في منزلة الأب والأم والإله ، فلم يعرفوا نسباً ولا منتسباً سواها ، وقد جسدت معلقة عمر بن كلثوم تطرف العرب في حب القبيلة .

وقد كانت الحمية القبلية سبباً في حروب كثيرة وعداوات ، وحالت دون قيام دولة جامعة وأحببت المحاولات التي قام بها بعض سادة العرب وملوكهم في إقامة دولة ولم تسكن العصبية القبلية إلا في عصر النبوة ، فقد جمع الله تعالى قبائل العرب المسلمة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وجمعت بينهم إخوة الدين ، لكنها رفعت رأسها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسكنها أبو بكر رضي الله عنه ، ثم عادت في خلافة عثمان رضي الله عنه ، ومازالت تطل برأسها بين الدول العربية .

وتحول الفخر من الفخر بأمجاد القبيلة وحروبها وبطشها وظلمها إلى الفخر بالإسلام والجهاد فيه وحسن البلاء ، ونصرة النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ، والكرم وحسن الخلق والشجاعة والإقدام قال حسان يفخر بقومه :

وَكُنَّا مَلُوكَ النَّاسِ ، قَبْلَ مُحَمَّدٍ	فلما أتى الإسلام ، كان لنا الفضل ^(١)
وَأَكْرَمَنَا اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ	إلهَ بَأَيَّامٍ مَضَتْ مَا لَهَا شَكْلُ ^(٢)
بِنَصْرِ الْإِلَهِ لِلنَّبِيِّ وَدِينِهِ	وَأَكْرَمَنَا بِاسْمِ مَضَى مَا لَهُ مِثْلُ ^(٣)
أُولَئِكَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ بِأَسْرِهِمْ	وليسَ على معروفهم أبداً قَفْلُ ^(٤)

(1) قوله كان لنا الفضل إذ آووا محمد وكتبتوا أنصاره وهذا فضل لا فضل بعده .

(2) قوله ما لها شكل أي ما لها مثل .

(3) وأكرمنا : أي لم يبخل علينا بمحبته .

(4) قوله وليس على معروفهم أبداً قفل يقول أن باب معروفهم مفتوح لكل عاف .

يَرْبُونَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٍ مِّنْ مَّضَى إِذَا اخْتَبَطُوا لَمْ يُفَحِّشُوا فِي نَدِيهِمْ
وَحَامِلُهُمْ وَافٍ بِكُلِّ حِمَالَةٍ وَجَارُهُمْ فِيهِمْ بَعْلِيَاءَ بَيْتَةٍ
وَقَائِلُهُمْ بِالْحَقِّ أَوَّلُ قَائِلٍ إِذَا حَارَبُوا، أَوْ سَالَمُوا لَمْ يُشَبِّهُوا
وَمِنَّا أَمِينُ الْمُسْلِمِينَ حَيَاتُهُ وَمَنْ غَسَلَتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرُّسُلُ^(٧)
فَمَا عُدَّ مِنْ خَيْرٍ ، فَقَوْمِي لَهُ أَهْلُ^(١)
وَلَيْسَ عَلَى سَوَالِهِمْ عِنْدَهُمْ بَخْلٌ^(٢)
تَحْمَلُ ، لَا غُرْمَ عَلَيْهِ وَلَا خَدَلٌ^(٣)
لَهُ مَا ثَوَىٰ فِينَا الْكَرَامَةُ الْبَذَلُ^(٤)
فَحَكْمُهُمْ عَدْلٌ ، وَقَوْلُهُمْ فَصْلٌ^(٥)
فَحَرْبُهُمْ خَوْفٌ ، وَسَلْمُهُمْ سَهْلٌ^(٦)
وَمَنْ غَسَلَتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرُّسُلُ^(٧)

كانت للأتصار مآثر في الجاهلية فاضلوا فيها الناس ووصلها حسان بمالهم من فضائل
في الإسلام ، وافتخر برجلين من الأتصار هما سعد بن معاذ وحنظلة بن أبي عامر^(٨) . وقال
حسان مفتخرا بيوم بدر ومعيرا قريشاً^(٨) :

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصر غير محدود
مستعصمين بحبل غير منجذم مستحكم من حبال الله ممدود

وقد كان للأتصار دورهم في بدر وما بعدها ، فقد تكثر بهم المهاجرون ، وقد أعلنوا قبل
بدر أنهم يؤيدون الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسيكون معه على عدوه ، وسلموه مقادة
أمرهم ، وبايعوه على الجهاد ، وخاضوا حرب بدر من أجل المهاجرين ، فلم تك لهم
مواجهات مع قريش ، وقد سجل حسان رضي الله عنه الوقائع وما بها من أحداث ، وذكر
بعض قتلى المشركين في بعضها وتأكيذا لقوله ، وقد خص الأتصار بالنصر في المعركة ،
وكان الصراع كان بين قبيلتين ، فما زالت للقبليّة أثر في نفسه ، فذكر الأوس والخزرج في
بعض قصائده وقد ذكرهما ليجعلهما نموذجا يقتدى به في الإسلام ، فقد رفع منهما في شعر
ونسب النصر لهما مرارا ليباهي بهما العرب ، ويخص من بين الأتصار عشيرته بنسب
النجار ، وهم أخوال النبي صلى الله عليه وسلم .

(1) يربون : ينمون . من مضى : من أسلافهم .

(2) اختبطوا : قصدوا . الندي : المجلس .

(3) الحماله : ما يتحملة الإنسان من غرم في دية .

(4) العلياء : الموضع المرتفع وقوله ما ثوى فينا : أي مدة إقامته بيننا .

(5) يقولون الحق ويحكمون بالعدل .

(6) لم يشبهوا : أي لا يشبههم أحد .

(7) أمين المسلمين : سعد بن معاذ الأوسي . غسيل الملائكة : حنظلة بن أبي عامر الذي قتل في يوم أحد .

(8) الديوان ص ٥٥ .

وقال حسان رضي الله عنه في هزيمة قريش ببدر وضحاياها يفخر بقومه:

بنو الأوس الغطاريف وأزرتها	بنو النجار في الدين الصليب
فغادرنا أبا جهل صريعاً	وعتبة قد تركنا بالحبوب
وشيبة قد تركنا في رجال	ذوي نسب إذا نسبوا حسيب
يناديهم رسول الله لما	قذفناهم كباكب في القلب
ألم تجدوا كلامي كان حقاً	وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا	صدقك وكنت ذا رأي مصيب

وقد منيت قريش بخسائر جسيمة صار للإسلام شأن بين العرب ، وظهر كقوة عسكرية جعلتهم يحفظون حرمة المسلمين ويتوددون إلى نبي الإسلام ويبادون إلى مصالحته. وكان للمصير الذي انتهى إليه كبار الملأ من قريش أثر في نفوس المشركين، فقد كان القلب (البئر) مصيرهم المفجع الذي تألموا منه كثيراً ، وقد أورثهم هذا شأنًا وغلا ، فأعدوا العدة لنثار من المسلمين ، فكان يوم أحد الذي أصيب فيه المسلمون ، ولكن لم تك مصيبتهم فيه كمصيبة المشركين يوم بدر .

لقد طور حسان رضي الله عنه الفخر في الإسلام؛ فحولته من الحمية القبلية والدعاء بدعواهم إلى الحمية الدينية والولاية في الإسلام والإخوة الدينية ، ولم يك ذكر القبيلة في شعر حسان من دعو الجاهلية أو عصبية بل كان من قبيل ذكر فضائلها في الدين وبلاتها ، لتكون نموذجاً يحتذى به ، وقد ترك حسان في فخره عداوات الجاهلية فلم يذكر شيئاً في فخره مما كان لقومه على الأوس في الجاهلية أو على غيرهم ، فقد كانت هناك دماء بين الأوس والخزرج - قبيلة حسان - قبيل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لحسان فيها شعر يهاجي فيه الأوس وشاعرها قيس بن الخطيم ، ولم يعير أحداً من المسلمين بمذمه في جاهلية ولا إسلام.

وقد تطور عن الفخر المفاخرة، وهي أن يفاخر الشاعر بشعره شاعراً آخر أو يفاخر الخطيب خطيباً آخر، فيذكر ما لقومه وذلك في ملأ من شيعتهما .

وقد كان فن المفاخرة أو المنافرة شائعاً في الجاهلية ، فقد كان بعض سادة القبائل يتنازعون الرياسة فيها ، فيقضى بينهم حكم ، أو أن تقوم مخاصمة بين سيدين من العرب ، فيستدعي كل واحد منهم من يشايعه من الشعراء ، فيمدح الشاعر صاحبه وماله من فضل ويعرض بالآخر ، وذلك في حضرة العشيرة أو رجال منها ، فتتشأ الخصومات ، وقد تقوم الحروب وتدوم طويلاً ، يستدعي الطرفان حكماً "أو محكماً"، وكانوا يبذلون في ذلك عطايا وذبائح ، وقد يتحملها الحكم ليصلح بين الطرفين ، ويراعي في حكومته (قضائه) أن

بحقق التراضي بينهما والنصفة ، ولا ينصر أحدهما على الآخر؛ لنلا تقوم خصومة بينهما؛ فيقطع الخلاف بمدح كل سيد منهما بما فيه دون أن ينتقص من الآخر أو يفاضله عليه ويمدح الآخر بما فيه ، ويسوي بينهما في الفضائل، ويجعلهما كفرسي الرهان المتكافئين في السبق ويذبح الذبائح ويطعم الجمع، ويعرف الحكم في أحياء العرب بصنيعه هذا ولا تنقض حكومته في القضايا.

وقد ارتضى وفد تميم بما قاله خطيب النبي صلى الله عليه وسلم وشاعره ففضوا بالفوز، واعترفوا بقوة حجة النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا^(١).

وقد أتى وفد بني تميم ، وفاخروا النبي صلى الله عليه وسلم بمآلهم من مجد في العرب ، ومن فيهم من الملوك ، وذكروا انتصاراتهم وشراساتهم في القتال ، وما أصابوه من غيرهم وقتلهم في العرب ، وفخروا بكرمهم وما يصنعونه بالأضياف وسنى القحط. وأنهم أصحاب السيادة وهم رؤساء الناس. وقد كان بنو تميم من أشرف العرب ، وأصحاب بأس شديد وشراسة في القتال ، وكانت العرب تهابهم لشجاعتهم وكثرتهم .

وكان في وفد تميم عطار بن حاجب بن زُرارة في جماعة من أشرف بني تميم منهم الأقرع بن حابس ، والزبرقان ، وعمرو بن الأهم ، والحباب بن يزيد، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته وكانت إلى جوار المسجد، فقالوا اخرج إلينا يا محمد ، فتأذى منهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهم الذين نزلت فيهم سورة الحجرات^(٢). وقيل إن عددهم سبعون أو ثمانون رجلاً.

وروى أنهم رفعوا أصواتهم من وراء الحجرات ، ونادوا رسول الله مجرداً من لقبه وقالوا: يا محمد، قد جننا لنفاخرك، وقد جننا بشاعرنا وخطيبنا، وقد تأذى من أصواتهم وسوء خطابهم، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم فجلس، فقام الأقرع بن حابس وكانت فيه فظاظة البداوة فقال : والله — إن مدحي لزين وإن ذمي لشين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذلك الله"، فقالوا : إنا أكرم العرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكرم منكم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام "، فهو نبي ابن نبي ابن نبي ولم يذكر نفسه صلى الله عليه وسلم تواضعاً فهو أكرم النسب ، ولم يذكر نسبه وعلوه

(1) ارجع إلى: الحكم القبلي في العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢٠٠٢م ص ١٢٥.

(2) الحجرات : المراد بها مسكن رسول الله ﷺ ، وكانت إلى جوار المسجد ولها باب يؤدي إليه . وقد نزلت سورة الحجرات في وفد تميم.

على أهل زمانه^(١).

فقالوا : يا محمد ، جنناك نفاخرُكَ فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : " قد أذنت لخطيبكم فليقل ، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، وجلس الناس فقام عطار بن حاجب ، فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضلُ والمَن ، وهو أهله ، الذي جعلنا مَلوكاً ووهب لنا أموالاً عظيماً نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق ، وأكثرَ عدداً ، وأيسرَ عدَّةً ، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فأخرنا فليعدَّ مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس^(٢).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس (من بنى الحرث بن الخزرج) : " قُمْ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ " ، فقام ثابت فقال : الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسَّعَ كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً ، وأصدقَه حديثاً ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، واثمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أكرم الناس حسباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخيرُ الناس فعلاً ، ثم كان أول الخلق إجابته واستجاب الله حين دعاه رسول الله نحن ، فنحن أنصار الله ، ووزراء رسوله ؛ نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي والمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم . فقام الزبرقان بن بدر ، فقال :

نَحْنُ الْكَرَامُ فَلَا حَيَّ يُعَادِلُنَا	مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ ^(٣)
وَكَمْ قَسَرْتَنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ	عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعَزْ يُتَبَّعُ
وَنَحْنُ نَطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مَطْعَمَنَا	مِنَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُوْتَسِ الْقَرْعُ ^(٤)
بِمَا تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَائِهِمْ	مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هَوِيَّا ثُمَّ نَصْطَنِعُ ^(٥)

(1) ارجع إلى الأغاني جـ ٤/٧ ، ٨ .

(2) السيرة ، ٤ / ٢٢٤ ، والأغاني ٨/٤ .

(3) البيع : مواضع الصلوات والعبادات ، واحدها بيعة ، ومنه قوله تعالى : (لهدمت صوامع وبيع) .

(4) القرع : سحاب رقيق يكون في الخريف ، واحده قرعة ، بفتح القاف والزاي فيهما .

(5) هويّا : سراعاً ، يريد : يقصدونهم للضيافة ، وسراة أعلى الشيء ويريد عليه القوم جمعها : سروات .

لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أَنْزَلُوا شَبِعُوا^(١)
إِلَّا اسْتَقَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يَقْتَطِعُ
فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ
إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ^(٢)

فَنَنْحَرُ الْكُومَ عُبْطاً فِي أُرُومَتِنَا
فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيِّ نَفَاخِرِهِمْ
فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فِي ذَلِكَ نَعْرِفُهُ
إِنَّا أَبْيَتَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ

وكان حسان رضي الله عنه غائباً ، فبعث إليه رسول الله ﷺ ، قال حسان : جئني رسوله ، فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى رسول الله ﷺ ، وأنا أقول^(٣) :

عَلَى أَنْفٍ رَاضٍ مِنْ مَعْدٍ وَرَاغِمٍ
بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
بِجَابِيَةِ الْجَوْلَانِ وَسَطِ الْأَعَاظِمِ
دَى وَجَاهِ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالِ الْعِظَائِمِ ؟

مَتَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ حَلَّ وَسَطْنَا
مَتَعْنَاهُ لَمَّا حَلَّ بَيْنَ بَيُوتِنَا
بَبِيْتِ حَرِيدِ عِزِّهِ وَثَرَاوُهُ
هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودْدُ الْعَوْدُ وَالنَّ

قال حسان : فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم ؛ فقال ما قال عرضت في قوله ، وقلت على نحو ما قال ، فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : " قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال "

قال : فقام حسان ؛ فقال :

إِنَّ الدُّوَابَّ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ بَيَّتُوا سُنَّةَ النَّاسِ تَتَّبِعُ^(٤)

(1) الكوم : جمع كوما ، وهي الناقة العظيمة السنام ، وعبطاً : أي من غير علة ، نقول مات فلان عبطة ، واعتبط فلان - بالبناء للمجهول - إذا مات شاباً أو من غير علة ، والأرومة : الأصل .

(2) قال ابن هشام : يروى "منا الملوك وفيها تقسم الرُبْع" ويروى "من كل أرض هوانا ثم متبع" رواه لي بعض بني تميم ، وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها للزبرقان . كان من عادتهم في الجاهلية إذا غنموا أن يعطوا الرئيس ربع الغنيمة ، ويسمى المربع ، والربع أيضاً ، وهذا كناية عن أنهم الرؤساء والسادة . السيرة جـ ٢٢٦/٤ .

(3) ستأتي الأبيات كاملة .

(4) الدواب : الأعالي ، واحدتها ذوابة ، وأراد ههنا السادة .

يَرْضَى بِهِمْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ
سَجِيَّةً تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ
إِنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَازَ سَبَقُهُمْ
أَعْفَةٌ ذَكَرَتْ فِي الْوَحْيِ عَفَّتُهُمْ
لَا يَبْخُلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِمْ
إِذَا نَصَبْنَا لَحِي لَمْ نَدْبْ لَهُمْ
نَسْمُو إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْنا مَخَالِبَهَا
لَا يَقْفَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ
كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعْيِ وَالْمَوْتِ مُكْتَنِعٌ
خَذَ مِنْهُمْ مَا أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا
فَإِنْ فِي حَرْبِهِمْ فَاتَرَكَ عَدَاوَتَهُمْ

تَقْوَى إِلَهِهِ وَكُلُّ الْخَيْرِ يَصْنَعُ^(١)
أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاءِهِمْ نَفَعُوا
إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِدْعُ^(٢)
فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَدْنَى سَبَقِهِمْ تَبِعُ
عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوْهُونَ مَا رَفَعُوا^(٣)
أَوْ وَازَنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالْأَدْنَى مَتَعُوا^(٤)
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُرْدِيهِمْ طَمَعُ^(٥)
وَلَا يَمْسُهُمْ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ^(٦)
كَمَا يَدْبُ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ الذَّرْعُ^(٧)
إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا^(٨)
وَإِنْ أَصِيبُوا فَلَا خُورٌ وَلَا هُلَعُ^(٩)
أَسَدٌ بِحَلِيَّةٍ فِي أَرْسَاعِهَا فَدَعُ^(١٠)
وَلَا يَكُنْ هَمُّكَ الْأَمْرَ الَّذِي مَتَعُوا^(١١)
شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ السُّمُّ وَالسَّلْعُ^(١٢)

- (1) جاء في رواية : يرضى بها كل من كانت سريرته : تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا .
- (2) السجية : الطبيعة والخلقة .
- (3) أوهت : أضعفت وهدمت .
- (4) متعوا : زادوا وظهروا عليهم ، تقول : متع النهار ، إذا ارتفع .
- (5) لا يطبعون : أي لا يتدنسون .
- (6) الطبع — بفتح الطاء المهملة والباء جميعاً — الدنس .
- (7) نصبنا : أظهرنا لهم العداوة ولم نسرهما في أنفسنا ، والذرع — بفتح الحاء — ولد البقرة الوحشية .
- (8) الزعانف : أطراف الناس وأتباعهم ، وخشعة : خضعوا وتذللوا .
- (9) الخور : جمع أخور ، وهو الضعيف ، والهلع : جمع هلوع ، وهو الجبان الخائف .
- (10) الموت مكتنع : دان قريب ، تقول : اكتنع منه ؛ إذا دنا ، وحيلة : اسم موضع تنسب إليه الأسود ، قال أبو ذر : "يروى بالباء المنقوطة بواحدة من أسفل ، ويروى بالياء المنقوطة باثنتين من أسفل وهو الصواب ، قال ياقوت : "حلية — بالفتح ثم السكون وباء خفيفة وهاء : مأسدة بناحية اليمن ، قال بعضهم : كَأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ مِنْكَ مُدْرِبًا بِحَلِيَّةٍ مَشْبُوحِ الذَّرَاعَيْنِ مِهْزَعًا وقيل : حيلة : وادبين أعيار وعليب ... وقيل : هو من أرض اليمن ، وقيل : موضع بنواحي الطائف ، الأرساغ : جمع رسخ ، وهو موضع مربوط القيد ، وفدع : اعوجاج إلي ناحية . السيرة ٢٨٨/٤ .
- (11) عفوا : أي من غير طلب ولا مشقة .
- (12) السلع : نبات مسموم .

أَكْرَمَ بِقَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ شِيعَتَهُمْ
أَهْدَى لَهُمْ مَدْحَتِي قَلْبَ يُوَازِرِهِ
فَاتَّبَعُوا أَفْضَلَ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ

إِذَا تَفَاوَتَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْبَعُ
فِيمَا أَحَبُّ لِسَانِ خَانَكَ صَنَعُ (١)
إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جَدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا (٢)

مدح حسان رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من مسلمي قومه؛ فهم
أعالي بني فهر وإخوتهم الأنصار، وهؤلاء قد بينوا للناس أمورا عظيمة جديرة بالاتباع،
فقد وضعوا منها ما يتبع في الحياة، ويرضى به كل مؤمن وداعية خير، وهم شجعان إذا
حاربوا أصابوا عدوهم وأضروا به، وإن أرادوا النفع لحلفائهم نفعوهم.

وهذه الأعمال صفات فيهم وسجايا متمكنة منهم، وليست ادعاء فخر الخلق ما يدعيه
الإنسان في نفسه، وليس فيه يخادع به الناس. فإن كان في الناس سباقون بعدهم في هذه
الخلق فهم أئمة الناس في هذه الخلق، فهم أصحاب فضيلة وأصحاب الحرب وليس من
ورائهما فضل. ولا يستطيع الناس أن يسدوا أو يصلحوا ما أضعفت أيديهم، يريد أن الناس
لا تقدر على دفعهم ولا يستطيعون أن يهدموا ما فعلوه وأصلحوه، وإن سابعوا الناس يوما
سبقوهم، وإن فاحروا الناس بمالهم من سجايا وكرم غلبوهم.

وقد مدحهم الله تعالى بالعفة، فلا يتدنسون ولا يرغبون في معصية، ويجتنبون
الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا يبخلون على جار بما عندهم، ولا يمسه سوء من
أحد. وإذا أظهرنا لقوم العداوة لم نداهنهم أو نراوغهم بل أظهرناهم لهم. ونحن نتطلع
للحرب ونظهر لها، إذا أطراف الناس وأتباعهم خضعوا وتذللوا خوفا، يريد يثبتون ولا
يفرون، إذا خاف الناس وذللوا. ولا يشمتون بعدوهم إذا هزموه، وإن أصيبوا لا يجزعون
ويجبنون. كأنهم في الحرب أسد في وادي حلية مقيدة وقد ثارت بواديها تتطلب الفكك،
وقد أحاط الموت بها يصف شراستهم وهم يواجهون الموت في المعارك بالأسد التي
اجتمعت في واديها وقد هيجها قيدها. فخذ منهم ما منوا عليك به ولا تطلب منهم ما منعوك
وهم غاضبون. ولا يواجههم بعداوة فإن حربهم شر شديد يقتل. فهم أكرم الناس برسول
الله ﷺ، وهم شيعته إذا ضلت الناس واختلفت. وأهدى لهم مديحي قلب مفتون بهم
ويؤازره لسان مغوه يحسن ما يقوله ويحكمه. فهم أفضل أحياء العرب كلهم إذا افتخروا
بجد أو بهزل.

وقد افتخر حسان ﷺ بمكارم الأخلاق وما من الله تعالى على المؤمنين من فضل وخلق

(1) صنع — بفتح الصاد والنون جميعاً — صانع ماهر يتقن ما يصنعه ويحسن عمله.

(2) شمعوا: هزلوا، وأصيل الشمع الطرب واللهو، ومنه قولهم: جارية شموع؛ إذا كانت كثيرة الطرب.

وما يتمتع به المسلمون من شجاعة وإقدام وصبر في القتال وعفتهم وحسن خلقهم ولم يفخر بمظالم الجاهلية، بل هم سادة الناس بخلقهم، وأئمتهم بفعالهم ودعوتهم، وكل الناس تبع لهم في الخير، ولن يسبقهم إليه أحد أو يعلو عليهم .

وتعد هذه القصيدة أقوى قصائد المديح في شعر حسان ، فقد قارع بها شاعر تميم ومن معه ، فقد مدح الزبرقان بن بدر قومه وفخر بهم ، فذكر كرمهم وسيادتهم، وافتخر بغارات قومه ونهبهم وقتلهم ، وافتخر بخسائرهم وتعالى على الناس بفخره، ولكن حسانا افتخر بإخوانه من المهاجرين والأنصار الذين وضعوا للناس منهجا يعمل به كل المؤمنين ، ومدحهم أحسان أخلاقهم ، وما هم عليه من خلق وسلوك ، ومدح عفتهم بيد أن الأول لم يمدح خلقا ولا سلوكا ، فمدح قومه مدحا حيا. ثم افتخر بمكان النبي ﷺ فيهم ونزوله عليه ونصرتهم إياه، وطاعتهم له ، وجهادهم معه المشركين ، ومدحهم في الحرب وذكر فعالهم فيها وافتخر بتشييعهم لرسول الله ﷺ ومولاته مجمع في مدحه وفخره بين الحسي والمعنوي ، ولم يفخر بشائبة من شوائب الجاهلية ، فترك المظالم والعداوات والقتل والنهب، والغارة. وجعل مدحته هدية للمسلمين جميعا من قلب يجبههم ولسان زرب يؤازره. وقد علق الدكتور زكي مبارك على هذه القصيدة وابدأ إعجابه بها ، ورأى أنها أقوى مدائح حسان ، ولكنه جعلها ملاحاة ومخاصمة قارع بها خصومة ، وأنه كان يتخذ من مدح الرسول ومدح أهله سناداً لما عمد إليه من المقارعة والملاحاة، وأزیده أنها هذا كان في الحق فلم يستعن برسول الله صلى الله عليه وسلم في باطل، فقد تبنى حسان رضي الله عنه ما الصدق في شعره بعد إسلامه، قال في ذلك^(١):

وإن أشعر بيت أنت قائلة بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

ولكن الدكتور مبارك عدل عما صدر به كتابه من عزمه على إنصاف دينه ورجاله، فقد قال: " وهذه القصيدة تمجيد لأتباع الرسول، والشاعر مدفوع إليها بقوة العصبية، وليس من روح الدين إلا إشارته إلى وحي القلب، إذ يقول :

أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره فيما يحب لسان حائك صنع^(٢)

وهذا القول فيه نظر، فالرجل مدح ما لقومه في الدين، وذكر فضائلهم، ليقابل به ما ذكر شاعر تميم عن قومه ، ولم تك هنالك ملاحاة أو تهاجي ؛ بل مناظرة بين طرفين ؛ الهدف منها أن يعرف كل طرف منهما ما للآخر من فضل ، فلما كان كثير الفضل للإسلام اعترفوا

(1) ديوان حسان ص ٥٥

(2) المدائح النبوية ، الدكتور زكي مبارك ص ٣٣

له بذلك ، قال أحدهم لخطيبه : أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأسلموا ، ولم يحمل شيء من الشعر على الهجاء ، فالشاعرا لم يتهاجا ولم يعرض أحد الخطيبين بالآخر ، ولم يختلف أسلوب حسان في الفخر عما قاله في قصائده الأخرى التي أخلص المدح فيها لقومه الأتصار فمدح ما لهم في الإسلام ، وترك جاهليتهم التي رجعوا عنها في الإسلام وتابوا منها .

وكان ذكر القبيلة في المدح والفخر غير مذموم بل ذم الإسلام الدعاء بدعوى الجاهلية فيما شجر بين الناس من خلاف — لأنها تجلب العداوة وتسفك الدماء ولا يستعدي الرجل قومه على آخرين في الإسلام ، وليس شعر حسان من ذلك ، وقد كان النبي ﷺ يفخر بنسبه في قريش ، ويجعل لكل قبيلة لواء يعقده لرجل منهم ، ويفاضل قبيلة على أخرى في الدين والفضل وحسن البلاء والبذل والجهد ، فالقبيلة كانت جزءا من المجتمع العربي ، وقد استمع لهجاء حسان قريشا وافتخاره بقومه الأتصار الذين قتلوا رعوسا من قريش يوم بدر . ولم يمنعه ﷺ من ذلك ، ولم ينتصر لقبيلته قريش فلحمة الدين كانت أقوى في الدين من لحمة القبيلة ، فقد قتل رجال من المسلمين رجالا من ذويهم مشركين ، وكانت العاطفة الدينية من وراء قصائد حسان فقد جاش صدره في المواقف بقصائد كثير كلها في الدين . وحسان القائل مفتخرا بقومه^(١) :

الله أكرمنا بنصر نبيه	وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعز نبيه وكتابه	وأعز بالضرب والإقدام
في كل معترك تطير سيوفنا	فيه الجماجم عن فراخ الهام
ينتابنا جبريل في أبياتنا	بفرائض الإسلام والأحكام

وجاء في رواية أخرى رواها بن هشام أن الزبرقان بن بدر لما قدم رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال :

بأننا فروع الناس في كل موطن	وأن ليس في أرض الحجاز كدارم ^(٢)
وأنا ندود المعلمين إذا انتخوا	وتضرب رأس الأصيل المتفاقم ^(٣)

(١) الديوان ص ٢٣٠ .

(٢) دارم : من بني تميم .

(٣) المعلمين : الذين يعلمون أنفسهم بعلامة يعرفون بها ليطلع الناس على بلانهم في الحروب ، ويروى في مكانه "العالمين" ، وانتخوا : تكبروا وأعجبوا بأنفسهم ، والأصيل : المتكبر الذي يلوي عنقه يمينا وشمالا ، والمتفاقم : المتعظم ، وقد قالوا : تفاقم الخطب ، إذا اشتد وعظم وصعب الخلاص منه .

وَأَنَّ لَنَا الْمَرْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ
فَقَامَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ فَأَجَابَهُ فَقَالَ :
هَلِ الْمَجْدُ إِلَّا السُّؤُودُ الْعَوْدُ وَالنَّدَى
نَصْرَتَنَا وَأَوَيْتَنَا النَّبِيُّ مُحَمَّدًا
بَحْيٍ حَرِيدٍ أَصْلُهُ وَثَرَاؤُهُ
نَصْرَتَاهُ لَمَّا حَلَّ وَسَطَ دِيَارِنَا
جَعَلْنَا بَنِينَ دُونَهُ وَبَنَاتِنَا
وَنَحْنُ ضَرْبَتَا النَّاسِ حَتَّى تَتَابَعُوا
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمِهَا
بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرَكُمْ
هَبِلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ
فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحِقْنِ دِمَائِكُمْ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاً وَأَسْلِمُوا

نُغِيرُ بِنَجْدٍ أَوْ بِأَرْضِ الْأَعَاجِمِ^(١)
وَجَاءَ الْمُلُوكُ وَاحْتِمَالُ الْعِظَائِمِ^(٢)
عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍ وَرَاغِمٍ
بِجَابِيَةِ الْجَوْلَانِ وَسَطِ الْأَعَاجِمِ^(٣)
بِأَسْتِيفِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ
وَطَبْنَا لَهُ نَفْسًا بِفِيءِ الْمَغَانِمِ
عَلَى دِينِهِ بِالْمَرْهَقَاتِ الصَّوَارِمِ^(٤)
وَلَدْنَا نَبِيَّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ^(٥)
يَعُودُ وَبِالْأَعْدَاءِ ذِكْرُ الْمَكَارِمِ^(٦)
لَنَا خَوْلٌ مَا بَيْنَ ظَنَرٍ وَخَادِمٍ^(٧)
وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تَقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
وَلَا تَلْبِسُوا زِيَا كَزِي الْأَعَاجِمِ^(٨)

لقد قدم شاعر تميم ما لديه من مفاخر لقومه، وهي لا تختلف عما ذكره الزبرقان بن بدر في قصيدته الأولى، فقد أعاد صياغتها غير أنه ترك الكرم والبيع التي عبدوا الله فيها، وذكر الحرب، ولا يستدعي الموقف ذكر الحرب؛ فقد قدموا ليصالحوا النبي ﷺ ويسلموا وهم أهل بادية خشن جلاف أساءوا الدخول على النبي صلى الله عليه وسلم ، فنادوه من

(1) المربع : ربع الغنيمة ، وهو حظ الرئيس، ويكنى بذلك عن أنهم رؤساء ، ونجد : أراد به ما ارتفع وعلو من الأرض.

(2) العود : القديم، والذي يتكرر على الزمان، والندى : الكرم والعطاء ، والعظائم : جمع عظيمة .

(3) حى حريد - بالحاء المهملة - منفرد لا يختلط بغيره لعزته ، وجابية الجولان : موضع بالشام ، وأصل الجابية الحوض الكبير وهو الذي يسميه الناس الصهريج .

(4) المرهقات الصوارم : أراد السيوف المحددة القاطعة .

(5) ولدنا نبي الخير ، ذلك لأن أم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ كانت من بني النجار، فهم أخواله رضى الله عنهم.

(6) الوبال : الهلاك .

(7) هبلتم : فقدتم، ونقول : هبلته أمه؛ تريد الدعاء عليه بالفقدان، والظنر - بكسر فسكون - التي ترضع ولد غيرها، وهي تأخذ على ذلك أجراً، وأصله الناقة التي تعطف على ولد غيرها، والخادم: يقال للذكر والأنثى ، وخول : عطية من العبيد.

(8) الند - ومثله النديد - هو المثل والشبيه .

وراء الحجرات باسمه دون لقبه، ثم افتخر رجال منهم بمالهم ولقومهم، وقد تنكبهم الكبر على الناس والتعالى، وذكروا شيئا من مظالم الجاهلية، كالغارة والنهب وأخذ السيد ربع الغنيمة وهو ما أبطله الإسلام. وقد كال حسان رضي الله عنه لهم الصاع صاعين وهدم ما فخروا به من كثرة العدد ومظالم الجاهلية. فنقض رضي الله عنه قولهم، فقال: إن المجد في السيادة والكرم وسلطان الملوك ومواجهة الكوارث، وليس في الغارة، والنهب والفتك والظلم بل المجد في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم جعلوا أنفسهم دروعا له تقيه من الأعداء، وهذا كان من الأنصار في الإسلام، وزاد عليه أنهم أخوال النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلا تفخروا يا بني دارم فقط يكون فخركم وبالا عليكم، وكيف تفخرون علينا وأنتم عبيد إحساننا وهباتنا، فإن كنتم جنتم حقنا لدمائكم وأموالكم، فأسلموا قبل أن تقتلوا وتصبح أموالكم غنيمة، ولا تتعالوا كبرا وعمى وغطرسة كالأعاجم. ولا شك أن ما عرضه حسان أخصم، وأحج مما فاخر به شاعرهم حسان، وقد ذكرت المصادر أنهم أنصفوا النبي ﷺ من أنفسهم. قال ابن إسحق: "فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله قال الأقرع بن حابس: وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له^(١)؛ لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا"، وسلموا بحجة النبي ﷺ، وكان الحكم في مثل هذه المنافرات محايدا من غير الفريقين، ففضوا هم أنفسهم للنبي ﷺ فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم^(٢). وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم في ظهرهم^(٣)، وكان أصغرهم سناً، فقال قيس بن عاصم، وكان يبغض عمرو بن الأهتم: يا رسول الله، إنه قد كان رجل منا في رحالنا، وهو غلام حدث، وأزرى به، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطى القوم، فقال عمرو بن الأهتم — حين بلغه أن قيساً قال ذلك — يهجوه^(٤):

ظَلَلْتُ مُقْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ تَشْتَمُنِي عِنْدَ الرَّسُولِ فَلَمْ تَصْدُقْ وَلَمْ تُصِبْ^(٥)
سُدَّتْكُمْ سُدُوداً رَهْواً وَسُودُودٌ كُمْ بَادٍ نَوَاجِذُهُ مُقْبِعٌ عَلَى الذَّنْبِ^(٦)

(١) لمؤتى له — بضم الميم وفتح الهمزة وتشديد التاء — أى: أنه موفق، وتقول أيضاً: آتاه الشيء، إذا وافقه.

(٢) الجوائز: العطايا، واحدها جائزة.

(٣) ظهرهم: إبلهم.

(٤) السيرة جـ ٢٣٢/٤.

(٥) الهلب والهلبياء: شعر الذئب، وقد استعاره ههنا للإنسان.

(٦) رهوا — بالراء المهملة — متسعاً، والنواجذ: الأسنان، وأحداها ناجذ، قال الحملي:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَاتٍ =

ولم تجد المفاخرة مكانا لها في الإسلام ، بعد أن دخل المشركون في دين الله ، غير ما ابتدر إليه الجاهليون ، وما قاموا به قبل أن يسلموا ، وذلك لما في المفاخرة من تعالٍ وكبر ومخاصمة ومفاضلة بين القبائل مما يوقع بينهم الضغينة والتحاسد ، ويجلب القتال . ولكن الفخر ظل في موضعه ، لأن الشاعر كان يفخر بذاته وقومه دون أن يعقد مقارنة مع أحد ، فيذكر فضائل نفسه وقومه وحزبه ومذهبه وشيعته . وقد ترك المفتخر مظالم الجاهلية وشينها ، وما حرمه الإسلام لئلا يكون سبّة يعيره الناس به ويطعنون في دينه ، وكانوا يسمون ذكر مظالم الجاهلية ردة وتبدي (ردة عن الإسلام وتخلق بأخلاق البادية) ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهي عن التبدي وهو ترك الحضرة والعودة إلى البادية ، فالحضر أحفظ لدينهم ومعاشهم .

* * * * *

= ومقع على الذنب : هو من قولهم : ألقى الكلب ؛ إذا جلس على أليتيه وضم ساقيه وأمر ذنبه خلفه .
السيرة جـ ٤ / ٢٣٣ .

الرثاء

الرثاء : هو التفجع على الميت والتحزن عليه وبكاء أفضاله والتحسر على فقدده ، وذكر محاسنه عقب موته، ويعد الرثاء مدحاً بيد أنه يكون للميت .
وهو غرض قديم بدأه الجاهليون ، فقد كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية ، فيثيرون القبائل لتأخذ بثأرهم ، وكانوا يمجدون أعمالهم ويذكرون صفاتهم ويذكرون فضائلهم ، ويزعمون أموراً تحدث للميت منها أن هامة تخرج من رأسه تطلب ثأره ، وكانت هذه البكائيات لا تخلو من إثارة المشاعر والدعوة إلى الانتقام ، وندب العشيرة لذلك ، وكانوا يفعلون أموراً تثير الجزع وتشري الشر ، ويظهرون حزنهم العميق إزاء فقد الميت ، ويطلب الباكي من النساء أن يبكين ويضربن الخدود ، ويشققن الجيوب تحسرا عليه وإمعانا في أثر الخطب على النفس .

وظهر لون من الرثاء (وهو التأبين) في الجاهلية ، ووجد هذا على بعض القبور الأثرية بشمال الجزيرة مدونا بخطوط ثمودية وسريانية ، فقد كتبوا على القبور اسم الميت ولقبه وبعض أعماله العظيمة ، ويدعون فيها بالصبر والإيمان بالقدر . وتطور فن الرثاء إلى أن رثى الشاعر نفسه قبل أن يموت ، ويذكر فيها ما يحدث له ويفعل به بعد موته وامتد ذلك في الإسلام وحمل على الموعظة والتعزي . ويعد رثاء الميت في ميدان الحرب أكثر أثراً وهماً وأفدح مصيبه عند الجاهليين .

وتعد الخنساء أشهر شاعرة عربية في الجاهلية في فن الرثاء ، فقد عرفت بمراثيها في أخويها معاوية وصخر ، ومم قالت في صخر :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

والطريف في بعض قصائد الرثاء أنها بدأت بمقدمه ذكر فيها الطفل وديار الحبيب الدوارس ، أو يستهل القصيدة بالغزل ، ثم يدخل في الرثاء ، فيصور مصرع الفقيده وجزعه عليه ، ويتحدث عن خلاله الحميدة فيمدحه بالشجاعة ، والجود والإقدام والصبر والحزم .
وكان الراثي يطلب أحيانا نزول الغيث على قبر الميت ليصبح قبره طيباً عطراً ورياضاً جميلاً ، فيستسقى السماء لقبره . وبعضهم اتخذ الموت عبرة وعظة ، فأكثر التأمل في الحياة ، فتأسى على ما مضى ، فكل إنسان سوف يلاقيه ، قال طرفه^(١) :

أرى الموت بعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

(1) المعلقة العشر ص ١٠٥ .

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
وما تنقص الأيام والدَّهرُ ينفد
متى يشأ يوماً يقوده لحتفه
لكالطول المرخى وثنياه باليد
ومن يك في حبل المنية ينقد

وقد أثر الإسلام في فن الرثاء، فالجاهليون كانوا يذكرون فضائل الميت وأعماله وفعله بالأعداء وشجاعته في الحرب، ولا يتورعون عن بعض أعماله التي تعسف فيها وظلم ويعدونها من فضائله، ولكن الرثاء في الإسلام سلك نمطا آخر منها: ذكر محاسن الميت وبلائه في الدين وفضائله الحميدة وكرم خلقه ومنزلته بين الناس، ويدعو الله له بالرحمة والمغفرة وأن يخلفهم خيرا منه، وأن يأجرهم فيه.

وترك الرثاء بعض أمور الجاهلية من إظهار الجزع على الميت، وإثارة المشاعر، وذكر الثأر والهامة التي تخرج من رأس، والصدى واستئزال المطر على القبر لينعم صاحبه. ويعد الرثاء مديحا بيد أنه يقال للميت فهو مدح للميت، وما يقال للحي يسمى مديحا، وهو في الناس سواء، بيد أن ما قيل في النبي ﷺ بعد موته يسمى مديحا أيضاً، وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول ﷺ، وسميت مدحاً؛ لأن النبي ﷺ قائم فينا، موصول الحياة فخاطبه الشعراء مخاطبة الأحياء.

وقد روى صاحب السيرة مراثي حسان رضي الله عنه في النبي ﷺ عقب وفاته، وسمّاها صاحب السيرة رثاء؛ لأنه تفجع فيها عليه وتحزن على وفاته وشكى فراقه، ووصف حال المؤمنين من بعده، أن القصائد التي قيلت في النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته تذكر محاسنه وشمائله وتثنى عليه، وتذكر وصاياه وأدبه تسمى مديحاً، وعرفت من هذا النوع قصيدة البوصيري البردة التي أولها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَذِي سَلَمٍ مَرَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةِ بَدَمٍ

وتعد هذه أشهر قصائد المديح، وعارضها الشعراء قديماً وحديثاً وتليها في المديح شهرة قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير.

ويعد حسان بن ثابت رضي الله عنه أول من رثى الرسول ﷺ، ولم نسمع عن رثاء فيه بعد حسان غير ما يسمى مديحاً، فما قيل فيه بعد الوفاة سمي مديحاً، فالمسلمون استطاعوا أن يتغلبوا على فقد جسده، وأيقنوا أنه موصول الحياة بكتاب الله فيهم وسنته وقوله وعمله وخلقته.

قال حسان بن ثابت يبكي رسول الله ﷺ، فيما رواه ابن هشام عن أبي زيد الأنصاري^(١):
 بِطَيْبَةِ رَسَمٍ لِلرُّسُولِ وَمَعْهَدُ^(٢) مِنْبَرٍ وَقَدْ تَغْفُو الرُّسُومَ وَتَهْمُذُ^(٣)
 وَلَا تَمْتَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ^(٤)
 وَوَأَضْحَ أَثَارِ وَبَاقِي مَعَالِمِ وَرَبَعَ لَهُ فِيهِ مُصَلًى وَمَسْجِدُ^(٥)
 بِهَا حُجَرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا مِنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ^(٦)
 مَعَارِفُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيَهَا أَتَاهَا الْبَلَى قَالَايُ مِنْهَا تَجَدَّدُ^(٧)
 عَرَفْتُ بِهَا رَسَمَ الرُّسُولِ وَعَهْدَهُ وَقَبْرًا بِهَا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ^(٨)
 ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكِي الرُّسُولَ فَأَسْعِدَتْ عَيُونَ وَمِثْلَاهَا مِنْ الْجَفْنِ تُسْعِدُ^(٩)
 تَذَكَّرُ آلَاءَ الرُّسُولِ ، وَمَا أَرَى لَهَا مُحْصِيًا نَفْسِي ، فَنَفْسِي تَبْلُدُ^(١٠)
 مُفْجَعَةً قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ فَظَلَلْتُ لآلَاءِ الرُّسُولِ تُعَدُّ^(١١)

- (1) الديوان، دار الجيل، ص ٩٣ والسيرة ج ٤ / ٣٤٦ ، ٣٥٠ .
- (2) طيبة : اسم من أسماء يثرب ، وقد عرفت به في الجاهلية ثم صارت مدينة الرسول ﷺ في الإسلام .
- تهمد : الهمود : البلى ، يمدح المدينة بأن بها آثار الرسول ﷺ ، فقد كان يقيم بها ، وقد تدرس وتبلى بقايا الآثار ، ولكنه مازال حياً فيهم .
- (3) يصعد : يصعد المنبر . ففقد المفعول ، ونصب ضميره . تمتحى : تزول .
- (4) ربع : مكان به قوم .
- (5) الحجرات : بيوتات النبي ﷺ .
- (6) لم تطمس : لم تتغير ، آية : علامة ، دليل . العهد ما هي عليه ، وروى : معالم بدل معارف . الديوان ص ٣ .
- (7) عهد : تعاليم أى تعلمت فيها علمه الذي تركه ، ملحد : من يلحد الناس .
- (8) أسعدت : أعانت ، والمراد بالجفن هنا العين نفسها .
- (9) تبلد : تتحير والتبلد أيضاً نقيض التجلد وهو استكانة .
- (10) مفجعة : موجعة .

- وَمَا بَلَغْتَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَشِيرَةً
أَطَالَتْ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهِدَهَا
فَبُورِكَتْ ، يَا قَبْرَ الرَّسُولِ ، وَبُورِكَتْ
وَبُورِكَتْ لَخَذَ مِنْكَ ضَمَنَ طَيِّبًا
تَهِيلُ عَلَيْهِ التَّرَبُّ أَيْدٍ وَأَعْيُنُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً
وَرَأَحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ
يُبْكُونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَوَاتُ يَوْمَهُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةً هَالِكَةً
تَقْطَعُ فِيهِ مَنَازِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ
يَذُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِدًا
عَفْوًا عَنِ الزَّلَّاتِ ، يَقْبَلُ عَذْرَهُمْ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْدِهِ
فَبَيَّنَّا هُمْ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ
- وَلَكِنْ نَفْسِي بَغُضٍّ مَا فِيهِ تَحَمُّدٌ^(١)
عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدٌ^(٢)
بِلَادَةِ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ^(٣)
عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ ، مُنْضَّدُ^(٤)
عَلَيْهِ ، وَقَدْ غَازَتْ بِذَلِكَ أَسْنَدُ^(٥)
عَشِيرَةً عَلَوُهُ الثَّرَى ، لَا يُوسَدُ^(٦)
وَقَدْ وَهَنْتَ مِنْهُمْ ظُهُورٌ ، وَأَعْضُدُ^(٧)
وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الْأَرْضُ فَالْنَّاسُ أَكْمَدُ^(٨)
رَزِيَّةً يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ^(٩)
وَقَدْ كَانَ ذَا نَوْرِ ، يَغُورُ وَيَنْجُدُ^(١٠)
وَيَنْقُدُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ^(١١)
مُعَلِّمٌ صَدِّقٍ ، إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا^(١٢)
وَإِنْ يُحْسِنُوا ، فَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ^(١٣)
فَمَنْ عِنْدَهُ تَنْسِيرُ مَا يَتَشَدَّدُ^(١٤)
دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يَقْصَدُ^(١٥)

- (1) العشير : الجزء في الأصل، وقوله بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر .
- (2) تذرّف العين : تبكي بسخاء .
- (3) المسدد : الذي وفقه الله للصواب . والقصد من القول والعمل .
- (4) الصفيح : الحجر الرقيق العريض .
- (5) تهيل مضارع هال . أي تصب . وقوله : وأعين ، أراد ، وأعين تصب عليه الدمع .
- (6) لا يوسد : لا يجعل له وساد . و الوساد : المتكا .
- (7) وهنت : ضعفت وفترت .
- (8) قوله من تبكي السماوات يومه أي اليوم الذي قضى فيه أكمد : أحزن .
- (9) عدلت : ساوت ، الرزية : المصيبة .
- (10) يغور ويغير : أي يبلغ الغور، وهو المنخفض من الأرض . وينجد : يبلغ النجد وهو المرتفع .
- (11) أي يرشد إلي الحق وهو الله .
- (12) إمام أي محمد الرسول ﷺ .
- (13) عفو فعول من العفو، وهو التجاوز عن الذنب وأصله المحو .
- (14) يتشدد : يتصعب — ناب الأمر نوباً : نزل وقوله : "لم يقوموا بحمده" أي لم يقضوا حقه .
- (15) قوله : بينهم دليل بيان لنعمة الله .

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ ، لَا يُثْنِي جَنَاحَهُ
فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ ، إِذْ غَدَا
فَأَصْبَحَ مُحْشُوداً إِلَى اللَّهِ رَاجِعاً
وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرَمِ وَحِشاً بِقَاعُهَا
قِفَاراً سِوَى مَغْمُورَةِ اللَّحْدِ ضَافِهَا
وَمَسْجِدُهُ ، فَالْمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى لَهُ ثُمَّ أَوْحِشَتْ
فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَنَبْرَةَ
وَمَا لَكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي
فَجُودِي عَلَيْهِ بِالدَّمْعِ وَأَغُولِي
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
أَعْفَ وَأَوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ

حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا^(١)
إِلَى كَنْفٍ يَحْتَوِي عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ^(٢)
إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدُ^(٣)
يُبْكِيهِ جَفْنُ الْمُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ^(٤)
لَغَيْبِهِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ تَعَهْدُ^(٥)
فَقِيدُ يُبْكِيهِ بِلَاطٌ وَغَرَقْدُ^(٦)
خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ^(٧)
دِيَارٍ ، وَعَرْضَاتٌ ، وَرَبْعٌ ، وَمَوْلِدُ^(٨)
وَلَا أَعْرِفُكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمَدُ^(٩)
عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ^(١٠)
لِفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَ الدَّهْرِ يُوجَدُ^(١١)
وَلَا مِثْلَهُ ، حَتَّى الْقِيَامَةِ ، يُفْقَدُ^(١٢)
وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلٌ ، لَا يَنْكَدُ^(١٣)

(1) يحيدوا عن الهدى : يضلوا .

(2) عطوف عليهم : مشفق — لا يثنى جناحه: لا يرف عطفه عن أحد — ومعنى الكنف: الجانب. ويمهد:

يوطين

(3) المقصد : المصيب .

(4) المرسلات وأراد بها الملائكة المستترة عن عيون الناس .

(5) الحرم : مكة — وحشاً : قفراً .

(6) الغرقد: ضرب من شجر العضاة ، واسم مقبرة أهل المدينة لوجود هذا الشجر هناك .

(7) أي افتقدته الأماكن فأضحت موحشة .

(8) جمرات المناسك ثلاث .

(9) يقول : بعد محمد لست أرى عيني تجمد عن الدمع .

(10) سابغ النعمة : أتمها، ويتغمد : يغمر ويستتر .

(11) واعولي : أي اصرخي .

(12) لم تفقد الناس شخصاً عظيماً كفقدهم محمد .

(13) النائل : العطاء . لا ينكد : لا يكدر .

إِذَا ضَنَّ مَعْطَاءٌ بِمَا كَانَ يُتْلَى^(١)
وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسْوَدُ^(٢)
دَعَائِمَ عِزٍّ شَاهِقَاتٍ تُشَيِّدُ^(٣)
وَعُودًا غَدَاةَ الْمُزْنِ ، فَالْعُودُ أَغِيدُ^(٤)
عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ ، رَبُّ مُجْدُ^(٥)
فَلَا الْعِلْمُ مَجْبُوسٌ ، وَلَا الرَّأْيُ يُنْفَدُ^(٦)
مَنْ النَّاسِ ، إِلَّا عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ^(٧)
لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلَدُ^(٨)
وَفِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ^(٩)

وَأَبْدَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدَ
وَأَكْرَمَ حَيًّا فِي الْبُيُوتِ ، إِذَا انْتَمَى
وَأَمْتَعَ ذُرُواتِ ، وَأَثْبَتَ فِي الْعُلَى
وَأَثْبَتَ فِرْعَا فِي الْفُرُوعِ وَمَنْبِيًّا
رَبَّاهُ وَلِيدًا ، فَاسْتَتَمَ تَمَامَهُ
تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ
أَقُولُ ، وَلَا يُلْقَى لِقَوْلِي عَائِبُ
وَلَيْسَ هَوَائِي نَازِعًا عَنْ ثَنَائِهِ
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَلِكَ جِوَارَهُ

بدأ حسان رضي الله عنه مرثيته ببكاء الأطلال التي خلفها الرسول ﷺ بالمدينة (يثرب)، والأماكن التي كان يجلس فيها، ومصلاه ومنبره، ومسكنه (حجراته)، وهي المعالم التي ذكرته بذكرياته معه صلى الله عليه وسلم ، فأبكته وأفجعتة ، ففقد الرسول ﷺ أعظم مصيبة حلت به وظل يزرف دمه على قبره ، وهو يعدد فضائل النبي ﷺ ومحاسنه ومآثره ، وأطال في الوقوف على قبره ، ودعا له بالبركة ودعا للبلد (يثرب) التي بها القبر ، ودعا للحد الذي فيه الجسد الطاهر .

وقد أعانت عيون أخريات عينه في البكاء فبكين معها تضامناً وحزناً عليه . وقال إن الجسد الذي غيبوه في التراب ليس لغيره بل غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ، وقد حزن عليه جميع أصحابه وبكوه ، وبكاه أهل السموات والأرض ، وهل من مصيبة في الأرض تعادل موت النبي ﷺ ، وما فقدته الناس بموته ، فقد انقطع الوحي عنهم ، وهو النور الذي كان يضيئ ما هبط وغار وما علا منها وارتفع .

(1) تلید : القديم ، والطريق : الحديث .

(2) ابطحيا : نسبة إلى الابطح بمكة وقريش .

(3) شاهقات : مرتفعات .

(4) أغيد : ناعم متين - المزن : السحاب .

(5) استتم بمعنى أتم الشيء .

(6) لعله يريد والله أعلم أن يقول - افنده : اضعفه .

(7) عازب العقل : بعيد .

(8) قوله نازعاً عن ثنائه أي كف وانتهى .

(9) المصطفى : الله تعالى - ذاك اليوم : أي يوم الحساب . الديوان ص ٩٩ .

وقد كان الوحي ينزل على النبي ﷺ ، فيخبره بالحق ، وينقذهم من الهلاك في النار وينبئهم بما في الغيب.

والنبي ﷺ إمام حق ومعلم صدق ، فإن أطاعه الناس اهتدوا وسعدوا في حياتهم ، وقد كان يخفف عنهم ويبسر ما لا يطقونه، ويذل لهم الصعاب — وقد كانوا في نعمة وهو بينهم — لأنه دليل على ما هم عليه من القصد والصواب.

فقد كان يرشد إلى الهدى، ويعز عليهم أن يضلوا وقد كان رعوفا رحيمًا . وبينما هم في هذا الفضل والنعمة إذ توفاه الله تعالى ، فصاروا غرباء في بلدهم يشعرون بالوحشة ، وكأنهم في صحراء قاتله ليس بها حياة ثم ذكر بعض المعالم الدينية ، مثل المسجد والمقام وداره والمواضع التي يقضي منها مناسك الحج، ومقبرة الغرقد التي يدفن بها أهل المدينة ، وقد بكته هذه الأماكن لعهدده بها وذكرياته فيها .

ثم تناول أثر فقدده على العالمين ، فقد فقد العالم رجلاً لا نظير له في الماضين ولا في القادمين ، فقد كان عفواً ، وفيماً ، كريماً ، بشوشاً لا يكدر ، ويبذل كل غال عنده وأثير لديه إذا بخل أهل العطاء .

وهو من أكرم حي في العرب ، فهو كريم من أصل كريم من نبت طيب . ثم وصف ملكاته الخاصة ، فقد كان مقوالاً فصيحاً لساناً عاقلاً رزيناً غير هوائي ولا ينزع عن رشده إلى ضلاله، وليس بصاحب بدعة مذمومة .

وقد أكرمه الله تعالى بالجنة ، ودعا الشاعر ربه أن يلحقه به فيكون جاره في الجنة وينعم بصحبته فيها مثلما نعم بها في الدنيا .

وقال في يوم دفن النبي ﷺ (١):

أَلَا دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ فِي سَفَطٍ مِنْ الْأَلْوَةِ وَالْكَافُورِ مَنْضُودٍ (٢)

ولحسن مراثي أخرى تفيض بالحزن والألم لفراق رسول الله ﷺ، وهي مراثي دينية يبكي فيها انقطاع الوحي وخلال النبوة والمعالم والآثار، والروضة الشريفة التي دفن فيها، وما أصاب الأتصار بفقده ، والوحدة التي يعانيتها، وهذه المعاني ترددت في مراثيه. وقال حسان رضي الله عنه أيضاً :

(١) الديوان ص ١٠٤ .

(٢) ألا : هنا للتوبيخ والإكثار ، والسفط : الذي يعبي فيه الطيب — الألوة : العود الذي يتبخر به ومنضود صفة لسفط .

ما بال عينيك لا تنام كأنما
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً
جئني بقيك التراب لهقي ليتني
بأبي وأمي من شهدت وفاته
فظللت بعد وفاته متبلداً
أقيم بعدك بالمدينة بينهم ؟
أو حل أمر الله فينا عاجلاً
فتقوم ساعتنا ، فنلقى طيباً
يا بكر أمة المبارك ذكره
نوراً أضاء على البرية كلها
يا رب ! فاجمعنا معاً ونبيئنا
في جنة الفردوس واكتبها لنا
والله أسمع ما بقيت بهالك

كُحِلَتْ مآقيها بكحل الأرمـد^(١)
يا خير من وطئ الحصى لا تبعد^(٢)
غيت قبلك في بقيق الغرقـد^(٣)
في يوم الاثنين النبي المهدي^(٤)
يا لهف نفسي ليتني لم أولد^(٥)
يا ليتني صبحت سم الأسود^(٦)
في راحة من يومنا أو في غد^(٧)
مخضاً ضرائبه كريم المحتد^(٨)
ولدتك مخصنة بسعد الأسعد^(٩)
من يهد للنور المبارك يهتد^(١٠)
في جنة تنشي غيـون الحسد^(١١)
يا ذا الجلال وذا العلا والسودد^(١٢)
إلا بكيت على النبي محمـد^(١٣)

- (1) المآقي : مجاري الدموع . الأرمـد : الذي يشتكى وجع عينيه الديوان ص ٩٩ .
- (2) جزعاً : خوفاً — قوله يا خير من وطئ الحصى : يا أشرف إنسان .
- (3) بقيق الغرقـد : بقيق المدينة الذي يدفنون فيه موتاهم .
- (4) بأبي وأمي : أي أجديه أبي وأمي .
- (5) المتبلد : من أدركته الحيرة .
- (6) صبحت : سقيت صباحاً — الأسود العظيم من الحيات .
- (7) في راحة من يومنا أو في غد : أي حل أمر الله فينا دائماً .
- (8) تقوم ساعتنا : أي تقم القيامة — الضرائب : الطبيعة السجية . المحتد : الأصل .
- (9) المخصنة العفيفة ، وأصل الإحصان المنع . وقوله بسعد الأسعد : أي باليمن وبالبركة .
- (10) نوراً على البرية : التعاليم الإسلامية التي أنارت ظلام الأوثان .
- (11) تنشي : ترد وتدفع من ثني بثني .
- (12) فاكتبها لنا : لتكن الجنة من نصيبنا .
- (13) قوله : أسمع يريد لا أسمع . وهو يقول : يمين الله لا أسمع نعي ميت مدة حياتي إلا بكيت على النبي محمد .

يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ
ضَاقَتْ بِالْأَنْصَارِ الْبِلَادُ فَأَصْبَحَتْ
وَلَقَدْ وَلَدَتْهُ ، وَقَيْنَا قَبْرَهُ
وَاللَّهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ
صَلَّى إِلَهِ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ
فَرِحَتْ نَصَارَى يَثْرِبَ وَيَهُودُهَا
بَعْدَ الْمَغِيبِ فِي سَوَاءِ الْمَلْحَدِ^(١)
سُوداً وَجُوهُهُمْ كَلَوْنِ الْإِثْمِدِ^(٢)
وَقُضُولُ نِعْمَتِهِ بِنَا لَمْ يُجْحَدِ^(٣)
أَنْصَارُهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مَشْهَدِ^(٤)
وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ^(٥)
لَمَّا تَوَارَى فِي الضَّرِيحِ الْمَلْحَدِ^(٦)

لقد جزع الشاعر لفقده صلى الله عليه وسلم ، وفقد طعم الحياة من دونه ويأمل أن يلحق به في الجنة فيكون رفيقه فيها. وجسد حالة الحزن الشديد التي خيمت على المكان ومن فيه ، وما يشعر الناس به من حزن وألم وضيق. وقال أيضا يرثي النبي صلى الله عليه وسلم ، ويمدحه أيضا :

آلَيْتُ مَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ مَجْتَهِدًا
تَاللَّهِ مَا حَمَلْتُ أَنْثَى وَلَا وَضَعْتُ
وَلَا بَرَا اللَّهَ خَلْقًا مِنْ بَرِيَّتِهِ
مِنْ الَّذِي كَانَ نَوْرًا يُسْتَضَاءُ بِهِ
مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأَكْسَى سَلَفُوا
يَا أَفْضَلَ النَّاسِ ، إِنِّي كُنْتُ فِي نَهْرٍ
أَمْسَى نِسَاؤُكَ عَطْلَنَ الْبُيُوتِ ، فَمَا
مَنْيَ أَلِيَّةَ بَرٍّ ، غَيْرِ إِفْنَادِ^(٧)
مِثْلَ النَّبِيِّ، رَسُولِ الرَّحْمَةِ الْهَادِي^(٨)
أَوْفَى بِذِمَّةِ جَارٍ ، أَوْ بِمِيعَادِ^(٩)
مُبَارَكِ الْأَمْرِ ذَا عَدْلٍ وَإِرْشَادِ^(١٠)
وَأَبْذَلَ النَّاسَ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِي^(١١)
أَصْبَحْتُ مِنْهُ كَمِثْلِ الْمُفْرَدِ الصَّادِي^(١٢)
يَضْرِبُنْ فَوْقَ قَفَا سِترٍ بِأَوْتَادِ^(١٣)

(1) المغيب : هو محمد .

(2) الإثمِد : الكحل . يقال جعل سواد الليل لعينيه كالإثمِد .

(3) قوله ولقد ولدناه لأن بني النجار أحوال محمد .

(4) الله أكرمنا به : قد وهبنا الله عطية وجود النبي .

(5) يحف بعرضه : أي الملائكة .

(6) فرحت النصارى واليهود عندما أدخل القبر ، أي عند وفاته . الديوان ص ١٠٢ .

(7) آليت : حلفت — الإفناد : الكذب — لعل تقدير البيت هكذا : آليت ألية بر غير إفناد مني مجتهداً "أي غير

مقصر" ما في جميع الناس .

(8) تالله : إعادة القسم للتوكيد .

(9) برا : أي برأ : أي خلق والبرية : الخلق والذمة والعهد .

(10) قوله من الذي : متعلق بقوله أوفى في البيت السابق .

(11) الجادي : طالب الجدوي وهي العطية ، المعروف .

(12) الصادي : العطشان . قوله : يا أفضل الناس يروي خير البرية أي يا خير البرية .

(13) قفا ستر : أي خلفه ووراءه .

مِثْلُ الرّوَاحِبِ يَلْبَسُنَ الْمُسُوحَ ، وَقَدْ أَيْقَنَ بِالْبُؤْسِ بَعْدَ النِّعْمَةِ الْبَادِي^(١) وهي أبيات تفيض حزناً وألماً وحسرة على فقد النبي ﷺ ، فالشاعر يفتقد إلى الأُنس ويشعر بالظماً والوحدة ، ويحن لأيام صحب النبي ﷺ فيها وتروى من حبه حباً ، ونهل وتعلل من فيض خلقه الكريم ، ومدحه ﷺ بعد أن رثاه ، وهذا المدح تعبيراً رمزياً على استمرار الميت في ذاكرة الشاعر وخلده ، وأنه يعيش معه بعيداً عن العالم المادي ، فالشاعر يستأثر معه بحديث خاص ، فيحدثه حديث الأحياء ، فيناديه ويطلب جوابه ، ويشكو إليه ما يعانيه والشكوة تكون لحبيب قريب.

وعبر حسان بن ثابت رضي الله عنه عن عظم مصابهم بفقد رسول الله ﷺ تعبيراً صادقاً يثير الشجن ، فقال يرثي النبي ﷺ :

نَبِّ الْمَسَاكِينِ أَنْ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ	مَعَ النَّبِيِّ تَوَلَّى عَنْهُمْ سَخَرًا ^(٢)
مَنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي ، وَرَاحِلَتِي	وَرَزَقُ أَهْلِي ، إِذَا لَمْ يُؤْنِسُوا الْمَطَرًا ^(٣)
أَمْ مَنْ نُعَاتِبُ لَا نَخْشَى جَنَادَعَهُ	إِذَا اللِّسَانُ عَتَا فِي الْقَوْلِ ، أَوْ عَثَرًا ^(٤)
كَانَ الضِّيَاءُ ، وَكَانَ النُّورَ نَتَبَّغُهُ	بَعْدَ الْإِلَهِ ، وَكَانَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ ^(٥)
فَلَيْتَنَا يَوْمَ وَارَوْهُ بِمَلْحَدِهِ	وَعَتَبُوهُ ، وَأَلْقَوْا فَوْقَهُ الْمَدْرًا ^(٦)
لَمْ يَتْرِكِ اللَّهُ مِنَّا بَعْدَهُ أَحَدًا	وَلَمْ يُعِشْ بَعْدَهُ أَثْنَى ، وَلَا ذَكَرًا ^(٧)
ذَلَّتْ رِقَابُ بَنِي النَّجَّارِ كُلِّهِمْ	وَكَانَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قَدِ قَدِرًا ^(٨)

وقد فقد حسان رضي الله عنه بصره بعد وفاة النبي ﷺ ، فلم يزد ذلك إلا إيمانا وصلاحا ولم يجزع وتذكر رسول الله ﷺ وقال :

- (1) المسوح : كساء من الشعر — البادي : صفة البؤس.
- (2) قوله نب المساكين : أراد نبيء فحذف الهمزة لضرورة الشعر .
- (3) قوله لم يؤنسوا المطرا : أي لم يبصروه ويروه . والرحل : المنزل والمأوى . الراحنة من الإبل : ما كان منها صالحاً ؛ لأن يرحل ، والقوى منها على الأحمال والأسفار للذكر والأنثى .
- (4) الجنادع : أوائل الشر . عتا : طغى . الديوان ص ١٥٥ .
- (5) — (6) — (7) — (8) وحسان يرثي النبي فيختار أجمل الصفات الكريمة ويمدح بها الرسول وأتباعه مع الإشارة إلى إذلال بني النجار حيث كان هذا الاندحار والإذلال أمراً مقدراً من الله تعالى . الديوان ص ١٥٥ .

فَعَمِيَ عَلَيْكَ النَّاطِرُ^(١)

فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَاذِرُ^(٢)

كُنْتُ السَّوَادَ لِنَاطِرِي

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمْتُ

ولحسن مرآئي أخرى في رثاء بعض المسلمين الذين نالوا الشهادة ، وهي قصائد أشبه بالمدح بيد أنها في ميت ، فقد وصف شجاعتهم وما فعلوه في الأعداء ، ونعاهم إلى الجنة التي وعدوا بها .

قال رضي الله عنه يرثي حمزة بن عبد المطلب:

أَتَغْرِفُ الدَّارُ ، عَفَا رَسْمُهَا	بَعْدَكَ ، صَوَّبَ الْمُسْبِلِ الْهَاطِلِ ^(٣)
بَيْنَ السَّرَادِيحِ ، فَأَدْمَانَةَ	فَمَدْفَعِ الرُّوحَاءِ فِي حَائِلِ ^(٤)
سَأَلْتُهَا عَنْ ذَاكَ ، فَاسْتَعْجَمْتُ	لَمْ تَدْرِ مَا مَرْجُوعَةُ السَّائِلِ ^(٥)
دَعُ عَنْكَ دَاراً قَدْ عَفَا رَسْمُهَا	وَابِكَ عَلَى حِمَزَةِ ذِي النَّائِلِ ^(٦)
الْمَالِيءِ الشَّيْزِيِّ ، إِذَا أَعْصَفَتْ	غِبْرَاءُ فِي ذِي الشَّبَمِ الْمَاحِلِ ^(٧)
التَّارِكِ الْقِرْنِ لَدَى لَبْدِهِ	يَعْتَرُ فِي ذِي الْخُرُصِ الذَّابِلِ ^(٨)
وَاللَّابِسِ الْخَيْلِ إِذَا أَحْجَمَتْ	كَالْتَيْثِ فِي غَابَةِ الْبَاسِلِ ^(٩)
أَبْيَضَ فِي الدَّرْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ	لَمْ يَمِرْ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ^(١٠)

(1) - (2) ويرثي حسان أيضاً النبي فيصفه بسواد العين التي لم تر غيره بعد .

وقال عندما فقد بصره :

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا	فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ
قَلْبُ ذِكِّي ، وَعَقْلُ غَيْرِ ذِي رَذَلٍ	وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسِّيْقِ مَأْثُورُ

وعندما فقد حسان بصره لم يتزعزع إيمانه. وقوله الرذل : الردئ. المأثور : أي ذو جوهر .

(3) قوله : عفا رسمها أي محا أثرها . الصوب : المطر . المسبل : المنصب . الهاطل : الكثير السيلان .

(4) السرداح : الوادي أو مكان متسع . أدمانة ، والروحاء : موضعان . المدفع : حيث يندفع السبل . حائل : جبل .

(5) استعجمت : لم ترد جواباً .

(6) النائل : العطاء .

(7) الشيزي : جفان من خشب يوضع فيها الطعام للضيوف . الغبراء : الريح التي تثير الغبار . الشبم : البرد .

(8) اللبد : الذي يوضع تحت سرج الفرس . ذو الخرص : الرمح .

(9) أحجمت : تأخرت هيبة . الباسل : الشديد الكريه .

(10) أبيض : كنى بذلك عن شرفه وعرضه . يمرى : يدفع حقاً بباطل .

ما لشَهِيدٍ بَيْنَ أَرْماحِكُمْ
 إِنْ أَمْرًا غَوِيْرَ فِي آلَةٍ
 أَظْلَمَتِ الْأَرْضُ لِفَقْدَانِهِ
 صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ فِي جَنَّةِ
 كُنَّا نَرَى حَمْزَةَ حِرْزًا لَنَا
 وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ ذَا تُسْذِرُ
 لَا تَفْرَحِي يَا هِنْدُ ، وَاسْتَحْلَبِي
 وَابْكِي عَلَى عُتْبَةَ ، إِذْ قَطَّعَتْهُ
 إِذْ خَرَّ فِي مَشِيخَةٍ مِنْكُمْ
 أَرْدَاهُمْ حَمْزَةً فِي أَسْرَةٍ
 غَدَاةَ جَبْرِئِلَ وَزَيْرَ لَهْ

شَلَّتْ يَدَا وَحْشِيٍّ مِنْ قَاتِلِ^(١)
 مَطْرُورَةٍ ، مَارِنَةِ الْعَامِلِ^(٢)
 وَأَسْوَدَ نَوْرُ الْقَمَرِ النَّاصِلِ^(٣)
 عَالِيَةٍ ، مُكْرَمَةِ الدَّاخِلِ^(٤)
 مِنْ كُلِّ أَمْرِ نَابِتَا نَازِلِ
 لَمْ يَكُ بِالْوَانِي ، وَلَا الْخَازِلِ^(٥)
 دَمْعًا وَأَذْرِي عِبْرَةَ الثَّائِلِ^(٦)
 بِالسَّيْفِ تَحْتَ الرَّهْجِ الْجَائِلِ^(٧)
 مِنْ كُلِّ عَاتٍ قَلْبُهُ ، جَاهِلِ^(٨)
 يَمْشُونَ تَحْتَ الْحَلْقِ الذَّائِلِ^(٩)
 نِعْمَ وَزِيرُ الْفَارِسِ الْحَامِلِ^(١٠)

ولقد بدأ حسان قصيدته بمقدمة بكى فيها الديار وما حل بها ثم نفّض يده منها، وقال:
 دع عنك دار قد عفا رسمها وابك على حمزة ذي النائل فتخلص من المقدمة، وتوجه إلى
 مدح حمزة رضي الله عنه الأسد المغوار ، والفارس المقدام ، فهو كتيبة وحده ، ثم وجدته
 مطرّحا غدر به ، ودعا على قاتله ونعاه إلى الجنة ، ثم أعرب عن إعجابه بشجاعة حمزة،
 وأنه كان حرزاً للمسلمين يدفع عنهم الأعداء.

- (1) وحشي: قاتل حمزة . وحذف التنوين من وحشي للضرورة .
- (2) الآلة: الحربة . المطرورة: المسنونة . المارنة: اللينة . العامل: صدر الرمح .
- (3) الناصل: الخارج من السحاب .
- (4) يرثي حمزة متمنياً له فسيح الجنة وقوله حرزاً لنا: أي مساعداً لنا ومعاوناً .
- (5) تدرأ: قوة .
- (6) هند: هي بنت عتبة بن ربيعة، قتل حمزة أباهما يوم بدر وعمها شيبعة بن ربيعة وقتل على رضي الله عنه الوليد بن عتبة، وقيل قتل حمزة رضي الله عنه حنظلة بن أبي سفيان .
- (7) قطه: قطعه: الرهج: الغبار .
- (8) أراد بالمشيخة: من قتل يوم بدر من سراة القرشيين .
- (9) الحلق الذائل: الدروع الطويلة الذيل .
- (10) الحامل: الذي يحمل عن الناس كل شيء .

ثم عاتب هند بن عتبة وذمها ، فقد أعربت عن فرحتها بقتله ، وشمنت فيه فقال لها حسان: لا تفرحي بموت حمزة، ولكن ازرفي دمك على من قتلوا من ذوك يوم بدر، وهم أصحاب القليب.

وقال حسان بن ثابت يبكي خبيبا وأصحابه الذين نالوا الشهادة يوم الرجيع:

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا	يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأَحْرِمُوا وَأُثْبِتُوا (١)
رَأْسُ السَّرِيَّةِ مَرْتَدَّ وَأَمِيرُهُمْ	وَابْنُ الْبَكِيرِ أَمَامَهُمْ وَخَبِيبُ (٢)
وَابْنُ لَطَارِقٍ وَابْنُ دَثْنَةَ مِنْهُمْ	وَأَفَاهُ ثُمَّ حِمَامُهُ الْمَكْتُوبُ (٣)
وَالْعَاصِمُ الْمَقْتُولُ عِنْدَ رَجَبِهِمْ	كَسَبَ الْمَعَالِي إِنَّهُ لَكَسُوبُ (٤)
مَنَعَ الْمَقَادَةَ أَنْ يَنَالُوا ظَهْرَهُ	حَتَّى يُجَالِدَ إِنَّهُ لَنَجِيبُ (٥)

وقال حسان بن ثابت يبكي خبيبتا :

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لَا تَرْقَا مَدَامِعَهَا سَحَا عَلَى الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ انْفَلَقَ (٦)

(1) أثبتوا — بالبناء للمجهول — أنابهم الله .

(2) خبيب: هذا الاسم في حقيقته مصغر بضم الخاء وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة، وقد جاء به ههنا مكبراً بفتح الخاء وكسر الموحدة حين اضطر إلى ذلك، ومن الناس من يرويه على أصله، وذلك عيب من عيوب الشعر أن تجمع في قافية واحدة بين ياء ساكنة مفتوح ما قبلها وياء مكسور ما قبلها كان تجمع بين غير بفتح فسكون وأمر، وبين عين وأمين، وبين قيد وشديد، ونحو ذلك، ويسمى هذا العيب بالتوجيه، وأراد مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير الليثي، وخبيب بن عدي أحد بني جحجي .

(3) ابن لطارق : هو عبد الله بن طارق حليف بني ظفر، وابن دثنة: أراد زيد بن الدثنة، وأصل ضبطه بفتح الدال وكسر الثاء المثلثة وتشديد النون، ولكن لا يقوم به وزن البيت، فعدل عنه إلى تسكين الثاء وتخفيف النون، ووافاه : جاءه، وثم بفتح الثاء — بمعنى هناك، والحمام — بكسر الحاء — الموت، وقد منع صرف طارق حين اضطر إلى ذلك أيضاً.

(4) العاصم : أراد به حمى الدبر عاصم بن ثابت بن أبي الأثلج ، وكسوب — بفتح الكاف — صيغة مبالغة .

(5) المقادة : المذلة والانتقيد إلى أعدائه، ويجالد : يضارب ويقاتل بالسيف، ومن رواه "حتى يجدل" كما ذكر ابن هشام فمعناه حتى يقع على الجدالة وهي الأرض. ويروى : حتى يجدل إنه لنجيب. السيرة جـ ١٧١/٣

(6) "عينك" يروى في مكانه "عينك" بالإنفراد، وهو أنسب بقوله "مدامعها" ؛ وقوله "لا ترقى" أصله "لا ترقأ" — بالهمز — فسهل الهمزة وتقول: رقا الدمع يرقأ، إذا انقطع، وسحا : مصدر بمعنى الصب، واللؤلؤ: كبار الجواهر، والفلق — بفتح القاف وكسر اللام — المضطرب المتحرك المتساقط .

عَلَى خُبَيْبِ فَتَى الْفَتَيَانِ قَدْ عَلِمُوا
فَإَذْهَبَ خُبَيْبُ جَزَاكَ اللَّهُ طَيِّبَةً
مَاذَا تَقُولُونَ إِنْ قَالَ النَّبِيُّ لَكُمْ
فِيمَ قَتَلْتُمْ شَهِيدَ اللَّهِ فِي رَجُلٍ
لَا قَسْلَ حِينَ تَلْقَاهُ وَلَا نَزِقَ^(١)
وَجَنَّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الْخُورِ فِي الرَّفْقِ^(٢)
حِينَ الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَارُ فِي الْأَفْقِ
طَاغٍ قَدْ أَوْعَتْ فِي الْبُلْدَانِ وَالرَّفْقِ^(٣)

وكان من أصحاب يوم الرجيع (في سنة ثلاث من الهجرة) كان ستة : هم مرثد بن أبي مرثد، الغنوي ، وخالد بن البكير الليثي ، وعاصم بن ثابت الأوسي ، وخبيب بن عدي العوفي ، وزيد بن الدثنة الخزرجي ، وعبد الله بن طارق، وقد بعثهم النبي ﷺ إلى عضل والقارة ، فمروا بقبيلة هذيل ، فأخذتهم غدرًا ، ووقع بينهم قتال فقتلت عاصمًا ، ومرثدًا ، وخالدًا، لأنهم أبو أن يسلموا لهزيل^(٤).

وأما زيد وخبيب وعبد الله فأتوا لهزيل وصدقوا عهدهم، فقتلوا عبد الله بالطريق، وباعوا خبيبا وزيدا لمشركي مكة فقتلوهما. وقد هجا حسان ﷺ هذيلًا لما فعلوه ، بأصحاب النبي ﷺ وبكى خبيب بن عدي الذي باعوه إلى عتبة بن الحرث بن عامر ليقتله بأبيه:

أَبْلَغَ بَنِي عَمْرٍو بِأَنَّ أَخَاهُمْ
شَرَاهُ زُهَيْرُ بْنُ الْأَغْرَ وَجَامِعٍ
شَرَاهُ امْرُؤٌ قَدْ كَانَ لِلْغَدْرِ لَازِمًا^(٥)
وَكَانَا جَمِيعًا يَرْكَبَانِ الْمَحَارِمَا^(٦)

(1) الفشل - بفتح الفاء وكسر الشين - الضعيف القوة الجبان، والنزق - بفتح النون وكسر الزاي - السيء الخلق

(2) الحور في الأصل : جمع حوراء ، وهي التي اشتد سواد سواد عينها واشتد بياض بياضها ؛ والرفق : يروى بضم الراء والفاء جمعاً ، فهو جمع رقيق، قاله أبو ذر، ويروى بضم الراء وفتح الفاء ، فهو جمع رقيقة، والرفقة - بسكون الفاء وراؤه مضمومة - اسم للجماعة الذين ترافقهم ويرافقونك .

(3) أوعت : اشتد فساده ، والرفق : قد مضى في تفسير البيت السابق، وتكراره هنا يعتبر من عيوب الشعر ، ولهذا بادرا ابن هشام بقوله "ويروى في الطرق".

(4) السيرة جـ ٣/ ١٦٠ ، ١٦١ .

(5) بنى عمرو : يريد بهم بني عمرو بن عوف قوم خبيب، وأخاهم : أراد به خبيبا، وشراه : باعه، وهو من الأضداد، وقد مضى قريباً استشهاد ابن هشام على استعماله في هذا المعنى. وقد باعه زهير وجامع وهما من هذيل : وقد باعاهما بأسيرين لهما في مكة .

(6) المحارم : جمع محرم وهو الأمر المحظور إتيانه .

أَجَرْتُمْ فَلَمَّا أَنْ أَجَرْتُمْ غَدَرْتُمْ وَكُنْتُمْ بِأَكْثَافِ الرَّجِيعِ لَهَاذِمًا ^(١)
فَلَيْتَ خُبَيْبًا لَمْ تَخْنَهُ أَمَانَةً وَلَيْتَ خُبَيْبًا كَانَ بِالْقَوْمِ عَالِمًا

لقد طور حسان من المراثي ، فاستبدل ببكاء الأثافي (معارض القدر) وبقايا الديار الدارسة ، المسجد والمصلي والبيت والمجلس والأماكن التي كانت للنبي ﷺ بها ذكريات ، فذكر معالم لها صلة بالفقيد وبكى هذه الديار والمعالم ولم يقل إلا خيراً ، وقد أطال من الوقوف على قبره وجعل القبر بديلاً للطلل ، ودعا لقبره بالبركة ولم يدع بنزول المطر على ما كان يدعوا به الجاهليون .

وقد تأثر حسان بالقرآن الكريم لفظاً وأسلوباً ومعنى ؛ فأسلوبه سلس سهل ليس فيه تكلف ، ولفظه واضح ليس بغريب ولا وحشي وبعض معانيه إسلامية مولده .

وقد استمرت في قصيدته تقاليد مراثي الجاهلية ومنها بكاء الديار التي تركها الميت وما بقي من رسمها ، والبكاء على القبر ، وبكاء الفقيد ، وقد أعانته عيون على البكاء تضامناً معه ، وأهرق الدمع حزناً عليها ، ودعا غيره إلى البكاء والمشاركة في الحزن ، وأطال الوقوف على قبره مثلما كان يطيل الوقوف على الطلل ، ودعا بالبركة للقبر ولساكنه وللمدينة التي دفن بها ، ودعا للحدود وذكر الحجر المعد ليكون غطاء ومعلماً على القبر .

(١) لهاذما : ترو هذه الكلمة بالذال المعجمة ، وبالزاي ، فمن رواه بالذال المعجمة فإتما أراد به الشجعان ، ومنه يقال : سيف لهزم ، إذا كان قاطعاً ، يعبرهم بأنهم خرجوا بقضهم وقضيضهم على جماعة قليلة العدد قد أجاروهم فأمنوا لهم ، فتشاجروا عليهم ، ومن رواه بالزاي فإتما أراد به أنهم جنباء ضعفاء ، وأصل اللهزمة بضيغة في أصل الحنك .

الهجاء

الهجاء ذكر ما يكره الإنسان عن نفسه بما يتنافى مع العدل والمروءة. وهو غرض من أغراض الشعر العربي ، وقد نشأ في الجاهلية ، وكان العرب يتطيرون منه ويتساءمون ، ويخشون وقوعه عليهم لئلا يفضحون به في الناس، فيعبرونهم به. ولشعر الهجاء وقع في الحياة الاجتماعية وأثر لا يمحوه إلا شعر مثله يعلو عليه ، وقد رفع الشاعر بمدحه قوماً ، ووضع هجاؤه من آخرين فجعلهم سبة في الناس . وقد اشتهرت أبيات لما جرى على رسمها ومضى على حكمها .

قد كان بنو أنف الناقة^(١) (اسم قبيلة) يستحيون من اسمهم ونسبهم إليها، وكانوا يغضبون إن ذكر اسم أنف الناقة أو أن ينسبهم إليه أحد ، وكان ذلك حالهم حتى عرف الحطيئة ذلك فيهم، وقد أكرموه فرفع عنهم ما هم فيه بقوله مادحاً:

سيرى أمام فإن الأكثرين حصى
والأطيبين إذا ما ينسبون أباً
قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم
شدوا العناج وشدوا فوقه الكرباً
قوم هم الأنف والأذنان غيرهم
ومن يسوي بين أنف الناقة الذنبا

فصار أحدهم إذا سئل عن انتسابه لم يبدأ إلا به. وقد أذل الشعر رقاباً في الجاهلية ، فوضع من قوم لهم شرف في الناس ، فأصابهم خزي وعار ببيت شعر أو أكثر هجاهم به شاعر سليط مفوه ، فصاروا سبة يسخر منهم الناس ، فقط كان للهجاء وقع السيف والنبيل في نفوس العرب ، فهو سلاح آخر في معاركهم لا يملكه إلا الشعراء المجيدون، فالشاعر يعد لسانه للضرب، ويشحذه ويصقله ، وهو مدجج تام السلام، وقد ارتدى درعه لئلا يدركه شيء من عدوة، فالشعر رمح ودرع، في معارك الكلام، قال عبد قيس بن خفاف البرجمي:

فأصبحت أعددت للنائب
ت عرضاً بريئاً وعضباً صقيلاً^(٢)
ووقع لسان كحد السنان
ورمحا طويل القناة عسولاً
كما الغدير رفته الدبور
يجر المدجج منها فضولاً

وقد كانت عكاظ سوق تجارية وأدبية يجتمع فيها الشعراء يتناشدون الشعر، ويسمعهم

(١) زهر الآداب جـ ١/١٩. وأنف الناقة لقب جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم، وقد أطلق عليه هذا الاسم، لأن أباه نحر ناقة وقسمها بين نسانه، فأرسلت به أمه إلى أبيه فكان قسمه منها الرأس والعنق، فأمسك بالأنف فجراها إلى أمه، فرأى قومه ذلك فعرف به .

(٢) المفضلين جـ ١/٣٥٧ - ٣٦٣ . العضب : السيف القاطع، والصقيل : المصقول الحاد. الدبور : ريح غربية تقابل الصبا. المدجج : تام السلاح . جر منها فضولاً: كناية عن أنها سابعة تفضل عن أطرافه.

من حضر السوق من العرب ، وكان الهجاءون ينشدون أهاجيهم فيها لتذيع في العرب ،
ويبلغ مداها أقاصي الجزيرة فيصيبوا خصومهم في مقتل .

وكان بعكاظ شجرة عظيمة يحضرها الشعراء ، ويضربون القباب حولها ، وكان
الشعراء يحضرون السوق مع قوافلهم ، وقد عرفت هذه الشجرة (السَّرْحَة) في شعر
الجاهلية قال راشد بن شهاب البشكري مهددا قيس بن مسعود الشيباني:

ولا تُوعِدْنِي إِنِّي إِن تَلَأَقِي مَعِي مَشْرِفِي فِي مُضَارِبِهِ قَضَمَ
وَذِمُّ يَغْشَى الْمَرْءَ خَزِيًّا وَرَهْطَهُ لَدَى السَّرْحَةِ الْعِشَاءِ فِي ظِلِّهَا الْأَذَمُ^(١)

يقول : لا تهددني فإن معي سيف فيه فلول من كثرة الطعن ، وأستطيع أن أذمك
وأهجوك وقومك عند شجرة " السرحة " هجاء لاذعا يلحقك أنت وقومك ذلا وعارا تفضحون
به في العرب حيث تقام القباب في ظلها . وكان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ،
ويتشرفون بهذا الاسم ، وقد سمي به جدهم عبد الله بن كعب لتعجيله القرى للضيوف ، فقد
نزل عليه حي من طيئ ، فبعث إليهم بقراهم عبدا له ، وقال له : اعجل عليهم ، ففعل العبد
فأعنته بعجلته ، فأطلقوا عليه العجلان ، لعجلته في ضيافتهم ، وهي مبالغة من عجل ،
فكان هذا اللقب شرفاً له ولبنيه حتى هجاهم قيس بن عمرو بن مالك بن حزن بن الحارث
بن كعب المعروف بالنجاشي، فقال^(٢):

أولئك أحوال اللعين وأسرة الـ هجين ورهط الواهن المتذلل

وما سُمِّي العجلان إلا لقوله خذ القعب وأحلب أيها العبد واعجل

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبة فقال : كعبي، ولا يقول عجلان لما قاله النجاشي
فيه . وقد أدرك المتقدمون وقع الشعر وأثره في حياة العرب العامة ، فقد بني الشعر لقوم
بيوتا شريفة ، وهدم لآخرين أبنية منيفة ، فهو كما قال القائل^(٣) :

وما هو إلا لقول يسري فتغتدي له غُرَّرٌ في أوجه ومواسم

وقد سمع أبو عمرو بن العلاء رجلاً يقول : إنما الشعر كالميسم، فقال أبو عمر : وكيف
يكون؟ ذلك يذهب بذهاب الجلد ، ويدرس مع طول العهد ، والشعر يبقى على الأبناء بعد
الآباء، ما بقيت الأرض والسماء وقد عبر عن هذا المعنى الطائي^(٤) بقوله :

(١) المفضليات ص ٣٠٨ المشرفي : السيف . قضم : فلول من كثرة الطعن . السَّرْحَة العِشَاء : الشجرة

الخفيفة ، وهي شجرة معمرة .

(٢) زهر الآداب جـ ١ / ١٩ .

(٣) زهر الآداب جـ ١ / ٢٢ .

(٤) زهر الآداب جـ ١ / ٢٣ .

وأني رأيت الوسم في خلق الفتى هو الوسم لا ما كان في الشعر والجلد
وقد تغير فن الهجاء في الإسلام ، فقد ترك شعراء الإسلام بعض سلوك الجاهلية ، فكان
الشاعر يرتدي حلة خاصة إذا أراد الهجاء ، تشبه حلل الكهان ، ويحلق بعض رأسه ،
وينتعل نعلا واحدا ، فيشبه سدنة المعبد والحجيج ليرهب من يهجوهم ، وأنه سينزل عليه
اللعنات وشر عظيم .

وكان الشاعر يدعي أن لشعره فعل السحر ، وأنه سوف يدنس العرض وسيلحق
الرجس والإثم وغير ذلك . ولكن شعراء الإسلام تعرضوا لسوء الخلق فيمن يهجونهم ،
ويعيرونها بالشرك وأن مثواهم النار ، ويفتخرون بإيمانهم عليهم ، ويعيرونها ببعض ما
في أنسابهم ، وبعض سقطاتهم ، وما فيهم من فاحشة أو مظالم ، ولا يدعون فيهم ما ليس
فيهم ، بل يهجون ما هو كائن فيهم ، ولا يطعنون في أعراضهم إلا ما طعن فيه ،
ويتعففون عن البذاءة وسوء الخلق . وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى:
﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]

نزل في هجاء شعراء المشركين والإباحيين وامتدح الله تعالى المؤمنين منهم فقالوا: ﴿إِلَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ، وقيل إن الله تعالى أرخص
للمؤمنين في هجاء من تعرض لهم من المشركين بمثل قولهم فليسوا من الغاوين .

وقد هجا المشركون النبي ﷺ أولا بعد الهجرة ، وروى تميم الخزاعي أن رجلا أتى
النبي ﷺ ، فقال يا رسول الله ، إن أبا سفيان [بن الحارث بن عبد المطلب] يهجوك : فقال
رسول الله ﷺ : اللهم إنه هجائي ، وإني لا أقول الشعر ، فاهجه عني ، فقام إليه عبد الله
بن رواحه ، فقال : يا رسول الله إيدن لي فيه ، فقال : أنت القائل : فثبت الله ما آتاك من
حسن ؟ قال : نعم : قال : وإياك فثبت^(١) الله .

ثم قام إليه كعب بن مالك ، فقال : يا رسول الله إيدن لي فيه ، فقال : أنت القائل "
هممت ؟ قال : نعم .

قال : لست له ، ثم قام حسان بن ثابت ، فقال : يا رسول الله ، إيدن لي فيه ، فقال قصيدة
التي أولها^(٢) :

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء

(١) ارجع إلى : فتح الباري ج ١٠ / ٦٢٥ والعقد الفريد ٥ / ٢٩٥

(٢) ارجع إلى صحيح مسلم كتاب الشعر .

وقيل إن شعر حسان كان أقوى عليهم وهم مشركون فلما أسلموا، أوجعهم شعر عبد الله بن رواحة ، لأنه كان يعيرهم بكفرهم.

وقد وجه النبي ﷺ الشعراء من أصحابه ﷺ وسلم إلى أن يصيبوا من المشركين مثلما أصابوا منهم ، وألا يجوروا في أخذ الحق، فكانوا يردون عليهم قولهم بالمثل دون أن يكذبوا عليهم ، أو يصيبوا أحدا مما لم يؤذ المسلمين بلسانه أو بفعله بيد أن شعر شعراء المسلمين كان أقوى أثرا بما فيه من دعائم حجبية ولفظية واسلوبية.

وكان النبي ﷺ لا يبدأهم بالعدوان، ولا يستعديهم على المسلمين، بل هم بادروا بهجائه وهجاء المسلمين.

ونالوا من الإسلام، ولم يسب لهم عرضا ولا آلهة لنلا يسبوا الله تعالى:
﴿لَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[الأنعام: ١٠٨].

فهم بدأوا المسلمين دخل من رجل من أهل اليمن مسجد الكوفة ، فإذا بعمار بن ياسر ورجل ينشده هجاء معاوية وعمرو بن العاص، وهو يقول: ألصق بالعجوزين [يريد معاوية وعمرا، أي سدد هجاءك إليهما وألصقه بهما] فقال الرجل: سبحان الله " أتقول هذا وأنتم أصحاب محمد ﷺ ؟ قال: إن شئت فاجلس، وإن شئت فذهب، فجلست، فقال: أتدري ما كان يقول لنا رسول الله ﷺ لما هجانا أهل مكة ؟" قال لا أدري. قال: " كان يقول لنا: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم ^(١) ".

وقد جاء في بعض السور المكية قبل الهجرة نقد لاذع وذم لما كان عليه المشركون من وثنية وخلق مشين ومظالم لا يتورعون عنها.

وكان لها وقع شديد على أنفسهم فاق أثر الشعر فيهم، وقد خص القرآن الكريم ابا لهب وزوجه، قال تعالى:

﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْمِي لَهْبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَبَيْصَلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهْبٍ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد].

(١) ارجع إلى فتح الباري جـ ١٠ / ٦٢٥، والعقد الفريد جـ ٥ / ٢٩٥ وكان عمار بن ياسر حليف على رضي الله عنهما في الفتنة ، وقتل فيها ، وقتلته فنة معاوية رضي الله عنه ، فعلم الناس أنها الباغية لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار في حفر الخندق " تقتلك الفنة الباغية " .

وروى أن أم جميل حمالة الحطب زوج^(١) أبي جهل حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أنت رسول الله ﷺ، وهو جالس عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر^(٢) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إنني لشاعره، ثم قالت:

مَذْمُومًا عَصِينَا وَأَمْرَهُ أَبِينَا وَدِينَهُ قَلِينَا

ثم انصرفت، فقالت أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال ما رأيته لقد أخذ الله ببصرها عني^(٣). وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مذمما ثم يسبونهم، فكان رسول الله ﷺ يقول: "ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش، ويسبون ويهجون مذمما، وأنا محمد^(٤)". فحمل معنى الذم على غيره ولم يحمله على نفسه، فليس مذمما بل محمداً، وكانت قريش تقصده به، فلم يحمله على نفسه.

وكان المشركون يعدون تعريض القرآن بهم وذمهم هجاء. فقد أكد الروايات أن أم جميل تأذت من ذم القرآن لها وغيرها الناس بذلك، وعدت ما نزل به القرآن هجاء، روى أنها قالت: "يا أبا بكر هجائي صاحبك، قال: لا ورب هذا البنية، ما ينطق بالشعر ولا يفوه به، قالت: "إنك لمصدق^(٥)".

وقد نزلت آيات أخرى في ذم بعض المشركين ومنها قوله تعالى: ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ وَفِجِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] قيل نزلت في الوليد بن المغيرة وقيل الأسود بن عبد يغوث، وقيل الأخنس بن شريق، وقيل غير ذلك، وزنيم: المعروف بالشر، وقيل المعلق في القوم ليس منهم أو من ادعى نسباً^(٦).

(1) فتح الباري كتاب التفسير ج ٨ / ٦٥١ - ٦٥٢، والزمخشري في الكشاف ج ٤ / ٦٤٨. وأبو لهب: عبد العزى بن عبد المطلب، عم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد طلب منه أخوه أبو طالب أن يعضد ابن أخيه محمد ففعل بعد موته، ولكنه كرهه عندما سألته عن آباءه، فقال على غير دين، فغضب لذلك وعاداه، وقد مات غما بعد بدر.

(2) الفهر: حجارة على مقدار ملء الكف.

(3) السيرة ج ١ / ٣٧٩ وأم جميل: العوراء بنت حرب بن أمية — قلينا: أبغضنا.

(4) رواه البخاري.

(5) رواه البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما، فتح الباري ج ٨ / ٦٥٣ وروى عن زيد بن أرقم أنها قالت للنبي ﷺ: "هل رأيته أحمل حطبا، أو رأيته في جدي حبلا" وذلك لما قيل لها إن محمداً هجأك.

(6) فتح الباري ج ٨ / ٥٦٦ وقال الشاعر: زنيم ليس يعرف من أبوه.

وقد عسدت الآيات خصال الذم: (وَلَا تُطِمْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّا زِ مَشَاءَ
يَنْوَبِيمِ (١١) مَنَامٍ لِلْخَبِيرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) [القلم]
وهذه مثالب ونقائص وأشدها على من قيلت فيه (زنيم) و تعني دعى ، وقد جاء في بعض
الروايات أنها نزلت في الوليد، وقيل عنه إنه كان دعى ادعاه أبوه بعد مولده، وقيل غير
ذلك ، وقد هجاه حسان رضي الله عنه بذلك فقال:

وأنت زنيم ينيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

يقول : وأنت دعى ملحق ببني هاشم تذكر في آخرهم ، كما يأتي القدح خلف الراكب لا
يذكر إلا عند الحاجة إليه^(١). وقال للوليد بن المغيرة أيضاً^(٢):

مَتَى تُنْسَبُ قُرَيْشٌ أَوْ تُحْصَلُ	فَمَا لَكَ فِي أُرُومَتِهَا نِصَابُ ^(٣)
نَفْتِكَ بَنُو هُصَيْنٍ عَنْ أَبِيهَا	لَشَجَعٍ حَيْثُ تُسْتَرَقُ الْعِيَابُ ^(٤)
وَأَنْتَ ابْنُ الْمَغِيرَةِ ، عَبْدُ شَوْلٍ	قَدْ أُنْدَبَ حَبْلُ عَاتِقِكَ الْوَطَابُ ^(٥)
إِذَا عَدَّ الْأَطْيَابُ مِنْ قُرَيْشٍ	تَلَاَقَتْ دُونَ نِسْبَتِكُمْ كِلَابُ ^(٦)
وَعِمْرَانُ بْنُ مَخْزُومٍ فَدَعَهَا	هُنَاكَ السَّرُّ وَالْحَسَبُ اللَّبَابُ ^(٧)

وكان حسان يسل الرجل من مشركي قريش ، فيجعله وحيداً ، ثم يسدد سهامه إلى ذات
الرجل دون أن يصيب شيئا من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيذكر أبويه وما لهم
من نسب دخيل على قريش ، فيصفه بالجبن والبخل ، والتفاعس والخسة قال حسان في
هجاه بني سهم بن عمرو^(٨):

(١) ارجع إلى الكشف جـ ٤ / ٤٤٢ ، ٤٤٣

(٢) قال محقق الديوان : لا نعلم إن كان الوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد نفسه أو ابنه الوليد بن الوليد
بن المغيرة أخو خالد بن الوليد ؟ أما الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي فقد حضر معركة بدر مع
المشركين وأسر ، وافتداه أخواه هشام وخالد وبعد الفداء أسلم . الديوان ص ٦٠ .

(٣) تحصل : تميز أو تبين — الأرومة : بضم الهمزة وفتحها : الأصل ، وكذلك معنى النصاب .

(٤) هو هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب — شجع : قبيلة من كنانة وتسرق من السرقة ، والعياب جمع
عيبة ؛ أو عيبة من الجلد توضع فيها الثياب .

(٥) عبد شول : راعي إبل — أندب : ترك فيه ندبة ، وهو أثر جرح باق في الجلد ، العاتق : ما بين المنكب
والعنق ، الوطاب : سقاء اللبن ، يقول حسان : إنه راع يحمل الوطاب على عاتقه فأثر ذلك فيه .

(٦) الأطياب : الخيار جمع أطيب ، والمعنى واضح

(٧) السر : المروءة والكرم والفضل ، الحسب اللباب : الخالص غير المشوب .

(٨) الديوان ص ١٣٦ .

لولا النبي، وقول الحق مغضبة لما تركت لكم أنثى ولا ذكراً
 وجاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يأمر حسان أن يذهب إلى أبي بكر فيتزود منه ببعض
 هئات المشركين ونقائصهم ، ويعلم منه أنسابهم ، وقد حدث ذلك في هجاء حسان أبا
 سفيان بن الحارث ، فلما سمع أبو سفيان هجاء حسان علم أنه اطلع على عورته مما علمه
 من أبي بكر ﷺ، فحسان لم يك عالماً بما تخفيه قريش عن نفسها، وليس عليه إلا أن
 يصيغ هذه المضامين شعراً، وقد استطاع حسان أن يدرك دوره في المعركة وأن يتخير آلة
 الحرب التي تصيب هدفها وقد كان دقيق الملاحظة فكان لا يخطئ هدفاً، وكانت تصويباته
 ترضي رسول الله ﷺ ، وقد شفى حسان بهجائه المشركين وأشفى صدر رسول الله ﷺ ،
 وكان النبي ﷺ يحثه على هجائهم ومهاجتهم ، وأبلغه أن جبريل معه ، وهو ينافع عن
 رسول الله ﷺ.

وكان يشاركه في هجائهم كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وكان
 حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان
 عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه وأنه ليس فيهم أشر من الكفر ، فكان شعر
 حسان وكعب أشد عليهم في كفرهم ، فلما أسلموا كان شعر بن رواحة أشد عليهم من شعر
 حسان وكعب^(١).

وكان حسان واعياً بما لشعره من دور في الصراع بين الإسلام والمشركين ، فالشعر
 سلاح آخر في المعركة ، وله أثر غائر لا يمحي بمرور الزمن ، فجرح اللسان ليس كجرح
 اليد ، قال حسان معرضاً بالمشركين^(٢):

لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء
 فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

فالشعر كان يجاسر السلاح في المعارك ، وكان له فيها ضرب السيف ووقع النبل .
 ولقد أذن النبي ﷺ الشعراء المسلمين في الرد على هجاء المشركين بعد أن آذوا
 المسلمين ونالوا من أعراض المسلمين في الرد على هجاء المشركين بعد أن آذوا
 الله عليه وسلم قال : اهجوا قريشا ، فإنه أشد عليها من رشق النبل ، فأرسل إلي ابن
 رواحة ، فقال أهجم ، فلم يرض ، فأرسل إلى كعب بن مالك ، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت ،
 فلما دخل عليه ، قال حسان : آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدع لسانه

(١) ارجع إلى الأغاني جـ ٢٨/٥ .

(٢) الديوان ص ٥١ .

فجعل يحركه، فقال : والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فرى الأديم^(١) . فقال رسول الله ﷺ : لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك نسبي ، فاتاه حسان ثم رجع ، فقال يا رسول الله قد لخص لي نسبك ، والذي بعثك بالحق لأسلئك منهم كما تسأل الشعرة من العجين، قالت عائشة، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان: " إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "هجاهم حسان فشفي واشتفى". قال حسان: [مخاطبا شاعر المشركين، ولم تذكره الراوية، وجاء في أخرى أنه أبو سفيان بن الحارث]^(٢):

هجوت محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء ^(٣)
هجوت محمداً برأ حنيفاً	رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي	لعرض محمد منكم وقاء
ثكلت بُنييتي إن لم تروها	تثير النقع من كنفي كداء
يُبارين الأعنة مُصنعات	على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات	تلطمهن بالخمر النساء
فإن اعترضتمونا عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لضراب يوم	يعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبداً	يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد يسرتُ جنداً	هم الأنصار عرضتها اللقاء

(١) الرشق : الرمي ، وهو اسم للنبل التي ترمى دفعة واحدة - النكاية : الإغلاظ ، أن لكم : حان لكم : الذنب يراد به : اللسان ، شبه حسان نفسه في انتقامه بالأسد في انتقامه وبطشه إذا اغتاظ ، فيضرب بذنبه جنبه = كما فعل حسان حين أدلع لسانه ، فجعل يحركه فشبه نفسه بالأسد ولسانه بذنبه ، ودلع لسانه وأدله ودلع اللسان بنفسه: أخرجه عن شفتيه - فرى : مزق ، الأديم : الجلد ، يروى : لأمزقن أعراضهن تمزيق الجلد .

(٢) كان أبو بكر رضي الله عنه عالماً بالأنساب ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم حسان نسبه من أبي بكر لئلا يصيبه بهجائه ، وأقسم حسان ألا يمس نسبه بسوء ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم حسان أن جبريل عليه السلام يؤيده في دفاعه عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أرضى حسان النبي صلى الله عليه وسلم وشفى صدره وطيب نفسه وأرضاه ، واشتفى بما ناله من أعراض المشركين فمزقها كما يمزق الجلد ، ونافح عن الإسلام وأهله .

(٣) ديوان حسان ص ١٧ وهي قصيدة طويلة روى الإمام مسلم بعضها منها، ولم تأت المقدمة في رواية مسلم، وهي مقدمة غزلية خمرية.

يَلْقَى كُلَّ يَوْمٍ مَعَدَّ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا
سَبَابٌ أَوْ قَتَالٌ أَوْ هَجَاءٌ
وَيَمْدَحُهُ وَيُنْصِرُهُ سَوَاءٌ
وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ^(١)

وقد رواه مسلم برواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها أن حسان رضي الله عنه استئذن النبي ﷺ في هجاء أبو سفيان بن الحارث ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كيف بقرابتي منه؟" ، قال: والذي أكرمك لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من الخميرة، فقال حسان^(٢):

وإن سنام المجلد من آل هاشم
بنو بيت مخزوم ووالدك العبد

وبعده بيت لم يروه مسلم ، وبه تتم الفائدة ، وهو :

ومن ولدت أبناء زهرة منهمو
كرام ولم يقرب عجائزك المجد

وهذه القصيدة في رواية ابن هشام ثمان وعشرون، وهي الرواية التي اعتمدنا عليها في الشرح.

(١) معاني الكلمات : حنيفا : المائل إلى الخير ، وقيل التابع لملة إبراهيم - شيمته الوفاء : خلقه الوفاء ، والبر: من البر وهو المتسع في الإحسان ، تأثير النقع : ترفع الغبار وتهيج ، ويريد شدة السيرة وكثرة الجند ، كنفي كداء : جاني كداء وكداء موضع بمدخل مكة ، يبارين الأعنة : يريد الخيل الشديدة الصارمة التي تنازع راكبيها ، وقيل إن قوامها واعتدالها تضاهي به الأسنة في رواية يبارين (الأسنة) وهي الرماح ، وفي رواية يبارعن الأعنة ، مصعدات : مقبلات إليكم ومتوجهات ، وأصعد في الأرض : إذا ذهب فيها مبتدأ أو لا يقال للراجع مصعد ، على أكتافها الأسل : فوق أكتافها الرماح الرقاق - الظماء : الرقاق : يريد أنها تريد أن ترتوي من شدة عطشها من دماهم ، ممطرات : مسرعات بعضها يسبق بعض .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه ج ١٦ / ٤٧ — وبنت مخزوم فاطمة بنت عمرو بن مخزوم أم عبد الله والزبير وأبي طالب ، وهي جدة النبي لأبيه ، وقد ولدت هالة بنت وهب بن عبد عناق بن زهرة حمزة وصفية رضي الله عنها ، وأم الحارث والد أبي سفيان سمية بنت موهب ، وموهب غلام لبني عبد مناف ، يريد أنه من نسب العبيد .

وقد بدأها حسان رضي الله عنه بمقدمة غزلية أولها :

عفت ذات الأصابع فالجِواء^(١) إلى عذراء منزّلها خلاء

واستغرقت عشرة أبيات ، ثم دخل في موضوع القصيدة ، وقد ذكر فيه العمرة والفتح ، وهذا يحدد لنا زمن قيلها قبيل الفتح ، وقد تناول الفتح ثم مدح المسلمين ثم خص قومه الأنصار بالمدح فوصفهم بالشجاعة والإقدام ، وأنهم نصرّوا رسول الله ، والوحي ينزل فيهم ، ثم هجا أبا سفيان بن الحرث ، ونذكر لك القصيدة كاملة للتّم بها الفائدة ، قال حسان رضي الله عنه^(٢) :

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ	إِلَى عَذْرَاءٍ مَنَزَلُهَا خَلَاءُ ^(٣)
دِيَارَ مَنْ بَنَى الْحَسْحَاسِ قَفْرُ	تُعْفَى الرُّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ ^(٤)
وَكَاثَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيَسُ	خِلَالَ مَرْوَجِهَا نَعْمَ وَشَاءُ ^(٥)
فَدَغَ هَذَا وَلَكِنْ مِنْ لَطِيفِ	يُورِقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ ^(٦)
لِشَعْنَاءِ الَّتِي قَدْ تَيَمَّنَتْهُ	فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ ^(٧)
كَأَنَّ خَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسِ	يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ ^(٨)

- (1) الجِواء موضع بالشام . وهو منزل الحرث بن أبي شمر الغساني ، وعذراء : مكان قريب من دمشق .
- (2) أرجع إلى ديوان ، تحقيق وليد عرفات ، صادر ، بيروت ص ١٧ ، السيرة النبوية ج ٤ / ٤٤ ، ٤٥
- (3) عفت : درست وتغيرت ، وذات الأصابع ، والجِواء : موضعان في بلاد الشام بأكناف دمشق ، وعذراء : موضع على برود من دمشق ، وهذه المواضع كانت بها منازل بني جفنة ملوك غسان الذين كان ينجعهم حسان رضي الله عنه في أيام الجاهلية ، فهو لا يفتأ يذكرها ، ومنزلها : إنما أفرد ؛ لأنه حين أضافه فقد أذن بعمومه ، وخلاء : قفر خال .
- (4) الحسحاس هنا وصف وليس علما ، والحسحاس : الرجل الجواد الذي يطرد الجوع بسخائه ، وقفر : موحشة خالية ، والروامس : الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار : أي طمسها وتعفيها ، والسماء : أراد به هنا المطر .
- (5) المروج : جمع مرج ، وهو الأرض الواسعة ذات الكلأ ، والنعم : الإبل ، وهم يخصون الإبل بهذا الاسم ؛ لأنها أكثر أموالهم ، والشاء : الغنم .
- (6) اللطيف : الخيال الذي يلهم في النوم ، ويورقني : يسهرني ويذهب نومي وقوله " إذا ذهب العشاء " أراد إذا حان موعد النوم .
- (7) شعناء : قيل هي بنت سلام بن مشكم ، وقيل : هي امرأة من خزاعة ، وأراها رمزا تقليديا لاتعنى امرأة معروفة ، وتيمته : أي استولت على قلبه وذلّته وذهبت به كل مذهب .
- (8) خبيثة : مخبوءة ، ويروي في مكانه " سينة " ، والمراد على أية حال الخمر ، وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر ، وفي الديوان بعد هذا البيت قوله :

على أنيابها أو طعم غض من التفاح هصرّة الجناء

إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا
نُؤْيِيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أَلْمَنَّا
فَهُنَّ لِطَيْبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ^(١)
إِذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أَوْ لَحَاءٌ^(٢)
وَأَسْدًا مَا يَنْهِنُنَهَا اللَّقَاءُ^(٣)

بدأ حسان رضي الله عنه بمقدمة طليله بكى فيها ديار بني الحسحاس التي كانت تسكنها حبيبته "شعناء"، وقد تيمت قلبه وأرقت نومه ، وليس لقلبه من حبها شفاء ، وقد لجأ إلى الخمر المزوجة بالعسل والماء يتداوى بها من ألم حبها. فإذا شربها غاب عن وعيه ونسى ما به من ألم الحب وأعطيته شعورا واهماً أنه صار ملكاً على الناس ، وأسداً في المعركة فلا يهاب لقاء العدو. وقد أثارت هذه المقدمة جدلاً بين العلماء لما ذكر فيها من غزل في شعناء التي قيل عنها إنها بنت سلام بن مشكم اليهودي ، وقيل هي من خزاعة ، والمتفق عليه أن ذلك قبل إسلامه وذكر الخمر وأثرها في نفسه عندما يشربها ، وهي مما حرمه الإسلام فقيل إنها قيلت في الجاهلية وأكملت في الإسلام .

وأرى أنها ليست إلا تقليداً لما كانت عليه افتتاحية القصيدة في الجاهلية ، وهي مثل الافتتاحات الدينية التي ابتدأ بها القصاص قصصهم في الإسلام ، وليست إلى تمهيدا للدخول إلى موضوع القصيدة، ولم ترو كتب الحديث هذه المقدمة.

وقد أحسن حسان التخلص منها ، ودخل إلى موضوع القصيدة ، فالخمر تتركهم ملوكاً وأسداً في المعارك لا يهابون لقاء العدو ، ثم قال موجهاً خطابه إلى مشركي مكة :

عَدَمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
يُنَازِعَنَّ الْأَعْنَةَ مُصْغِيَّاتٍ
تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كَدَاءُ^(٤)
عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الْظَّمَاءُ^(٥)
يَلْطَمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النِّسَاءُ^(٦)
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطَّرَاتٍ

(1) يريد إذا ذكرت الاشربة فهذه الخمر أفضلها .

(2) ألمنا : أتينا ما نلام عليه ، والمغث : الشر والقتال ، وهو الأخذ باليد ، واللحاء : السباب والشتيم ، يقول : إننا ننسب إلى الخمر ما يكون منا إذا شربناها مما يستحق اللوم .

(3) ينهنها : يزجرنا ويردنا ، واللقاء أراد به لقاء الأعداء ، والمراد أنهم إذا شربوها لم يهابوا لقاء العدى .

(4) النقع : العبار ، وكداء : الثنية العليا بمكة ، مما يلي المقابر ، وهي المعلى .

(5) ينازعن بروي في مكانه (ببارين) والمراد أن الخيل تجاري الأعنة ، وذلك كناية عن لينها وسرعة انقيادها ، ومصغيات : مستمعات ، ويروى في مكانه (مصعدات) والأسل : الرماح ، الظلماء : العطاش .

(6) متمطرات : ذاهبة مسرعة يسبق بعضها بعضاً ، وتلطمهن : تضرب حدودهن لتردهن ، والخمر : جمع خمار ، وهو ما تغطي به المرأة وجهها ، وقد روى أن نساء مكة يوم الفتح ظلن يضربن بخمارهن وجهه الخيل ليرددهن .

وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ^(١)
يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ^(٢)
وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ^(٣)
يَقُولُ الْحَقُّ إِنَّ نَفْعَ الْبَلَاءِ^(٤)
فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
هُمُ الْأَنْصَارُ عَرْضَتْهَا اللَّقَاءُ^(٥)
سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هَجَاءُ
وَتَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ^(٦)
مُغْلَغَلَةٌ فَقَدْ بَرَحَ الْخَفَاءُ^(٧)
وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ^(٨)
فَشَرُّكُمْ مَا لَخِيرُكُمْ مَا الْفِدَاءُ
أَمِينَ اللَّهُ شَيْمَتُهُ الْوَقَاءُ^(٩)
وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ^(١٠)
لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

فَإِمَّا تُغْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا
وَالْأَفَاصِنِيزُوا لِجِلَادٍ يَوْمٍ
وَجَبْرِيلَ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدَقُوا
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدًا
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ
فَنَحْكُمُ بِالْقَوَائِي مِنْ هَجَانَا
أَلَا أَبْلِغُ أَبَا سَفِيَّانَ عَنِّي
بِأَنْ سَيُوفِنَا تَرَكْتِكَ عَبْدًا
هَجَوْتُ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَهْجُوهُ وَأَسْتَلِيهِ بِكُفَاءٍ
هَجَوْتُ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا
أَمِنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
فَأَنْ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي

(1) اعتمرنا : أدينا مناسك العمرة ، وانكشف الغطاء : ظهر ما كان خفياً .

(2) الجلاد : المضاربة بالسيوف ، وقوله "يعين الله" يروى في مكانه "يعز الله" .

(3) أصل القدس طهارة ، والمراد بروح القدس جبريل عليه السلام ، وليس له كفاء : أي ليس له مثل ولا نظير ، يريد لا يقوم له أحد .

(4) أراد بالعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، البلاء : الاختبار .

(5) عرضتها اللقاء : أراد عاداتها التي جرت على أن تتعرض لعملها .

(6) نحكم : نمنع ، ومنه قول جرير :-

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبها

(7) مغلفة : الرسالة ترسل من بلد إلى بلد ، وقد روى في الديوان : ألا أبلغ أبا سفيان عني فانت مجوف
نخب هواء والمجوف : الجبان ، وأصله خالي الجوف ، والنخب والهواء مثله .

(8) الجزاء المكافأة على الشيء ، سواء أكان خيراً أم شراً ،

(9) الحنيف : أصله المائل ، مأخوذ من الحنف ، ويقال رجل أحنف وحنيف ، ورجال حنفاء ، و أراد بالحنيف
هنا المسلم ، لأنه مال عن الباطل إلى الحق ، ويروى في مكانه (حفي) ، وهو المبالغ في الشيء والبحث
عنه ، وشيمته : طبيعته .

(10) يريد أمن يهجو رسول الله ومن يمدحه سواء ؛ بدليل الأخبار عنه بسواء التي لا يخبر بها إلا عن متعدد ؛ فحذف الاسم الموصول المعطوف على الموصول وأبقى صلته .

لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَبَخْرِي لَا تَكْذَرُهُ الدَّلَاءُ^(١)

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ ، وكان يؤذيه ويؤذي المسلمين ويهجوه ويهجو المسلمين ويقلب عليه المشركين فاستئذنه حسان في الرد عليه وهجائه ، فأذن له على ألا يصيب قرابته منه .

فمدح حسان من آل هاشم بني بنت مخزوم ، وهي أم عبد الله أي النبي صلى الله عليه وسلم والزبير ، وأبي طالب أبي علي رضي الله عنه ، وهما عما رسول الله ﷺ :

وأم والد أبي سفيان بن الحارث هي سمية بنت موهب ، وكان موهب غلام لبنى عبد مناف وأم أبي سفيان كانت كذلك ، وهو المراد بقوله لم يقرب عجائزه ، فأمه وأم أبيه ابنتا عبيد . وقد تلتطف حسان رضي الله عنه في هجائه ولم يصب من نسب أبي سفيان شيئا له صلة بنسب رسول الله ﷺ^(٢) .

الشرح : قال حسان مخاطبا شاعر المشركين : هجوت محمدا ، وقد دافعت عنه ، وأبتغي بذلك الجزاء من الله تعالى ، ومحمد الذي هجوته هو البر المحسن الذي اجتمع الخير فيه والمنتزه عن المآثم ، والمستقيم المائل إلى الخير على ملة إبراهيم عليه السلام . وقد جعلت أبي وجدي وعرضي وفاء للنبي صلى الله عليه وسلم وأفيه بهم ، فجعلتهم وكل أمرى عرضة للذم فداء له .

ودعا على نفسه بفقد ابنته التي يحبها إن لم تدهمهم جيوش عظيمة تثير التراب والغبار لكثرتها تدخل عليكم مكة من كداء (باب من أبواب مكة) . ولن يصدها عنكم شيء ، ولن ترجع عنكم فهي ظمأي ، وتريد أن ترتوي من دمائكم ، وهذه الخيل تحمل على ظهورها رجال أصلاب أقوياء كالرماح ، وسوف تزيل النساء التراب بعد أن نوقع بكم هزيمة منكرة ، فهي خيل عزيزة كريمة . وليس أمامكم إلا أن تتركونا نعتمر ونفتح مكة وينجلي الأمر ، فإن لم تسلموا لنا وتقبلوا الفتح ، فاصبروا لحربنا وسوف يعز الله من يشاء .

ولقد أرسل الله تعالى نبيه وهو عبد من عباده يقول الحق دون مراة ، ومدح الشاعر قومه الأتصار فقال :

(١) أصل الصارم السيف القاطع ، فشبه به لسانه ، ويروي : " لسانِي صارم لا عتب فيه " .

(٢) وهو المراد من قوله " لأسئلك منهم كما تسأل الشعر من الخمير ، والخمير العجين وجاء بهذا اللفظ في رواية أخرى أي لأتلطفن في تخلص نسبك من هجوه بحيث لا يبقى جزء نسبك في نسبهم الذي ناله الهجو مثل الشعرة التي تسال من العجين ، لا يبقى منها شيء فيه بخلاف ما لو سلت من شيء ، صلب فإنها بما انقطعت منها فيه بقية . شرح النووي لصحيح مسلم ج ٤٨/١٦ .

وقد هيا الله تعالى لكم جنده الأتصار وهم جند يقبلون على الحرب ولا ينصرفون عنها ويحبون لقاءكم ، وهذا الجند يجاهد مشركي العرب ، ويلقي منهم السباب والقتال والهزاء لما يحدثه فيهم ، وليس مدحكم رسول الله أو هجاؤكم بشيء .
فقد شرفنا الله تعالى بنزول جبريل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم وهو منا وليس لجبريل عليه السلام نظير وكفاء مماثل ومقاوم فيكم .

وقال يهجو أبا سفيان بن الحارث :

إِنَّ السَّيِّئَاتِ وَإِنْ طَالَتْ شَطِيطَتُهُ يَعْتَادُ ذُرْوَتَهُ الْأَدْوَاءُ وَالْعَمَدُ^(١)
فَاللَّوْمُ فِيكَ وَفِي سَمَرَاءَ مَا بَقِيَتْ وَفِي سُمَيَّةَ حَتَّى يَنْفَدَ الْأَبْدُ^(٢)

وقد أوجع المشركين بهجائه فجعل الرجل منهم طائرا غريبا أو غصنا مريضا ضعيفا يهوى ، ثم يسدد أسهمه إلى الرجل منهم فما يقوم له ولا يثبت ، فتعرض لأخلاق الرجال فمزقها تمزيقا وأقذع القول فيهم ، فتألموا من وقع قوله ، وقد أغراه بهم صدق إيمانه ويقينه بالحق ، وحبه لله تعالى ورسوله ورضى رسول الله ﷺ عنه، وسروره بشعره فيهم .

وكان لليهود نصيب من هجاء شعراء المسلمين، فقد شاركوا المشركين في عداوة الإسلام، قال حسان في خيبر يهجوهم، ويعيرهم، وقد هزمهم المسلمون بها هزيمة منكرة^(٣).

بنس ما قاتلت خيابرُ عما جَمَعُوا مِنْ مَزَارِعٍ وَنَخِيلٍ
كرهوا الموت فاستبيح جماهمُ وَأَقْرُوا فِعْلَ اللَّئِيمِ الذَّلِيلِ
أَمْسِنَ الْمَوْتَ تَهْرَبُونَ فَإِنْ أَلِـ مَوْتَ مَوْتِ الْهَزَالِ غَيْرُ جَمِيلٍ

ويتميز شعر حسان بأنه ذو مسحة مدنية، فهو من يدخل في شعر أهل الحضر، فلا تجد فيه جلافة البادية وغلظتها وتكلفها، وغرابة ألفاظها ووحشيتها، فقد عاش حسان في يثرب، ثم الشام ثم العراق ثم عاد إلى الشام، فقد عاش في كنف الملوك والسادة وبين قومه الخزرج، وقد شاركهم في حربهم مع الأوس ولم يك مقاتلاً ولا من رجال الغزو، وإنما أخلص نفسه للشعر بيد أن ابن رواحه كان فارساً محارباً ثم شاعراً، وكان كعب بن مالك كذلك — رضى الله عنهم — وقد تأثر في الإسلام بالمضامين الإسلامية والقرآن الكريم وخطاب النبي ﷺ، وتأثر بالروح الإسلامية التي أظلت المسلمين وسكنت قلوبهم، فوقع في

(1) شطيته : جاتبه .

(2) سمراء : أم الحارث بن عبد المطلب — وسمية : أم أبي سفيان .

(3) السيرة جـ / ٣ / ٤٠١ .

شعره معاني قرآنية، ووظف فيه تراكيب قرآنية وولد معاني جديدة، وبه كثير من الألفاظ الإسلامية، وهي ألفاظ وقعت في لغة الجاهلين، واستخدمت في الإسلام بمعان جديدة، مثل : الإسلام، والكفر، والإيمان، العقيدة، الصلاة، الشريعة، النفاق، الصيام، الزكاة، الدعاء، النافلة، الحج، الشرك، الوثنية، الجهاد، الثواب، العقاب، الجنة، النار، القيامة، البعث... وغير ذلك من المفردات التي كساها الإسلام معنى جديداً فطور من دلالتها ووسعها ناهيك عما في قصائده من مضامين إسلامية تتعلق بالإيمان والتوحيد والشرك والموت والجنة والنار والجهاد .

وقد كان يرسل الشعر على سجيته فلا يتكلف، ولا يسرف في القول، فكان يرتجل شعره متأثراً بالموقف، فيستجيب له فيرسله على ما توحى به قريحته، ويرجع ذلك إلى طبيعة الموقف وسرعة الحدث وما أحدثه الإسلام من تغيير مفاجئ في حياة الناس، وكانت الحماسة الدينية تدفع حسان إلى الإسراع بالقول الذي تفيض به قريحته ، وكان صادقاً في إيمانه.

وكانت انفعالاته سبباً في انتقاله السريع من مقدمته أحياناً إلى الموضوع الرئيس، فكان الشاعر يطيل في مطلع القصيدة (المقدمة)، ويسترسل في موضوعها وما يصفه بيد أن حسان كان يمل هذا الطول ويلقي به، ويدخل في الموضوع:

واتخذ بعض المحدثين الانتقال السريع في شعر حسان مطعناً ، فقالوا إن قصيدته غير مرتبة أحياناً، وقد يكون بها خلل، وتفتقد إلى التسلسل المنطقي، وهذا شأن كثير من الشعر، وقد وقع اختلاف في ترتيب قصائد الشعر، في بعض الروايات، وقد وقع هذا في شعر مدرسة الصنعة، وسوف تجد في كتابنا إشارات إلى وقوع زيادات واختلاف في ترتيب قصيدة "بانت سعاد"، وهي لكعب بن زهير، وهو الرجل الثاني في مدرسة زهير التي كانت تراجع أشعارها وتحوكة وتحسنه وتصلح منه، وعرف عنها الدقة، وقصيدته التي مدح فيها الأنصار فيها زيادات واختلافات كثيرة، وقد دس عليه ما لم يقله.

وحمل على حسان بعض الدنيويين حملة شعواء، وهدفهم هدم المنزلة التي حظى بها عند رسول الله ﷺ، وعند المسلمين عامة، وإن كان شعره ضعيفاً عند قوم فهو عند رسول الله ﷺ جيش فتاك، وكان على المشركين كوقع النبل جملة واحدة.

إن حسان مؤسس مدرسة الشعر الديني، وقد أقام الحجاج والمناظرة في الإسلام بشعره، وهو أيضاً الذي جعل للشعر غاية دينية يبتغي بها وجه الله ورضاءه. وقد كان وحدة كفناً لشعراء المشركين جميعاً، فقد كان شعره أشد عليهم من السيف، وكان النبي ﷺ يعرف له ذلك .

الحماسة

الحماسة هي الشجاعة والشدة، ويراد بشعر الحماسة الشعر الذي يقال في الحروب يشد من أزر الجنود، ويقوي عزمهم ويدفع همتهم، فما وصف به من الشجاعة والشدة في الحرب يسمى حماسة وبسالة .

وقد بدأ شعر الحماسة في الجاهلية في القصائد التي قالتها العرب في أيامها وفخرها بالوقائع التي انتصرت فيها .

ويشكل الرجز جزءاً من شعر الحماسة، فقد ارتجز كثير من فرسان العرب، وهم في طريقهم إلى لقاء العدو، وهم يقاتلونه، وهو أبيات قليلة يرتجلها صاحبها من فيض خاطره وما يختلج فيه من مشاعر جياشة ويعيش لحظة صدق في لقاء العدو أو في موقف أو في ضائقة .

وقد صح عن النبي ﷺ شيء من ذلك، ومنه ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ والعباس وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهما آخذان بلجام بغلته، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب^(١)

وروي عن سفيان بن عيينة يرفعه إلى النبي ﷺ، أنه لما دخل الغار نكب، فقال:

هل أنت إلا إصبعٌ دَمِيت وفي سبيل الله ما لقيت^(٢).

وكان النبي ﷺ ينقل اللبن يوم الخندق ويقول :

(1) صحيح البخاري ، كتاب المغازي في غزوة حنين .

(2) العقد الفريد ج ٢٨٣/٥ .

وقد رأى الخليل بن أحمد وابن عبد ربه أن هذا من المنثور الذي يوافق الشعر، وقيل: هذا رجز وليس من أقسام الشعر، وقيل هو كلام موزون لا يقصد به الشعر، ولا يبلغ مقدار القصيدة. فتح الباري ج ٦٣٠/٧ وهذان البيتان لم تقع نسبتهما لأحد غير رسول الله ﷺ.

هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْرٍ هَذَا أَبْرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ (١)

ويقول:

اللهم إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فارحم الأنصار والمهاجرة
وقيل إنه تمثل بشعر رجل من المسلمين. وقال قاتل من المسلمين في الخندق:
لنن قعدنا والنبى يعمل
وقال على عليه السلام في ذلك (٢):
ذاك إذا للعمل المضلل

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

وكان على عليه السلام يرتجز إذا برز إلى القتال ويقول (٣):

أي يوم من الموت أفرُّ يوم لا يُقدر أم يوم قـدر
يوم لا يُقدر لا أرهبه ومن المقدور لا يتجو الحذر
وقال أبو زعنة بن عبد الله الخزرجي يوم أحد (٤):

أنا أبو زعنة يغدو بي الهُزَمُ لم تمنع المخزاة إلا بالألم

يحمي الذمار خزرجي من جُشَم

افتخر بنفسه وبفرسه (الهُزَم) الذي يغدو به في الحرب، ولا يمنع الإنسان عن نفسه العار إلا بمواجهة العدو وبالمعاناة والألم .

وكان لأبي دجانة عصابة يضعها على رأسه في الحروب و تعرف "عصابة الموت"، فخرج يوم أحد، وهو يقول ومعه سيف رسول الله ﷺ :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل (٥)

أن لا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

وكان للنساء دور في تسعير المعركة في الجاهلية، فكانت النساء تخرجن وتكن في عقب الجيش، وترتجزن الأشعار الحماسية، فقد كانت هند بنت عتبة ونسوة كن معها يوم

(1) صحيح البخاري ، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار، وفتح الباري ٢٨٢/٧ ، ٢٨٣ .

(2) فتح الباري جـ ٢٨٣/٧ .

(3) العقد الفريد جـ ٢٨٧/٥ .

(4) السيرة جـ ١٥٤/٣

(5) السيرة جـ ١٤/٣ . السفح: جانب الجبل ، الكيول : آخر الصفوف في الحرب .

أحد يضربن الدفوف خلف الرجال، ويحرصنهم، فقالت هند فيما تقول^(١):
 وبنها بني عبد الدار وبنها حماة الأدبار ضرباً بكل بتار
 وتقول^(٢):

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
 أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وقد كان شعراء عصر النبوة مجاهدين يقاتلون بالسيف والشعر معاً، وقد كانت أشعارهم الحماسية استجابة مباشرة عما جاشت به قريحتهم في الموقف الذي تأثرت به، وقد ألهم انتصار بدر قريحته الشعراء وغور بهم في ميدان الشعر، فصارت لهم الكلمة على شعراء قريش.

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه في انتصار بدر، ويفخر بالنبي ﷺ قائد المعركة^(٣):

مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الْمَادِي يَفْقَدُهُمْ	جَلَدُ النَّحِيزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رَعْدِيدٍ ^(٤)
أَعْنَى رَسُولَ إِلَهِ الْخَلْقِ فَضْلُهُ	عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَبِالْجُودِ
وَقَدْ زَعَمْتُمْ بَأَنْ تَحْمُوا ذِمَارَكُمْ	وَمَاءُ بَدْرِ زَعَمْتُمْ غَيْرُ مَوْرُودٍ ^(٥)
ثُمَّ وَرَدْنَا وَلَمْ نَسْمَعْ لِقَوْلِكُمْ	حَتَّى شَرِبْنَا رِوَاءَ غَيْرِ تَصْرِيدٍ ^(٦)
مُسْتَفْصِمِينَ بِحَبْلِ غَيْرِ مَنْجِذٍ	مُسْتَحْكِمٍ مِنْ حَبَالِ اللَّهِ مَمْدُودٍ ^(٧)
فِينَا الرَّسُولُ وَفِينَا الْحَقُّ نَتَّبِعُهُ	حَتَّى الْمَمَاتِ وَتَصْرَ غَيْرُ مَحْدُودٍ ^(٨)
وَإِذَا مَاضٍ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ	بَدْرٌ أَنْارَ عَلَى كُلِّ الْأَمَاجِيدِ ^(٩)

(1) السيرة جـ ١٣/٣ وبها: كلمة تحريض وإغراء، حماية الأدبار: الذين يحمون أعقاب الناس، البتار: السيف القاطع الماضي في ضربته.

(2) السيرة جـ ١٣/٣: النمارق: جمع نمرقة، وهي الوسادة الصغيرة، الوامق: المحب.

(3) ديوان ص ٨٤، وقد نسبها ابن إسحق إليه، ونسبها ابن هشام إلى عبد الله بن الحارث السهمي رضي الله عنه.

(4) مستشعري: لابس، تقول: استشعرت الثوب، إذا لبسته على جسمك من غير حاجز، ومنه الشعار وهو ما ولى الجسم من الثياب، ويقبله الدثار، وهو ما كان فوق ذلك، والمادى: الدروع اللينة البيض، والنحيزة: الطيبة، والرعيد: الجبان.

(5) الذمار - ككتاب - ما وجب على المرء أن يحميه.

(6) رواء: هو التملق من الماء، والتصريد: تقليل الشرب.

(7) المنجذم: المنقطع.

(8) المحدود: الممنوع.

(9) الأماجيد: الأشراف السادة.

لقد كان النبي ﷺ دعماً قوياً وعظيماً في المعركة، وهو مع أصحابه رضوان الله عنهم، ويأتون به، وكان يتقدمهم ويقدم لهم نموذجاً عظيماً في الشجاعة والقتال، فيحتمعون به إن اشتدت المعركة، ويتعززون به إن احتاجوا مدداً.

وقد كانوا على ثقة بما هم عليه من حق، فقائدهم رسول الله ﷺ الذي يقدمهم بأمر من الله مُحكم، فلا مراء في أمره ولا خلاف على رأيه .

وقال كعب بن مالك أيضاً في بدر:

لَعَمْرُ أَبِيكَمَا يَا ابْنَيْ لُؤَيٍ
لَمَّا حَامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ
وَرَدَّتَاهُ بِنُورِ اللَّهِ يَجْلُو
رَسُولُ اللَّهِ يَقْدُمُنَا بِأَمْرٍ
فَمَا ظَفِرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ
فَلَا تَعْجَلْ أَبَا سَفْيَانَ وَارْقُبْ
بِنَصْرِ اللَّهِ رُوحَ الْقُدُسِ فِيهَا
عَلَى زَهْوٍ لَدَيْكُمْ وَانْتِخَاءٍ^(١)
وَلَا صَبْرُوا بِهِ عِنْدَ اللَّقَاءِ^(٢)
دُجَى الظُّلُمَاءِ عَنَّا وَالْغَطَاءِ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَحْكِمَ بِالْقَضَاءِ
وَمَا رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ
جِيَادَ الْخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كِدَاءٍ^(٣)
وَمِيكَالَ فَيَا طَيْبَ الْمَلَاءِ^(٤)

وكان للأنصار دور عظيم في نصرة النبي ﷺ والمسلمين، فقد بذلوا النفس والمال فيه . قال حسان بن ثابت في ذلك :

قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ آوُوا نَبِيَّهُمْ
إِلَّا خَصَائِصَ أَقْوَامٍ هُمْ سَلَفُ
مُسْتَبْشِرِينَ بِقَسَمِ اللَّهِ ، قَوْلُهُمْ
أَهْلًا وَسَهْلًا فِي أَمْنٍ وَفِي سَعَةٍ
فَأَنْزَلُوهُ بِدَارٍ لَا يَخَافُ بِهَا
سِرْنَا وَسَارُوا إِلَى بَدْرِ لِحَيْثِهِمْ
وَصَدَّقُوهُ وَأَهْلُ الْأَرْضِ كُفَّارُ
لِلصَّالِحِينَ مَعَ الْأَنْصَارِ أَنْصَارُ
لَمَّا أَتَاهُمْ كَرِيمُ الْأَصْلِ مُخْتَارُ^(٥)
نِعَمَ النَّبِيِّ وَنِعَمَ الْقَسَمِ وَالْجَارُ
مَنْ كَانَ جَارَهُمْ دَاراً هِيَ الدَّارُ
لَوْ يَعْلَمُونَ يَقِينَ الْعِلْمِ مَا سَارُوا

(1) الزهو : الكبر، و الانتخاء : الإعجاب بالنفس .

(2) حامت : منعت نفسها ودافعت عنها .

(3) كداء — بفتح الكاف ممدوداً — موضع بمكة .

(4) الملاء : الملأ ، وهم أشرف القوم، ومده : ضرورة .

(5) القسم — بفتح القاف — مصدر قسم ، وهو بكسر القاف : الحظ والنصيب . روى : لما أتاهم كريم الأصل مختار .

دَلَّاهُمْ بِغُرُورٍ ثُمَّ اسَلَّمَهُمْ
وَقَالَ: إِنِّي لَكُمْ جَارٌ فَأُورِدْهُمْ
ثُمَّ التَّقِيًّا فَوَلُّوا عَنْ سَرَاتِهِمْ
إِنَّ الْخَبِيثَ لَمَنْ وَالَّاهُ غُرَّارُ
شَرُّ الْمَوَارِدِ فِيهِ الْخَزْيُ وَالْعَارُ
مِنْ مُنْجِدِينَ وَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ غَارُوا^(١)

وقد أصيب المسلمون يوم أحد، فاستشهد منهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد وقعت فيهم خسائر بشرية أكثر مما فقدوه يوم بدر وهم يومئذ قلة، ولم يك مصابهم في أحد من قلة، فقد كانوا أكثر عدداً من يوم بدر.

وقد كمنوا للمشركين يوم أحد، وجعلوا الجبل رداءً لهم يحمي ظهورهم، وانتصروا يوم أحد وهم المشركون بالفرار بعد أن أدركوا الهزيمة، فأدرك خالد بن الوليد فرجة الجبل وقد تركه النبالة الذين جعلهم النبي ﷺ، فخالفوا أمره فنزلوا من الجبل بعد أن رأوا هزيمة المشركين، فعلاهم خالد من الجبل وهو يومئذ مشرك - فلم يدر المسلمون ما حدث، ووقع الاضطراب في صفوفهم، وكثرت خسائرهم، وثارت قريش لبعض قتلاها في بدر، وقتل حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وكان من الشخصيات البارزة في تاريخ الدعوة، وكان رجل حرب مقدم يخشى الأعداء صولته، وقد قتل غيلة يوم أحد، فلم يقدر أحد من المشركين على مواجهته.

وقد تحولت شعراء المشركين عن مراثي من قتل في بدر إلى الفخر والهجاء، فعبروا المسلمين بما حدث لهم وتوعدوهم بحرب أخرى بائدة، ولهم فيها أشعار كثيرة حماسية ورد عليهم شعراء المسلمين.

وكان مما قيل من الشعر في يوم أحد قولُ هُبَيْرَةَ ابْنِ أَبِي عمرو بن عائد بن عبد بن عمران بن مخزوم ، وهو من المشركين:

مَا بَالُ هَمْ عَمِيدَ بَاتَ يَطْرُقُنِي
بَاتَتْ تُعَاتِبُنِي هِنْدٌ وَتَعَذِّلُنِي
مَهْلًا فَلَا تُغَذِّلُنِي إِنَّ مِنْ خَلْقِي
بِالْوَدِّ مِنْ هِنْدٍ إِذْ تَعْدُو عَوَادِيهَا^(٢)
وَالْحَرْبُ قَدْ شَغَلَتْ عَنِّي مَوَالِيهَا
مَا قَدْ عَلِمْتُ وَمَا إِنْ لَسْتُ أَخْفِيهَا

(1) السراة : خيار الناس ، ومنجدين : قاصدين نجداً ، وغاروا : ذهبوا إلى الغور .

(2) العميد : الموجع المؤلم، وأصل العميد البعير الذي انشق سنامه لكثرة اللحم فيه، والعوادي : الشواغل .

حَمَالُ عِبَاءٍ وَأَثْقَالٍ أَعَاتِيهَا (١)
 سَاطُ سَبُوحٍ إِذَا يَجْرِي يُبَارِيهَا (٢)
 مَكْدَمٌ لَاحِقٌ بِالْعَوْنِ يَحْمِيهَا (٣)
 كَجَذَعِ شَعْرَاءَ مُسْتَعْلٍ مَرَاقِيهَا (٤)
 وَمَارِنًا لَخُطُوبٍ قَدْ أَلَاقِيهَا (٥)
 نَيْطَتْ عَلَى قَمَا تَبْدُو مَسَاوِيهَا (٦)
 عُرْضَ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا (٧)
 قُلْنَا النَّخِيلَ فَأَمُوها وَمَنْ فِيهَا (٨)
 هَابَتْ مَعْدٌ فَقُلْنَا نَحْنُ نَأْتِيهَا (٩)
 مِمَّا يَرُونَ وَقَدْ ضُمَّتْ قَوَاصِيهَا (١٠)

مُسَاعَفٌ لِبَيْتِي كَغَبٍ بِمَا كَلَفُوا
 وَقَدْ حَمَلْتُ سِلَاحِي فَوْقَ مُشْتَرَفٍ
 كَأَنَّهُ إِذَا جَرَى عَيْرٌ بِفَدْقَدَةٍ
 مِنْ آلِ أَعُوجٍ يَرْتَاحُ النَّدَى لَهُ
 أَعْدَدْتُهُ وَرَقَاقَ الْحَدِّ مُنْتَخِلاً
 هَذَا وَبَيْضَاءَ مِثْلَ النَّهْيِ مُحْكَمَةً
 سَقْنَا كَنَانَةً مِنْ أَطْرَافِ ذِي يَمَنِ
 قَالَتْ كَنَانَةٌ أَنَّى تَذْهَبُونَ بِنَا
 نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْجَرِّ مِنْ أَحَدٍ
 هَابُوا ضَرَابًا وَطَعْنَا صَادِقًا خِذْمًا

- (1) مساعف : مطيع موات، بما كلفوا : أولعوا به وأحبوه، والعباء : الحمل الثقيل، وأراد به هنا ما يكلفونه من مشاق الأمور وعظامها، وأعَاتِيهَا : أكابدها وأحتملها .
- (2) مشترف : يروى بفتح الراء وبكسرهما ؛ فمن رواه بفتح الراء عني به فرساً يستشرفه الناس، أي : ينظرون إليه ويتطلعون نحوه لحسنه، ومن رواه بكسر الراء عني به شرفاً عالياً مشرفاً على الأرض، وساط : أي بعيد الخطو إذا مشى، والسبوح : الذي يسبح في جريه كأنه يعوم، ويباريها : أي يعارضها ويباريها، والضمير المستتر عائد إلى الفرس الذي وصفه، والضمير البراز عائد إلى الخيل، وقد أضمر الخيل وإن لم يجر لها ذكر لأن الكلام يدل عليها.
- (3) العير : حمار الوحش، والفدفة : الفلاة ، ومكدم : معضوض عضته آتنة (الأنثى منه آتن)، ولاحق : معناه ضامر، والعون : جماعات حمر الوحش.
- (4) أعوج : اسم فرس مشهور في الجاهلية، ويرتاح له يستبشر به ويهتز لمرآه، والندى : المجلس فيه القوم، والجذع : الفرع ، والشعراء هنا : نخلة كثيرة الأغصان، ومراقِيها : معاليها .
- (5) رقاق الحد — بضم الراء — أراد به سيفاً ، ويروى رقاق — بكسر الراء — فهو جمع رقيق، والأول أحسن لأفراد الضمان بعده، ومنتخلا : متخيراً، والمارن : الرمح اللين عند الاهتزاز، والخطوب : حوادث الدهر، واحداً خطب .
- (6) ببيضاء : عني بها درعاً، والنهى : الغدير من الماء، وهو بفتح النون وكسرهما، ونيطت : علفت، ويروى "طت" بالبناء للمجهول — ومعناه ألصقت ومساوِيها : عيوبها .
- (7) العرض — بضم فسكون — السعة ، ويزجيها : يسوقها .
- (8) النخيل : أراد مدينة الرسول ﷺ ، وأموها : قصدوها .
- (9) الجر — بالجيم مفتوحة — أصل الجبل .
- (10) الخدم — بفتح الخاء وكسر الذال المعجمتين — الذي يقطع اللحم سريعاً، والقواصي : جمع قاصية، وهي ما تفرق وبعد.

ثُمَّتَ رُحْنَا كَأَنَّا عَارِضٌ بِبَرْدٍ
 كَأَنَّ هَامَهُمْ عِنْدَ الْوَعْغَى فَلَقَ
 أَوْ حَنْظَلٌ زَعَزَعَتْهُ الرِّيحُ فِي غُصْنٍ
 قَدْ نَبَذَلُ الْمَالَ سَخًا لَا حِسَابَ لَهُ
 وَلَيْلَةً يَصْطَلِي بِالْفَرْتِ جَارِهَا
 وَلَيْلَةً مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَّةٍ
 لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ
 أَوْقَدْتُ فِيهَا لَذَى الضَّرَاءِ حَامِيَةً
 أَوْرَثْتَنِي ذَلِكَمُ عَمْرُوً وَوَالِدُهُ
 وَقَامَ هَامٌ بَنَى النَّجَّارَ يَبْكِيهَا^(١)
 مِنْ قَيْضِ رَبْدٍ نَفَثَهُ عَنْ أَذَاحِيهَا^(٢)
 بِأَلٍ تَعَاوَرَهُ مِنْهَا سَوَافِيهَا^(٣)
 وَتَطْعُنُ الْخَيْلَ شَزْرًا فِي مَآقِيهَا^(٤)
 يَخْتَصُّ بِالنَّقْرِى الْمُثْرِينَ دَاعِيهَا^(٥)
 جَرَبًا جُمَادِيَّةً قَدْ بَتَّ أُسْرِيهَا^(٦)
 مِنَ الْقَرِيسِ وَلَا تَسْرِي أَفَاعِيهَا^(٧)
 كَالْبَرْقِ ذَاكِيَّةَ الْأَرْكَانِ أَحْمِيهَا^(٨)
 مِنْ قَبْلِهِ كَانَ بِالْمَثْنَى يُغَالِيهَا^(٩)

(1) العارض : السحاب، والبرد — بفتح الباء وكسر الراء — الذي فيه برد، والهام : جمع هامة، وأصله الطائر الذي تزعم العرب أنه يخرج من رأس القنبل، وربما أطلق على رعوس القوم ووجوههم .

(2) الهام : جمع هامة، وهى الرأس، والوعى : الحرب، واللقى : جمع قلقة، وهى القطعة من الشئ، والقيض : بفتح القاف وسكون الياء وآخره ضد معجمة — وهو قشر البيض الأعلى، والربد : جمع ربداء، وهى التي لونها بين السواد والبياض، وأراد ههنا النهام، والأداحى : جمع أدحى، وهو الموضع الذي تبيض فيه النعام .

(3) زعزعت : حركته وأثارت، وتعاوره : تتداوله، وأصله تتعاوره فحذف إحدى التاءين، والسوافى : جمع سافية، وهى الريح التي تقلع التراب والرمل فى الأرض .

(4) السح : الصب، يريد أنه عطاء كثير، والشزر : الطعن عن يمين وشمال، والمآقى : مجاري الدموع فى العين، أو المقدمات .

(5) الفرث : ما يخرج من كرش الحيوان، ويصطلى : أى يتسن، والنقري — بفتحات — أن يدعو قوما دون قوم فيخص بدعوته لا يعم بها الناس، ويقابله الجفلى، وهو أن يدعو دعوة عامة لا يخص بها أحداً، والمثرين جمع مثر، وهو اسم فاعل من أثرى، إذا صار ماله كثيراً كالثرى، وهو التراب وقد نسب هذا البيت لجنوب أخت ذى الكلب الهزلى فى غير يوم أحد .

(6) من جمادى : يريد أنها من ليالى الشتاء، وجربا : أصله جرباء، يريد شديدة البرد مؤلمة. وأسريها : أسير فيها .

(7) القريس : البرد مع الصقيع، والصقيع : الثلج الذي يلصق بالنبات وهو الجليد أيضاً، والأفاعى : جمع أفعى .

(8) لذى الضراء : أراد به صاحب الحاجة والفقر ، وحامية : أراد نارا، ويروى فى مكانه "جاحمة" وهى النار الملتهبة، وذاكية : أراد مضيئة .

(9) المثنى : أراد مرة بعد مرة؟، ويروى "أورثتى ذاك" .

كَانُوا يُبَارُونَ أَنْوَاءَ النُّجُومِ فَمَا دَنَتْ عَنِ السُّورَةِ الْعُلْيَا مَسَاعِيرَهَا^(١)

لقد بدأ هبيرة بن أبي وهب - وهو من شعراء المشركين - قصيدة بمقدمة غزلية شكاً فيها حب هند، وقد أثقلت همه بكثرة عتابها وهجرها له، وقد حدث منها ذلك في وقت الحرب التي شغلت رفاقه وسادته وأقاربه، فلم يجد رفيقاً يشكو إليه همه، فلا تتعجلي يا حبيبتي في هجري، فإني أحبك حباً جماً، وأنت تعلمين ذلك، ولا يخفي عليك أمري، وأنت تعلمين من خلقي أن مطيع وألبي حاجات بني كعب وما أولعوا به، وأننى كثير الأحمال والأعباء، وأعاني من كثرة ما أكلف به.

وقد حملت سلاحى، وركبت فرسى الذي يستشرفه الناس ويتطلعون إليه لحسنه لسرعته وخفة حركته، فيمشي كأنه يسبح، واسع الخطو، ويعارض بجريه وسرعته الخيل، وكأنه إذا جرى حمار الوحش يجري في الصحراء يلحق بجماعات الحمر الوحشية ليحميها، وهذا الحمار الوحشي يعجل في جريه كأنه قد عضته آتته، وهذا الفرس من نسل آل أعوج، وهو فرس مشهور في الجاهلية بقوته، وضرب به المثل لتميزه في ذلك، وفرسى هذا يستبشر به مجلس القوم إذا رآه ويهتز لمرآه لفرط إعجابه به ودهشته، فهو كجذع نخلة طويلة كثيرة الأغصان، والثمار تعجب الناظرين، وقد تخيرت هذا الفرس ورفاقاً آخرين تخيرت منهم سيفاً رقيقاً حاداً، ورمحاً ليناً عند الاهتزاز، وقد أعددتهم لحوادث الدهر التي قد ألقاها، وأعددت لذلك درعاً بيضاء صافية مثل غدير الماء، محكمة الصنع، وقد شدتها على جسد، وألصقتها به، وليس بها عيب.

وقد جمع بنو كنانة أنفسهم من عرض البلاد واتساعها لأمر عظيم فرحت له، وقد تسائل المجتمعون منهم إلى أين المسير، ولما دعوتهم للخروج؟ قلنا نريد أرض النخيل (يثرب) فهي مقصدنا، يريد حرب المسلمين (وقد وقعت في جبل أحد)، فنحن الأبطال يوم أحد، فقد خشوا لقاءنا، فأتيناهم في بلادهم، فقد خافوا ضرب سيوفنا وطعننا الذي يقطع اللحم، وقد وقع الخوف بهم، فجمعوا لنا الجمع، وكنا عليهم كسحاب عارض مهلك فيه برد، فوقع فيهم قتل كثير، وقام الهام الذي يخرج من الرعوس يبكي بني النجار، وقصدهم؛ لأنهم أخوال النبي ﷺ، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون أن هامة تخرج من رأس القتيل تبكيه وتطلب ثأره، والهامة قيل طائر تخرج من الرأس، وقيل المراد بالهام رعوس القوم ووجوههم، وقد بكت الرعوس القتلى وهو مجاز.

(١) يبارون : يعارضون ويفعلون مثل ما تفعل ، دنت - بالنون مشددة - أى قصرت، يقال : رجل أدن العنق، إذا كان قصير العنق، والسورة الرفعة والمنزلة، و المساعي: جمع مسعاة ، وهى ما يسعى فيه من المكارم.

وكانت رعوسهم في الحرب أجزاء مثل قشر البيض الأعلى الذي أبعده النعام عن
الموضع الذي تبيض فيه، يريد أنهم صاروا أشلاء ممزقين على الأرض ورعوسهم مفرقة.
أو الرعوس مثل الحنظل الذي حركته الريح في غصن ميت ضعيف، وتتداوله الرمال
الناعمة والتراب.

فنحن كرام نبذل مالاً كثيراً عطاء بلا إمساك، ونحن رجال الحرب نطعن عن يمين وعن
شمال، وتصب ضارباتنا أهدافها. وفي ليلة نذبح، ونذبح، وندعو الناس عامة دون أن
نخص أحداً، ويخص أضيافة الأثرياء بأفضلها. وفي ليلة أخرى باردة من ليالي الشتاء
شديدة البرد مؤلمة قد بت أسير فيها، ولم أعبأ ببرودتها وخطرها.

وهذه الليلة شديدة البرد ينبح الكلب فيها نبحة واحدة من شدة الصقيع ولا تستطيع
الأفاعي أن تسير فيها، فقد تجمدت وقد قمت بواجبي فيها، فأوقدت لأصحاب الحاجة والفقير
ناراً كالبرق مضيئة الأركان، وأنا أزيدها إحماء.

وقد ورثت ذلك من أبي عمرو وجدي من قبله اللذين اعتادا ذلك، فقد ورثت الكرم
والمروءة منهما.

فقد كانوا يعارضون أنواع النجوم (يريد ظروف الطقس) ، فيفعلون مثل ما تفعل، فما
قصرُوا في شيء وما فاتهم فضل ومنزلة، فهم يسعون إلي كل المكارم.
وقد أجابه شاعر المؤمنين فقال معارضاً ما سبق^(١):

سَقَمَ كِنَانَةٌ جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ	إِلَى الرَّسُولِ فَجَنَدُ اللَّهِ مَخْزِيهَا
أُورِدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً	فَالنَّارَ مَوْعِدَهَا وَالْقَتْلَ لَاقِيَهَا ^(٢)
جَمَعْتُمُوهُمْ أَحَابِيْشًا بَلَا حَسَبٍ	أَنْمَةَ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا ^(٣)
أَلَا عَتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللَّهِ إِذْ قَتَلَتْ	أَهْلَ الْقَلِيْبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا ^(٤)
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَنَّاهُ بَلَا ثَمَنِ	وَجَزَّ نَاصِيَةً كُنَّا مَوَالِيَهَا ^(٥)

(١) نسبها محمد ابن إسحق إلى حسان، وأنشدها أبو زيد الأنصاري محمد بن هشام لكعب ماله. السيرة
جـ ٨٧/٣-٩٣.

(٢) الحياض : جمع حوض ، والضاحية : البارز للشمس .

(٣) الحسب: الشرف، وطواغيها : جمع طاغية، وهو المتكبر المتمرد.

(٤) أهل القليب : أراد بهم من قتل في بدر من المشركين فطرح في القليب وهو البئر.

(٥) مواليتها : أهل النعمة وأصحاب المنة عليها، يريد أنهم فكوا كثيراً من أسرى قریش يوم بدر بغير فداء،
فكانوا لذلك أصحاب النعمة واليد البيضاء عليهم فلو كان عند هؤلاء شيء من حفظ الجميل لقبعوا فسي
بيوتهم فلم يخرجوا لقتالهم.

رد الشاعر على هُبيرة قوله، فقال له إنما جمعتم قريشاً للموت، فيكونوا من أهل النار، وهؤلاء الذين جمعتم، ليسوا إلا أخلاط الناس، وعامتهم لا حسب لهم، ولستم إلا أئمة الكفر، فاعتبر بيوم بدر وقتلاككم بها الذين جمعهم القلب، وقد عفونا عن كثير من الأسرى مئة وكرماً بغير فداء، فكنا أصحاب النعمة ولفضل عليكم.

وقال كعب بن مالك يجيب شاعر المشركين (جاء في القصيدة أنه عبد الله بن الزبعرى، وجاء في السيرة هبيرة بن أبي وهب والراجح أنه ابن الزبعرى):

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا دُونَهُمْ	مِنَ الْأَرْضِ خَرَقٌ سَيْرُهُ مَتَنَعٌ ^(١)
صَحَّارٍ وَأَعْلَامَ كَانَ قَتَامَهَا	مِنَ الْبُعْدِ نَقَعٌ هَامِدٌ مُنْقَطِعٌ ^(٢)
تَظَلُّ الْبُزْلُ الْعَرَامِيسُ رُزْخًا	وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السَّيْنِ فَيَمْرَعُ ^(٣)
بِهِ جَيْفُ الْحَسْرَى يَلُوحُ صَلَيبُهَا	كَمَا لَاحَ كَتَّانُ التَّجَارِ الْمَوْضِعُ ^(٤)
بِهِ الْغَيْنُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَةً	وَبَيْضُ نَعَامٍ قَيْضُهُ يَتَفْلَعُ ^(٥)
مَجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلُّ فَخْمَةٍ	مُدْرِبَةٍ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ ^(٦)
وَكُلُّ صَمُوتٍ فِي الصَّوَانِ كَأَنَّهَا	إِذَا لُبِسَتْ نَهَى مِنَ الْمَاءِ مُتْرَعٌ ^(٧)
وَلَكِنْ بِبَدْرِ سَأَلُوا مَنْ لَقِينُمْ	مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْبَاءِ بِالْغَيْبِ تَنْفَعُ

- (1) الخرق : الفلاة الواسعة التي تخرق فيها الرياح ، وقوله "متنع" يروى بالنون وبالتاء، فمن رواه بالنون فمعناه المضطرب، ومن رواه بالتاء فمعناه المتردد والمعنى قريب، ونقول : تنع في الكلام، إذا تردد فيه .
- (2) الأعلام : الجبال المرتفعة، واحدها علم، مثل سبب وأسباب وجبل وأجبال، وقتام — كسحاب — ما مال لونه إلى السواد منها، والنقع: الغبار، والهامد: المتلبد الساكن .
- (3) البزل : الإبل القوية ، واحدها بازل ، وأصله الذي فطر نابه، وهذا زمان القوة والشدة، والعراميس: الشديدة، والرزح : جمع رازح، وهو المعى، ويمرع : يخصب .
- (4) الصليب : الدوك، وهو الشحم، والموضع : المبسوط المنقوش .
- (5) العين جمع عيناء، وهى البقرة من بقر الوحش، والآرام : البيض البطون السمر الظهور، واحدها رنم، وأصل آرام، بزنة أحمال، فقدمت الهمزة على الراء ثم قلبت الهمزة ألفا لسكونها إثر همزة مفتوحة، وقوله "خلفة" أي: يمشين قطعة خلف قطعة، والقيض: قشر البيض الأعلى، ويتفلع : معناه يتشقق .
- (6) فخمة : يريد كتيبة عظيمة، ومدربة : يروى بالذال مهمة وبالذال معجمة؛ فمن رواه بالذال فهو من الدربة، يريد أنهم معلمون معودون قد دربوا على القتال، ومن رواه بالذال فمعناه محددة، والذرب: لحاد، والقوانس: رعوس بيض السلاح.
- (7) الصموت : هى الدرع التي أحكم نسجها وتقارب حلقها فليس يسمع لها صوت، والصوان : كل ما يصان فيه الشيء درعا كان أو ثوباً أو غيرهما، والنهى بفتح النون أو كسرهما : الغدير، ومترع : أى مملوء ما.

وَأَنَا بَارِضُ الْخَوْفِ لَوْ كَانَ أَهْلُهَا
إِذَا جَاءَ مِنَّا رَاكِبٌ كَانَ قَوْلُهُ
فَمَهْمَا يَهُمُّ النَّاسَ مِمَّا يَكِيدُنَا
فَلَوْ غَيْرُنَا كَانَتْ جَمِيعًا تَكِيدُهُ الْ
نَجَالِدُ لَا تَبْقَى عَلَيْنَا قَبِيلَةٌ
وَلَمَّا ابْتَنَوْا بِالْعَرَضِ قَالَ سَرَاتُنَا
وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ
تَدْلَى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ
نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصَرْنَا
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدَا لَنَا
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرَى الْحَيَاةَ تَقْرَبًا
وَلَكِنْ خَذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا
فَسِرْنَا إِلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي رِحَالِهِمْ
بِمَلُومَةٍ فِيهَا السُّنُورُ وَالْقَتَا

سِوَانَا لَقَدْ أَجَلُّوا بَلِيلٌ فَأَقْشَعُوا^(١)
أَعْدُوا لَمَّا يَزْجِي ابْنُ حَرْبٍ وَيَجْمَعُ
فَنَحْنُ لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ أَوْسَعُ
بَرِيَّةٌ قَدْ أَعْطُوا يَدًا وَتَوَرَّعُوا^(٢)
مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَنْ يُهَابُوا وَيُفْظَعُوا^(٣)
عَلَامٌ إِذَا لَمْ نَمْتَعِ الْعَرَضَ نَزْرَعُ^(٤)
إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلُ لَا تَنْطَلِعُ^(٥)
يُنْزَلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ^(٦)
إِذَا مَا اشْتَهَى أَنَا نَطِيعٌ وَتَسْمَعُ^(٧)
ذَرُّوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا
إِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ وَيَرْجِعُ
عَلَى اللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ
ضَحِيًّا عَلَيْنَا الْبَيْضُ لَا نَتَخَشَّعُ^(٨)
إِذَا ضَرَبُوا أَقْدَامَهَا لَا تُورَعُ^(٩)

(1) أقشعوا : فروا وذلوا .

(2) تورعوا : يروى بالراء المهملة وبالزاي : فمن رواه بالراء المهملة فمعناه ذلوا وهاتوا، ومن رواه بالزاي فمعناه تقسموا وانشعبوا .

(3) يفظعوا — مبنى للمجهول : يهالوا ويفزعوا، من الشئ الفظيع ، وهو الذي يهولك منظره .

(4) ابتنوا: ضربوا أنبتهم، وهي القباب والأخبية، والعرض : موضع خارج المدينة، وسراتنا : خيلنا .

(5) لا نتطلع : يروى بالطاء المهملة وبالطاء؛ فمن رواه بالطاء المهملة فمعناه لا ننظر إليه إجلالاً له وهيبة منه، ومن رواه بالطاء المعجمة فمعناه لا نميل عنه ولا نعدل عما قاله .

(6) الروح : هو جبريل أمين الوحي عليه السلام، وهو مأخوذ من قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين).

(7) قصرنا : غابتنا ونهاية أمرنا ، نقول : قصرك وقصاراك وقصارى أمرك، ومعناه غاية أمرك .

(8) الببيض — بكسر الباء — جمع أبيض ، والمراد بها السيوف، والببيض — بفتح فسكون — جمع بيضة السلاح.

(9) الملمومة : الكتيبة التي اجتمع بعضها إلى بعض ، والسنور السلاح، وقوله، "لا تورع" يروى بالراء المهملة وبالزاي ، فمن رواه بالراء المهملة فمعناه لا تكف، ومن رواه بالزاي فمعناه لا يفرقها أحد .

- فَجَنَّبْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ
نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِي الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا
تَهَادَى قَسَى النَّبْعِ فِينَا وَفِيهِمْ
وَمَجُوفَةٌ حَرَمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ
تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرِّجَالِ وَتَارَةً
وَحَيْلٍ تَرَاهَا بِالْفَضَاءِ كَأَنَّهَا
فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرِّحَا
ضَرْبَانَهُمْ حَتَّى تَرَكْنَا سِرَاتَهُمْ
لَدُنْ غُدُوَّةٍ حَتَّى اسْتَفَقْنَا عَشِيَّةً
وَرَاخُوا سِرَاعاً مُوجَعِينَ كَأَنَّهُمْ
- وَسَطَهُ أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقْتَعٌ^(١)
ثَلَاثُ مَنِينَ إِنْ كَثُرْنَا فَأَرْبَعٌ^(٢)
نُشَارِعُهُمْ حَوْضَ الْمَنَابِيَا وَنُشْرَعٌ^(٣)
وَمَا هُوَ إِلَّا الْيَثْرَبِيُّ الْمُقَطَّعُ^(٤)
يُذَرُّ عَلَيْهَا السَّمُّ سَاعَةً تُصْنَعُ^(٥)
تَمُرٌ بِأَعْرَاضِ الْبِصَارِ تَقْعَقَعُ^(٦)
جَرَادٌ صَبَأٌ فِي قَرَّةٍ يَتَرَيَعُ^(٧)
وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّةٍ اللَّهُ مَدْفَعٌ^(٨)
كَأَنَّهُمْ بِالْقَاعِ خُشْبٌ مُصْرَعٌ^(٩)
كَأَنَّ ذُكَاَنَا حَرٌّ نَارٍ تَلْفَعُ^(١٠)
جَهَامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الرِّيحُ مُقْلِعٌ^(١١)

- (1) الحاسر : الذي لا راع له ولا مغفر، والمقتع : الذي لبس المغفر على رأسه .
(2) النصية : الخيار من القوم .
(3) نغاورهم : يورى بالغين المعجمة، ويروى بالعين المهملة، فمن رواه بالغين المعجمة فمعناه نغير عليهم من الغارة، ومن رواه بالعين المهملة فمعناه نداولهم، ونشارعهم: نشاربهم، ونشرع : نشرب، يريد أنه قد كانت بينهم مغاورات ينتصرون عليهم مرة ويظفرون بهم مرة.
(4) النبع : شجر تصنع منه القسي ، و اليتربي : الأوتار المنسوبة إلى يثرب .
(5) المنجوفة : أراد بها سهاماً ، وحرمية : منسوبة إلى أهل الحرم، ويقال: هذا رجل حرمى — بكسر فسكون — إذا كان من أهل الحرم، وصاعدية : منسوبة إلى صانع اسمه صاعد .
(6) تصوب : تقع ، والبصار — بكسر الباء وتخفيف الصاد — الحجارة اللينة، يريد أنها تصيب مرة وتخطى مرة .
(7) الفضاء : المتسع من الأرض ، والصبا : الريح الشرقية، والقرة : البرد ، ويتربع : يجئ ويذهب .
(8) رعى الحرب : معظم موضع القتال فيها ، وحمه الله : قدره .
(9) سراتهم : خيرهم ، والقاع : المنخفض من الأرض ، وخشب أصله بضممتين فسكن الشين اضطراراً .
(10) ذكنا : أراد اشتعال نار حربنا والتهابها، وتلفع : يشتمل حرها على من دنا منها .
(11) موجعين : يروى بالعين المهملة مبنياً للمجهول من الإيجاع، وهو الإيلام، ويروى موجفين — بالفاء مبنياً للمعلوم — ومعناه مسرعون، والجهام — كسحاب — السحاب الرقيق الذي ليس معه مطر .

وَرُحْنَا وَأُخْرَانَا بِطَاءَ كَانْنَا
 فَنَانَا وَنَالِ الْقَوْمُ مِنَّا وَرُبَّمَا
 وَدَارَتْ رَحَاتِنَا وَاسْتَدَارَتْ رِحَاهُمْ
 وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
 جَلَدٌ عَلَى رَيْبِ الْحَوَادِثِ لَا تَرَى
 بَنُو الْحَرْبِ لَا نَغْيَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ
 بَنُو الْحَرْبِ إِنْ نَظَفَرْنَا فَلَسْنَا بِفَحْشٍ
 وَكُنَّا شِهَابًا يَتَّقِي النَّاسُ حَرَّهُ
 فَخَرْتُ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ وَقَدْ سَرَى
 فَسَلَّ عَنْكَ فِي عَلِيٍّ مَعْدٍ وَغَيْرِهَا
 وَمَنْ هُوَ لَمْ تَتْرِكْ لَهُ الْحَرْبُ مَفْخَرًا
 شَدَدْنَا بِحَوْلِ اللَّهِ وَالنَّصْرِ شِدَّةً
 تَكْرُ الْقَنَّا كَأَنَّ فُرُوعَهَا
 عَمَدَتْنَا إِلَى أَهْلِ اللِّوَاءِ وَمَنْ يَطِيرُ
 فَخَانُوا وَقَدْ أَعْطُوا يَدًا وَتَخَاذَلُوا
 أَسْوَدَ عَلَى لَحْمٍ بَبِيشَةَ ضُلْعٌ^(١)
 فَعَلْنَا وَلَكِنْ مَا لَدَى اللَّهِ أَوْسَعُ
 وَقَدْ جَعَلُوا كُلَّ مِنَ الشَّرِّ يَشْبَعُ
 عَلَى كُلِّ مَنْ يَحْمِي الذَّمَارَ وَيَمْنَعُ^(٢)
 عَلَى هَالِكٍ عَيْنًا لَنَا الدَّهْرَ تَذْمَعُ^(٣)
 وَلَا نَحْنُ مِمَّا جَرَّتِ الْحَرْبُ نَجَزَعُ
 وَلَا نَحْنُ مِنْ إِظْفَارِهَا نَتَوَجَّعُ^(٤)
 وَيَفْرُجُ عَنْهُ مَنْ يَلِيهِ وَيَسْفَعُ^(٥)
 لَكُمْ طَلَبُ مَنْ آخِرِ اللَّيْلِ مَتَّبِعُ
 مِنَ النَّاسِ مَنْ أَخْزَى مَقَامًا وَأَشْنَعُ
 وَمَنْ خَدَّ يَوْمَ الْكَرْيَةِ أَضْرَعُ^(٦)
 عَلَيْكُمْ وَأَطْرَافُ الْأَسْنَةِ شُرْعُ^(٧)
 عَزَالِي مَزَادٍ مَاوَاهَا يَتَهَزَعُ^(٨)
 بِذِكْرِ اللِّوَاءِ فَهُوَ فِي الْحَمْدِ أَسْرَعُ
 أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَمْرُهُ وَهُوَ أَصْنَعُ^(٩)

(1) ببيشة : اسم موضع تنسب إليه الأسود ، وضلع : جمع ضالع ، وهو من صفة الأسود .

(2) الذمار — ككتاب — ما يجب على الرجل أن يحميه .

(3) جلد : جميع جليد ؟ وهو الصبور .

(4) فحش — بضم الفاء وتشديد الحاء المهملة — جمع فاحش ، يريد أنهم إن ظفروا ظفرهم ويفشحو أو يمثلوا بقتلاهم كما فعلت قريش في أحد ، وإن ظفر عليهم لم يجزعوا لذلك ؛ لعلمهم أن الدهر بومان يوم لهم ويوم عليهم ، وأن الظفر لا يدوم والهزيمة لا تدوم .

(5) الشهاب : القطعة من النار ، ويسفع : يحرق ويغير اللون ، تقول سعته النار ، إذا غيرت لونه .

(6) أضرع : ذليل ، يقال : أضرعه الحاجة ، إذا أذلته .

(7) شرع : مائلة للطعن ، يقال : أشرعت الرمح قبله ، إذا أملتته إليه لتطعنه به .

(8) الفروع : الطعن المتسع ، والعزالي : جمع عزلاء ، وهي فم المزادة أو السقاء ، ويتهزع : يروى بالراء المهملة وبالألف الموحدة ، فمن رواه بالراء المهملة فمعناه ويسرع سيلائه ، ومن رواه بالألف فمعناه ينقطع .

(9) فحانوا : يروى بالخاء المهملة من الحين وهو الهلاك ، ويروى بالخاء المعجمة من الخيانة .

وقد كان كعب بن مالك قد قال :

* مجالدنا عن جذمنا كل فحمة * (١)

فقال رسول الله ﷺ " أَيْصْلَحُ أَنْ تَقُولَ: مجالدنا عن ديننا؟ " فقال كعب : نعم، فقال رسول الله ﷺ : "فهو أحسن" ، فقال كعب : مجالدنا عن ديننا " (٢)

بدأ كعب قصيدته بمقدمة ذكر فيها الديار، ولكنه لم يذكر حبيباً بل ذكر ديار غسان وهي بالشام، وبينهم وبين المدينة سفر طويل فيه مشقة لما به من صحارٍ وجبال، وفي هذه الصحاري والجبال تقطعها الإبل القوية الشديدة، وتعيها من طولها وصعوبتها، وقد تجف فيموت من فيها، وقد تخصب، وبها البقر الوحشي والغزلان السمر يمشين قطعة خلف قطعة تباعاً، وقشر بيض النعام من شدة الحر يتشقق، فهذه الديار على طول السفر إليها ومشقته وبعدها قد سمعت بدفاعنا عن ديننا وجلادنا عنه، وقد أعدنا لذلك كتيبة عظيمة مدربة فيها رعوس السلاح تلمع من شدة حدتها وجلالها. وأعدنا دروعاً أحكم نسجها وتقارب حلقها ولا يسمع لها صوت.

لقد أوجز الشاعر في مقدمته وربط بينها وبين موضوع القصيدة، فلم يذكر حبيبة ولا خمرأ ولم يستطرد في المقدمة، وجعل مدخل الموضوع الحديث عن بدر التي حققوا فيها انتصاراً عظيماً على مشركي مكة. وهم بأرض خوف لا يستطيع غيرهم أن يقيموا بها، وقد جاءهم أحدهم يخبرهم أن قريشاً تعد لهم العدة وتتجهز لغزوهم، فلم يزداهم ذلك إلا ثباتاً وشجاعة. ولو أن الناس جميعاً اجتمعوا على حربنا، لثبتنا لهم وقتلناهم حتى ينصرفوا عنا أو يكشفوا أو يفروا منا، وقد أجمع سادتنا على مواجهة الأعداء، وأن ندافع عن عرضنا. ونحن على الحق، وفينا رسول الله ﷺ تتبعه في كل أمره، وينزل عليه الوحي بيننا، ونشاوره في أمرنا.

وقد أمرنا بجهاد المشركين والخروج لهم، ووعدنا بالجنة، وقال لهم كونوا كمن باع حياته لله تعالى الذي بيده المحيا والممات، فتوكلوا عليه، فله الأمر جميعاً. وقد صور كعب ما حدث في المعركة تصويراً دقيقاً منصفاً يقول : فخرجنا إلى الأعداء مسرعين دون خوف في كتائب اجتمع بعضها إلى بعض، مدججين بالسلاح والأقنعة .

فوجدنا أعداءنا كثيرين مضطربين كموج البحر المتلاطم ووسط هذا الجيش أخلاط الناس وأوباشهم، ومنهم حاسر لا درع له ولا مغفر، ومنهم من لبس المغفر على رأسه

(1) " عن جذمنا " الجذم — بكسر فسكون — هو الأصل .

(2) الرواية لابن هشام . السيرة جـ ٩٥/٣ .

فهم غير مكتملى التسليح لكثرتهم وهم نحو ثلاثة آلاف، ونحن — المسلمين — بين ثلاثمائة وأربعمائة على الزيادة، وكان بينهما مناوشات قبل بدء القتال يتنازعان فيها النصر، فكانت بيننا مناورات ومساجلات ينتصرون علينا مرة، ويظفرون علينا بهم مرة، ونضربهم بالنبل، فتصيبهم نبالنا مرة وتخطئ أخرى. وترى خيلاً جرداً في الأرض المتسعة، تروح وتغدو، وهى خيل قريش التى جمعت عدتها وجلبت للحرب حلفاءها وعبيدها، وهذا الوصف يجسد لنا تفوق قريش فى العدة والأفراد والقوة. فلما تلاقوا فى القتال، واقتتلوا صارت الغلبة للمسلمين، واكتشف المشركون، وقتل منهم، وفر بعضهم موجهين، والمسلمون يسرعون إليهم كأنهم أسد اجتمعوا على لحم بوادي بيثه الذى تكثر فيه الأسد، وقد تضلعوا من اللحم. وقد نالوا من العدو، ونال العدو منهم، وليس ما وقع بالمسلمين عاراً أو ذلاً، فالقتل فى سبيل الله ليس سبة بل شهادة ترفعه يوم القيامة، ونحن أبناء الحرب لا نعيها منها ولا نجزع من عواقبها ودولتها علينا، فنحن فى الحرب شهاب يتقى الناس حره، ويفرق منه القريب ويحرق به. وهجا كعب عبد الله بن الزبعرى الذى فخر عليه بيوم أحد فقال:

لا تفخر على يا ابن الزبعرى، فأنت كمن طلب ثأره فى آخر الليل المدلج (شديد الظلمة) لنلا يعلم به فيواجه عدوه، وسل عن أشراف الناس، تجد نفسك أقلهم مقاماً وأحطهم شأنًا، وليس لك فى الحرب تاريخ ولا مفخرة. وقد شددنا عليكم بعون الله شدة عظيمة، فأوجعناكم طعناً وأسخنا فيكم السلاح، وقصدنا حكمة اللواء، فهربوا وتركوا لواءكم، وقد وقع أمر الله تعالى، وسلمنا به.

لقد سيطرت على كعب رضي الله عنه روح التواضع، وكان هادئاً رزيناً، ناقش المعركة ناقشاً عادلاً، وكان محايداً، فذكر ما للمسلمين وما للمشركين، واعترف بقوة المشركين، وبمصاب المسلمين، بيد أنه لم ير الشهادة فى سبيل الله عيباً. ولم يقذع كعب فى القول فلم يسب ولم يلعن، ولم يسرف فى الهجاء، فقد كان موضوعياً فى قصيدته، وهذا يرجع لطبيعة شخصيته الهادئة التى يكتنزها الوقار والتعقل والعفة.

وقد أثرت نتيجة المعركة فى كعب، فلم تحقق نصراً فى درجة غزوة بدر، والخسائر فيها عالية، فعدت هزيمة وإن لم تك هزيمة حقيقية، فالمشركون أكثر عدداً وعدة، بيد أنها قياساً إلى غيرها من المعارك التى خاضها المسلمون وهم قلة هزيمة فلم تصل إلى درجتها فيما حققته من نتائج.

وشارك اليهود المشركين فى معاداة الدعوة، وقد حاول يهود بني النضير أن يقتلوا النبي ﷺ، وهو قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم، ومعه أبو بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم، فعلا عمرو بن حجاج البيت، ومعه صخرة ليلقيها عليه ﷺ، فجاءه الوحي بذلك

فخرج راجعاً إلى المدينة، وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، وتدخل عبد الله بن سلول المنافق، وكف عنهم الرسول ﷺ، فأجلاهم عن المدينة، فخرجوا إلى خيبر، وتآمروا مع من بها من يهود على النبي ﷺ، واستعدوا عليه المشركين.

قال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف:

فَتَلَّكَ بَنُو النَّضِيرِ بِدَارِ سَوْءٍ أَبَارَهُمْ بِمَا اجْتَرَمُوا الْمِيبِيرُ^(١)
غَدَاةَ أَتَاهُمْ فِي الزَّخْفِ رَهْوَا رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ بِهِمْ بَصِيرُ^(٢)
وَحَسَانُ الْحَمَاةِ مُوَازَرُوهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَهُوَ لَهُمْ وَزِيرُ^(٣)
فَقَالَ : السَّلْمُ وَنَحْكُمُ، فَصَدُّوا وَخَالَفَ أَمْرَهُمْ كَذِبَ وَزُورُ^(٤)
فَذَاقُوا غِبَّ أَمْرِهِمْ وَبَالًا لَكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرُ^(٥)
وَأَجَلُّوا عَامِدِينَ لِقَيْنَقَاعٍ وَغُودِرَ مِنْهُمْ نَخْلٌ وَدُورُ^(٦)

لقد دخل كعب بن مالك إلى موضوع القصيدة عامداً، فذكر ما حل باليهود من عار وخزي، فقد كفروا بربهم، وبنبيه الذي وجدوه مكتوباً عندهم في التوراة، فكذبوه وكفروا به، واشربوا الغدر والكفر، فهم دائماً يعربون عن كفرهم ويغترون فلا عهد لهم ولا ذمة، فكان جزاءهم النفي والإبعاد، وغادروا رأساً منهم صريعاً جزاء عدوانه وسلطة لسانه وهو كعب بن الأشرف فذلوا بعد مصرعه.

وقد دس إليه النبي ﷺ من قتله وهو في مأمن من حصنه وقومه، فعلم اليهود أم محمداً ﷺ سيصل إليهم. ومدح كعب الأنصار الذين نصرُوا الرسول ﷺ وصدقوه وقاتلوا من كذبه، فهم مؤازروه على الأعداء، وهو لهم قائد. وقد أذل اليهود وأجلاهم، فذاقوا جزاء غدرهم وبالأ وتركوا ديارهم وأموالهم وأورثها الله تعالى المؤمنين .

وقصيدة كعب بها أسلوب سهل رقيق ليس فيه خشونة ولا جفوة، فقد تسأثر بالقرآن الكريم في أسلوبه ولفظه، واستطاع أن يوظف التعبير القرآني «وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ»

- (1) أبأرهم : أهلكهم ، والبوار — بفتح الباء، والواو ، الهلاك ، واجترموا: اكتسبوا ، والمبير : المهلك.
- (2) الزحف : أراد به الجيش الزاحف عليهم، ورهوا — بفتح الراء المهملة وسكون الهاء — المشى في سكون ومهمل. وانتصابه إما على أنه مفعول مطلق بتقدير إتيان رهو أو بتقدير مشى نحوكم رهوا، وإما على أنه حال بتقدير متمهلاً، وبصير: أي عليم خبير .
- (3) الحماة : جمع حام ، ووزير ههنا بمعنى الملجأ والمعين .
- (4) السلم — بفتح السين أو كسرهما — الصلح ، ويحكم : دعاء عليهم، والويح الهلاك كالويسب والويس، وحالف: صاحب، يريد أن الكذب والزور كانا مصاحبين لهم فلم يعرفوا الرشد في أمرهم.
- (5) غب أمرهم — بكسر الغين المعجمة وتشديد الباء عاقبته، والوبال : النكال .
- (6) عامدين : قاصدين ، تقول : عمد إلى هذا الأمر، إذا قصدته ، وقينقاع — بفتح فسكون فضم — قبيلة من اليهود ، وغودر: ترك .

الْعَجَلُ يَكْفُرُهُمْ» [البقرة: ٩٣]، في قوله «فلما أشربوا غدرًا وكفرًا» ومن تعبيراته الجديدة "وجد بهم عن الحق النفور" ويروى: "وحاد بهم عن الحق النفور" وذلك في حديثه عن إعراض اليهود عن النبي ﷺ.

وقد ربط كعب بين أبيات قصيدته ، فالأخبار أصابهم خزي لأنهم كفروا برب العالمين ، ثم عطف ما بعده عليه بالواو، وقال: "وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً" وتتابع الأبيات كل بيت يؤدي إلى الذي يليه في تسلسل منطقي، واستعان في الربط بحروف العطف والتعليل "لأن"، والإشارة : "هذا، ذلك، تلك"، والضمير، والوصف ووظف الحوار في القصيدة: قال، قالوا.

وولد كعب دلالات جديدة في قصيدته، وهي مقتبسة من القرآن الكريم نحو: أمره أمر كبير، وأتوا فهماً وعلماً ، جاءهم من الله نذير، نذير صدق، وقولهم : ما أتيت بأمر صدق ، وأنت بمنكر منا جدير، أديت حقاً. فمن يتبعه يهتد، ومن يكفر به يجز الكفور، أشربوا غدرًا وكفرًا، الله يحكم بالعدل لا يجور، نعم النصير، أيده الله وسلطه، فذاقوا غب أمرهم، دار السوء، لهم وزير. ومن تعبيراته المتوارثة : علته السيوف ، غادره صريعاً ، دس إليه من يقاتله، أخو ثقة ، أبارهم مبير.

وكانت غزوة الخندق هزيمة أخرى فادحة للمشركين؛ فقد جمعت قريش حلفاءها من قبائل العرب لتشن بهم حرباً تبديد الإسلام وأهله فحزبت الأحزاب وجمعت أحابيشها، فخندق لهم النبي ﷺ خندقاً عجزوا عن اجتيازه فعسكروا حولهم المدينة، وكان معهم اليهود، فردهم الله تعالى لم ينالوا خيراً ، فانصرفوا خائبين، وكتب الله تعالى انتصاراً جديداً لدينه فدانت له العرب.

وقال حسان رضي الله عنه يوم الخندق يرد على شعراء المشركين :

هَلْ رَسَمْتُ دَارِسَةَ الْمَقَامِ يَبَابٍ	مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَاوَابٍ ^(١)
قَفَرْتُ عَفَارِهِمُ السَّحَابِ رُسُومُهُ	وَهُبُوبُ كُلِّ مَطْلَةٍ مَرَبَابٍ ^(٢)
تُورِثُنَّ مِنْ أَزْمَانٍ يَوْمَ حِلْمَةٍ	إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرْبُنَ كُلَّ التَّجَارِبِ

- (1) دراسة المقام: قد عفا محل الإقامة منها، واليباب: الفقر ، والمحاور : الذي يرجعك الكلام ويحدث معك.
(2) عفا : غير؛ والرهم — بكسر الراء وفتح الهاء — جمع رهمة — بكسر فسكون — وهو المطر الدائم ، وتقول : أرهمت السماء، إذا أتت بالرهم، والرسوم: جمع رسم، وهو الأثر ، ومطلة : اسم فاعل من أطلت السماء، إذا جاءت بالطل، وهو الضعيف من المطر، ومنه قوله تعالى : (فإن يصبها وابل فطل) وفسره أبو ذر بقوله : "ومطلة: أي مشرقة، وهو ههنا بالطاء المهملة فقط " هو عندنا بعد، ومجازه على ما قدمنا كره، ومر باب : دائمة ثابتة.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِهَا الْحُلُولَ يَزِينُهُمْ
فَدَعِ الدِّيَارَ وَذُخْرَ كُلِّ خَرِيدَةٍ
وَاشْكُ الْهُمُومَ إِلَى الْإِلَهِ وَمَا تَرَى
سَارُوا بِاجْمَعِهِمْ إِلَيْهِ وَالْبُؤَا
جَيْشٌ عَيْتُهُ وَابْنُ حَرْبٍ فِيهِمْ
حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوْا
وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ
بِهَبُوبٍ مُعْصِفَةٍ تَفَرِّقُ جَمْعَهُمْ
فَكَفَى الْإِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ
مَنْ بَعْدَ مَا قَنَطُوا فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ
وَأَقَرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصَحَابِهِ

بِيضُ الْوُجُوهِ ثَوَاقِبُ الْأَخْسَابِ^(١)
بِيَضَاءِ آنَسَةِ الْحَدِيثِ كَعَابِ^(٢)
مَنْ مَغْشَرُ ظَلَمُوا الرَّسُولَ غَضَابِ^(٣)
أَهْلَ الْقُرَى وَبَوَادِي الْأَعْرَابِ^(٤)
مُتَخَمِّطُونَ بِحَلَبَةِ الْأَخْزَابِ^(٥)
قَتَلَ الرَّسُولَ وَمَغْتَمِ الْأَسْلَابِ^(٦)
رَدُّوا بِغِيظِهِمْ عَلَى الْأَعْقَابِ^(٧)
وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ^(٨)
وَأَثَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ^(٩)
تَنْزِيلُ نَصْرِ مَلِكِنَا الْوَهَّابِ^(١٠)
وَأَذَلَّ كُلَّ مُكْذِبٍ مُرْتَابِ

- (1) الحول : البهوت المجتمعة، والثواقب : المشرقة ، ومنه قوله تعالى : (النجم الثاقب) .
- (2) الخريدة : المرأة الناعمة ، وقيل : هي البكر التي لم تمس قط ، وقيل : هي الحبيبة الطويلة السكوت الخافضة الصوت، والكعاب : التي نهذ نديها في أول ما نهذ ، وكعبت الجارية فهي كاعب وكعاب .
- (3) متآلبين : مجتمعين ، وتقول : ألبت القوم فتآلبوا ، أي جمعهم فاجتمعوا .
- (4) "ساروا باجمعهم إليه وألبوا" يروى في مكان هذا الشطر "أموا بغزوهم الرسول وألبسوا" وألبوا : أي جمعوا، وأموا: أي قصدوا ، وألبسوا: خلطوا وشبهوا، تقول: لبست على القوم الأمر، إذا خلطت شأنه عليهم وشبهته، ومنه قوله تعالى: (وللبسنا عليهم ما يلبسون) وأهل القرى وبوادي الأعراب: أراد بهم ضعاف الناس الذين تضعف عقولهم عن إدراك الحقائق ويقعون تحت تأثير المشككين .
- (5) عيينه : أراد به عيينة بن حصن الفزاري ، وابن حرب : أراد به أبا سفيان، وهما من قواد المشركين في حرب الخندق على ما علمت، وقوله "متخمطون" أي : مختلطون، ويقال: المتخمت : هو المتكبر الشديد الغضب، والحلبة — بفتح الحاء وسكون اللام — جماعة الخيل التي تعد للسباق .
- (6) مغتم : مصدر بمعنى الغنم ، والأسلاب : جمع سلب ، وهو ما يأخذه المحارب من قرنه إذا قتله .
- (7) الأيد — بفتح الهمزة وسكون الياء — القوة .
- (8) المعصفة : الريح الشديدة التي تعصف بكل شيء : أي تذهب به، وتقول : عصفت الريح وأعصفت، إذا اشتد هبوبها ، فهي عاصف من الأول ومعصف من الثاني .
- (9) هذا البيت والأبيات قبله مأخوذة من قول الله تعالى : (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى بالله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) .
- (10) قنطوا : ينسوا ، وقوله "نصر ملكنا" هو هكذا في أصول الكتاب وفي تاريخ ابن كثير (ج ٤ ص ١٣٣) ووقع في الديوان (تنزيل نص ملكنا الوهاب) ونظنه محرفاً.

عَاتِي الْفُؤَادِ مَوْقِعَ ذِي رَيْبَةٍ فِي الْكُفْرِ لَيْسَ بِطَاهِرِ الْأَثْوَابِ^(١)
عَلَى الشَّقَاءِ بِقَلْبِهِ فَفُسَّادُهُ فِي الْكُفْرِ آخِرَ هَذِهِ الْأَحْقَابِ^(٢)

استهل حسان رحمه الله القصيدة بمقدمة طليئة، بكى فيها الديار الدارسة، وقد كانت قبل مشرقة مجتمعة، ثم تخلص من هذه المقدمة، واستخف بها فالمقام لا يتسع لديار أو امرأة ناعمة، فالحدث جلل قال:

فدع الديار وذكر كل خريدة بيضاء آنسة الحديث كعاب

يقول فاترك الديار والحبوبة الناعمة البكر التي نهد ثدياها، والبعاء عليهما، واشك هؤلاء المشركين الظالمين إلى الله تعالى، فقد ظلموا رسولهم، وقتلوه وجمعوا له العرب وألبوا عليه الناس في المدن والبادية. فجاء عيينة بن حصن بمن معه من عطفان فظاهروا قريشاً وتحزبوا معهم، يريدون قتل الرسول ﷺ وسلبه وقد ردهم الله تعالى على أعقابهم لم ينالوا خيراً، بعد أن قنطوا من دخول المدينة، وبعث الله تعالى عليهم جنده ففرقهم وأخزى من ظاهرهم من بنى قريظة. وأقر الله تعالى عين محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم وأذل المشركين ومن ظاهرهم.

وقد تأثر حسان رحمه الله بالقرآن الكريم فقال: "وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ" من قوله تعالى: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرَمٍ قَادِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥]، "رُدُّوْا بِغِيْظِهِمْ" من قوله تعالى: ﴿وَوَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَغْضِبُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، "وَكَفَى الْإِلَهِ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ" من قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] واستخدم حسان أسلوباً سهلاً ولغةً حضرية ليست غريبة، ووظف مفردات مولدة مثل: الكفر، الإيمان، القنوط، قر عيناً، غدا قادراً، رده بغضه، كفى الله شر القتال.

ولقد تخلص حسان من بعض مظاهر تقاليد القصيدة الجاهلية فأوجز في المقدمة فلم تتجاوز أربعة أبيات، ولكنه ذكر الديار والحبوبة مقتضياً لنلا يخل بالتقليد القديم، وفعل كعب بن مالك ذلك، ولم يستطرد حسان في شيء عن الحبوبة الشابة الناهدة، فالأحداث تتلاحق والأمر جلل، وقد عاش المسلمون في ضيق شديد عندما حاسرتهم الأحزاب، فزاغت

(١) عاتى الفؤاد: قاس شديد القسوة، وموقع — بضم الميم وفتح الواو وتشديد القاف مفتوحة — هو السذي أصابته البلاء، وهو أيضاً البعير الذي كثرت فيه آثار الدبر، ووقع هذا البيت في الديوان هكذا:

مُسْتَشْعِرٌ لِلْكَفْرِ نُونُ ثِيَابِهِ وَالْكَفْرِ لَيْسَ بِطَاهِرِ الْأَثْوَابِ

(٢) وقع صدر هذا البيت في الديوان "علق الشقاء بقلبه فأرانه" وأرانه: غطى عليه، أو غلب على عقله فأماله عن الحق وعدل به عن الطريق السوي.

الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فأتى نصر الله تعالى وانكشف الضيق، وأصبح النصر حليف المسلمين بعد أن تحدث بعض المنافقين، وقالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وترك بعض الرسول ﷺ، وقد ثبت معه رجال أشداء مخلصون مؤمنون ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وكشفت هذه المعركة أعداء مجاورين معه في المدينة غدروا به وخاتوا وتحالفوا مع الأحزاب سراً ووعدوهم النصر، وهم يهود بنى قريظة فغزاهم النبي ﷺ من منصرفة من الخندق.

وقد صالحت قريش النبي ﷺ، ووقعت بينهما معاهدة الحديبية، واتفقوا على أن يضعوا السلاح، وأن لا يعتدوا في فترة الهدنة، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ ودخل بنو بكر في حلف قريش، وأذنت قريش للنبي ﷺ بالعمرة، فاعتمر، وكان معه جماعة من أصحابه وهي عمرة القضاء في العام الذي صالح فيه مشركي قريش قبل فتح مكة، وقد خرج المشركون ينظرون إليه، وعبد الله بن رواحه يقول:

خلوا بتي الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرمة تقول الشعر؟ فقال له رسول الله ﷺ: "خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل"^(١)، فشعر الحماسة الذي أنشده شعراء المسلمين كان أشد عليهم من وقع النبل جملة واحدة، وأشد عليهم من السياط ووقع السيف.

وغزا النبي ﷺ خيبراً بعد أن صالح مكة يوم الحديبية، وكانت مركزاً لليهود الذين أجلاهم من المدينة فنزلوا بها على من كان بها من يهود. وكان اليهود يخرجون منها يحرضون قبائل العرب على النبي ﷺ ويستعدونهم عليه، وقد ظاهروا قريشاً بعد بدر، وأغروهم بغزو المدينة، فكان يوم أحد ثم غزوة الخندق، فلما انتهى النبي ﷺ من قريش وعقد معهم الهدنة قفل عائداً إلى المدينة وجهز جيشاً لغزو خيبر، وقد قال ابن لُقَيْم العبسي، مفتخراً بجيش المسلمين من المهاجرين والأنصار ورجال من أسلم وغفار، وما فعلوه بيهود خيبر وما حققوا من انتصار سمع في العرب المشركين وأدخل الرعب في قلوبهم، وقال في آخرها:

(١) السيرة جـ ٤/٢٥ وأحكام القرآن، لابن العربي، دار الفكر، بيروت جـ ٣/١٤٤١.

ولقد علمت ليغلبن محمد
فرّت يهود يوم ذلك في الوغى
وليثوين بها إلى أصفار^(١)
تحت العجاج غنائم الأبصار^(٢)

لقد كان الشاعر مطمئناً إلى انتصار المسلمين على اليهود وأن الغلبة ستكون لمحمد ﷺ وأن خيبر ستكون له وقد انكشفت اليهود للموت.

وصارت خيبر من مفاخر المسلمين في الحروب، قال كعب بن مالك في يوم خيبر :
ونحن وردنا خيبراً وفروضه
جواد لدى الغايات لأواهن القوى
عظيم رماد القدر في كل شتوة
يرى القتل مذحاً إن أصاب شهادة
يذود ويحمى عن ذمار محمد
وينصره من كل أمر يريبه
يصدق بالأنباء بالغيب مخلصاً
بكل فتى عارى الأشجاع مذبذب^(٣)
جرئ على الأعداء في كل مشهد^(٤)
ضروب بنصل المشرفي المهتد^(٥)
من الله يرجمها وفوزاً بأحمد
ويدفع عنه باللسان وباليد^(٦)
يجود بنفس دون نفس محمد
يريد بذاك الفوز والعز في غد^(٧)

وكان للرجز دوره في غزوة خيبر، فقد ارتجز بعض الصحابة في المعركة ليدفعوا همهم، ويغروا أنفسهم بقتال الأعداء.
وقد ولي النبي ﷺ علماً رضي الله عنه كتيبة في غزوة خيبر، فبرز إليه مرحب اليهود،

(1) ليثوين : ليقمين ، ثوى : أقام ، الأصفار : جمع صفر ، وهو الشهر الحرم ، يريد أنه يقيم بها سنين ، وستكون له .

(2) فرّ : كشفت ، يريد انكشفوا للموت ، العجاج : الغبار .

(3) الفروض : المواضع التي يشرب منها من الأنهار ، والأشجاع : عروق ظاهر الكتف ، ومذبذب : أي يدفع عن حوزته ويمنع الأعداء أن تناله .

(4) الواهن : الضعيف ، ومشهد : مكان الحضور ، وشهد : أي حضر .

(5) عظيم رماد القدر : كناية عن أنه كريم ، وإنما خص الشتاء ، لأنه الود الذي تشتد فيه الحاجة وتعظم فيه قيمة العطية ، والمشرقي : السيف .

(6) يذود : يدفع ، والذمار — بزنة كتاب — ما تجب على الرجل حمايته والدفاع عنه .

(7) الأنباء : هو بفتح الهمزة جمع نباء ، والنبأ : الخبر ، والأنباء بكسر الهمزة — مصدر أنباء بكذا : أي أخبر به ، والفوز " يروى في مكانه " الغنم " ، وهو بضم الغين المعجمة من الغنمة . السيرة جـ ٣ / ٤٠٤ ، وراوها ابن هشام عن أبي زيد .

وهو يقول^(١) :

قد علمت خبير أنى مَرَحَبْ شاكي السلاح بطلُ مُجَرَّبْ

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه على ﷺ ، وهو يقول^(٢) :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غاب في العرين قسورة

أكليكم بالصاع كيل السندرة

ويعد ناجية بن جندب الأسلمي أشهر الرُجَاز والحدادة من أصحاب النبي ﷺ ، وقد

ارتجز في خبير قائلاً:

يا لعباد الله فيم يَرُغَبْ ما هوَ إلا مأكَلٌ ومَشْرَبٌ

وجنةٌ فيها نعيمٌ مُعْجَبٌ

وقال ناجية بن جندب الأسلمي أيضاً:

أنا لمن أنكرني ابن جندب ياربُ قرنٍ في مَكْرِي أنْكَبْ^(٣)

طاحَ بمغْدَى أنسرٍ وثَعْلَبِ^(٤)

وعلم النبي ﷺ بتحركات الروم نحو الحجاز ومعهم بعض عرب الشام، فبعث النبي ﷺ بعثة تستطلع الأمر، وتخضع القبائل التي تقع على طريقهم إلى مؤته قرب الشام ، وقد كان عبد الله بن رواحة ثالثاً بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب في قيادة الجيش، وقد ولاهم النبي ﷺ إمرة الجيش تبعاً قبل أن ينصرفوا إن قتل الأول فالثاني، فالثالث، وكان هذا مؤشراً على أنهم سينالوا الشهادة، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ، فودعه ثم قال^(٥):

أنت الرسولُ فمن يُحَرِّمُ نوافِلَه والوجهُ منه فقد أزرى به القدرُ

(1) مقاتل الطالبين ، لأبي الفرج الأصفهاني ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ج — ٢٤/١ ، ٢٥ — شاكي السلاح : لبس عدة الحرب.

(2) قيل إن علياً ﷺ أسمته أمه أسداً باسم أبيها أسد بن هاشم بن عبد مناف . وكان أبو غانبا فلما قدم سماه علياً ، وحيدرة اسم من أسماء الأسد ، السندرة : مكبال كبير.

(3) القرن — بكسر القاف — الذي يقاوم في قتال أوشدة ، والمكر : الموضع الذي تكرر فيه الخيل ، والأنكب : المائل إلى الجهة .

(4) طاح: ذهب وأهلك، وقوله " بمغدى أنسر " يروى مغدى بالبدال المهملة — ويروى بمغذى — بالذال المعجمة — فأما من رواه بالبدال المهملة ، فهو من الغذاء ، وهو على الروایتين اسم مكان، والأنسر : جمع أنسر . السيرة ج — ٤٠٣/٣ .

(5) السيرة ج — ٤٢٩/٣ ، تفرست : تبينت ، خافلة: هبة من الله وعطيه ، أزرى : قصر به . عرفت هذه الغزوة بغزوة مؤته، وهي موضع بالشام.

فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ فِي الْمُرْسَلِينَ وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً فِرَاسَةً خَالَفَتْ فِيكَ الَّذِي نَظَرُوا
يريد أنه رأى فيه ما لم يره المشركون فيه. وقيل إن النبي ﷺ دعا له، وقال: وإياك ثبت.
وودع المسلمون رجال الجيش وقادته، فقال له أحد المسلمين: ردكم الله، فلم يسعد
بالرجعة بلا نضال، وقد بكى عبد الله بن رواحة، والناس تودعه، فقالوا: ما يبكيك يا ابن
رواحه؟ فقال: أما والله ما بى حب الدنيا ولا صباية بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ
آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ
حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلست أدرى كيف بعد الورود، فقال: المسلمون صحبكم الله،
ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله:

لكنى سأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا^(١)
أو طعنة بيدي حرّان مُجَهَّزة بحربة تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حتى يقولوا إذا مروا على جدني أرشدك الله من غازٍ وقد رشدا
فكل ماتناه مغفرة الله تعالى أو أن يضرب بالسيف ضربة تفجر الدم أو يطعن بالرمح
طعنة تنفذ في الأحشاء والكبد حتى يقولوا الناس وهم يمرون بقبره: الله أنت من غاز، لقد
كنت رشيداً في أمرك عندما جاهدت حتى نلت الشهادة. وقد انصرف بن رواحة عن ودعه
وهو يقول^(٢): خَلَفَ السَّلَامُ عَلَى أَمْرِي وَدَعْتُهُ فِي النَّخْلِ خَيْرٌ مُشِيعٍ وَخَلِيلٍ
وروى زيد بن أرقم أنه كان رديف عبد الله بن رواحة، فسمعه، وهو يقول في الطريق
إلى مؤتة: إِذَا أَدْبَيْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ^(٣)
فَشَأْنُكَ أَنْعَمَ وَخَلَاكَ ذِمٌّ وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي^(٤)
وجاء المسلمون وغادروني بَارِضَ الشَّامِ مُنْتَهَى الثَّوَاءِ^(٥)
وردك كل ذي نسب قريب إِلَى الرَّحْمَنِ مَنْقَطِعَ الْإِخَاءِ
هَذَاكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ بَعْلٌ وَلَا نَخْلٌ أَسَافِلُهَا رَوَاءِ^(٦)

(١) الزمخشري ج ١/ ٣٧٠، والسيرة ج ٣/ ٤٢٧

(٢) السيرة ج ٣/ ٤٢٩، وهو يرد بمن ودعه النبي ﷺ والنخل يريد يشرب، وهي ذات نخيل.

(٣) الحساء: مثل: دلاء مفرد دلو، وهو ما يغور في الأرض من الماء، فإذا بعثت عنه وحدته.

(٤) لا أرجع: فعل دعاء مجزوم، يدعو على نفسه بالشهادة في المعركة، فلا يرجع إلى أهله.

(٥) الثواء: الإقامة.

(٦) البعل: النبات الذي يشرب بعروقه من الأرض، ولعذى: النبات الذي يشرب من ماء السماء، ورواء بالشام فيه إقواء، لأنه خالف الروى.

فلما سمع زيد بن أرقم منه ذلك بكى، فخفقه عبد الله بالدرة، وقال: ما عليك يا لكع أن يرزقني الله شهادة، وترجع بين شعبتي الرجل؟ وقد واجه جيش المسلمين جموعاً كثيرة من الروم ومن ظاهريهم من قبائل العرب، وصبر لهم المسلمون على قتلهم.

ونزل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه عن فرسه، ورائج وهو يقاتل قائلاً:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم رومٌ قد دنا عذبها كافرة بعيدة أنسابها
على إذ لاقيتها ضرابها

وجعل رضي الله عنه يرفع من جاش نفسه، ويغري نفسه بالشهادة، بعد أن قتل زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وأصبح أمير الجيش، فارتجز قائلاً:

أقسمت يا نفس لتنزلنني لتنزلن أو لتكرهنني
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين الجنة
قد طالما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنة^(١)
وقال أيضاً:

يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت قد أعطيت إن تفعلني فعلهما هديت^(٢)

وظل يقاتل وينازل الروم وأنصارهم العرب حتى نال الشهادة رضي الله عنه، فاختر الناس خالد بن الوليد، فقاتل بهم، ففقد النصر في المعركة، ورأى الانسحاب لقلّة المسلمين التي لا تقارن بكثرة جيش الروم وعدته، فوضع خطة للانسحاب، ونجا بجيشه^(٣).

وتتميز أراجيز بن رواحة وشعره بالإيقاع العالي، وهذا شأن الأراجيز والأشعار الحماسية، وأسلوبها سهل قريب الفهم، ولغتها واقعية من البيئة من البيئة، وليست وحشية بدوية. ولم تتوقف مسيرة الجهاد بمؤتة التي تعد انتصاراً لجيش المسلمين الذي ثبت أياماً، أمام جيش الروم وليس بينهما تكافؤ في لعدد والعدة، وقد عزم النبي ﷺ على التخلص من خطر قريش أولاً ثم يعد جيشاً قوياً يؤدب به الروم، وقد نقض أهل مكة العهد، فقد

(1) النطفة: الماء القليل الصافي. الشنة: القرية القديمة.

(2) ويريد بالثنين فيهما: صاحبيه زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وقد أستشهدا قبله.

(3) ارجع إلى السيرة جـ ٣/٣٥؛ لقد واجه المسلمون عدداً ضخماً لم يتوقعوه، وقد أعد النبي ﷺ جيشاً آخر جراراً ضخماً وتولى قيادته، فترجع الروم وخشوا مواجهته لما وجدوه من جيش مؤتة، وقد كان عدده قليلاً جداً قياساً إلى عدد جيش المسلمين في تبوك.

صالحوا النبي ﷺ على هدنة سنة سبع، وقد كرهها بعض المسلمين الذين كانوا يرون التعجيل بفتح مكة، وانصرف النبي ﷺ عنهم هذا العام اتقاء الحرب بمصالحة بينه وبين مشركي مكة، وكان فيها ألا تعتدي قريش على المسلمين أو حلفائهم، وقد دخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ في الصلح، وذكروه بحلف لهم مع أبي طالب جده، فحالفهم عليه في الإسلام وزاده قوة. ودخل بنو بكر في حلف قريش، وكان بينهم وبين خزاعة دماء في الجاهلية وحجز الإسلام بينهم بالمصالحة مع قريش، فاغتنمت بنو بكر الهدنة بين مكة والمدينة ونالوا من رجال من خزاعة كانوا بالحرم وظاهرهم رجال من قريش وأمدوهم بالسلاح، فاستجار من بقى منهم برجال من قريش. وتظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا وكانت خزاعة ضمن المسلمين، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعهده، وخرج عمرو بن سالم الخزاعي، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراي الناس، فقال :

يارب إني ناشدُ مُحَمَّداً	حلفَ أبينا وأبيه الأتْلَدَا ^(١)
قَدْ كُنْتُمْ وَلَدَا وَكُنَّا وَلَدَا	ثُمَّتَ اسْتَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا ^(٢)
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا	وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا ^(٣)
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا	إِنْ سِيمَ خُسْفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا ^(٤)
فِي فَيْلَقِ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا	إِنْ قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا ^(٥)
وَتَقَضُّوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا	وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رُصْدَا ^(٦)
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا	وَهُمْ أَذِلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا

- (1) ناشد : طالب ومذكر ، والأتلد : القديم ، قال ابن هشام : ويروى أيضاً : " فانصرْ هذاكَ الله نصرًا أَدَا " وأبدأ : قوياً ، وهو من التأييد ، المعونة . قال ابن هشام : ويروى أيضاً : نَحْنُ وَلَدُنَاكَ فَكُنْتَ وَلَدَا .
- (2) نصرًا أَعْتَدَا : أي حاضرًا ، والمدد : العون .
- (3) "قد تجردا" تروى هذه الكلمة بالجيم وبالحاء المهملة : فأما من رواه بالجيم فمعناه شمر وتهيباً لحربهم ، وأما من رواه بالحاء المهملة فمعناه غضب وثار ، وسيم خُسْفًا : معناه طلب منه وكلفه ، والخسف - بفتح فسكون - الذل ، وترَبَّدَا : تغير .
- (4) الفيلق : العسكر الكثير .
- (5) كدَاء : موضع بمكة ، "ورصدًا" يروى بضم الراء وتشديد الصاد مفتوحة فهو جمع راصد ، مثل راعع وركع ، والراصد : الذي يترصد الأمر ويطلبه ، ويروى "رصدًا" بفتح الراء والصاد جميعاً .
- (6) الوتير : اسم ماء ، وهجد : جمع هاجد ، ويطلق على النائم أو المستيقظ ، وهو من الأضداد . السيرة جـ ١١/٤ .

هُم يَبْيِتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجْدَا قَتَلُونَا رُكْعَا وَسُجْدَا

لقد كان هذا الشعر مما هاج فتح مكة، فقد روى ابن إسحق أن رسول الله ﷺ قال: "تصرت يا عمرو بن سالم" ثم عرض لرسول الله ﷺ عَنَانٌ مِنَ السَّمَاءِ فَقَالَ: "إِنْ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْتَهْلَ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ".^(١)

وأمر النبي ﷺ أصحابه بأن يعدوا أنفسهم للغزو، فجهزوا أنفسهم، وكنتم الجهة التي يقصدها، وقال: "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها"، وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه يحرض المسلمين، ويذكر ما فعلته قريش ومن ظاهرها من بني بكر بخزاعة ومصاب رجال منها:

عَنَانِي وَلَمْ أَشْهَدْ بِبَطْحَاءِ مَكَّةَ	رِجَالُ بَنِي كَعْبٍ تَحَزُّ رِقَابُهَا ^(٢)
بَأَيْدِي رِجَالٍ لَمْ يَسْلُوكُوا سُبُوفَهُمْ	وَقَتْلَى كَثِيرٍ لَمْ تَجْنُ ثِيَابُهَا ^(٣)
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَنَالَنَّ نَصْرَتِي	سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَحَرْثُهَا وَعَقَابُهَا ^(٤)
وَصَفْوَانُ عَوْدُ حَزٍّ مِنْ شَعْرِ اسْتَه	فَهَذَا أَوَّانُ الْحَرْبِ شَدَّ عَصَابُهَا ^(٥)
فَلَا تَأْمَنُنَا يَا ابْنَ أُمِّ مُجَالِدٍ	إِذَا احْتَلَبْتَ صِرْفًا وَأَعْصَلَ نَابُهَا ^(٦)
وَلَا تَجْزَعُوا مِنْهَا فَإِنْ سُبُوفُنَا	لَهَا وَقَعَةٌ بِالْمَوْتِ يَفْتَحُ بَابُهَا ^(٧)

وقد سعد المسلمون بهذا الغزو فلم يسعدهم صلح الحديبية؛ لأنهم كانوا يريدون مكة ويستعجلون دخولها فاتحين حينئذ إلى بيت الله الحرام ليخلصوه من المشركين والوثنية .
وقد علم رجال من مكة بخروجه إليهم، فخرج رجال منهم إليه معذرين، فقد قدم عليه أبو سفيان بن الحارث ابن عمه ومعه ابن له وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة على رسول الله ﷺ، فلقياه وهو في طريقه إلى مكة للفتح بـ "تيق العقاب"، فطلبا من أم سلمة زوج النبي ﷺ أن تستأذن لهما على رسول الله ﷺ، وشفع لهما، فقالت: يا رسول الله، ابن

(1) السيرة جـ ١٢/٣، وعنان من السماء : سحابة .

(2) يروى : وغينا فلم نشهد . وتحز : نقطع .

(3) سل السيف : شهره . تجن ثيابها : تستر ، يريد أنهم قتلوا ولم يدفنوا .

(4) ويروى: "وخزها وعقابها"، ويروى: "حربها وعقابها"، الوخز: الطعن النافذ في جنب المطعون، ويقال: الطعن غير النافذ .

(5) صفوان : صفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، وكان مع من أغاروا على خزاعة ، والعود: المسن من الإبل مع أن فيه بقية ، والاست : الدبر .

(6) ابن أم مجالد : عكرمة بن أبي جهل ، والصرف : اللبن الخالص، أعصل: أعوج ، وناب أعصل: أعوج.

(7) لا تجزعوا : لا تفزعوا . السيرة جـ ١٥/٤ ، ١٦ .

عمك وابن عمك وصهرك. قال : "لا حاجة لي بهما أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهرى فهو الذي قال لي بمكة ما قال. فقال أبو سفيان : والله ليأذنن لي أو لاأخذن بيدي بتي هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرق لهما، ثم قال شعراً بعد أن أسلم، واعتذر إليه مما كان مضى منه، فاقسم أنه يوم قاتل في صفوف المشركين النبي ﷺ كالذي يسير حيراناً في ليلة مظلمة، وقد حان وقت الاهتداء إلى المقصد الصحيح، وأصاب الحق، وقد هداني إليه من ضيقت عليه وسعيت في نفيه، وهو ادعاء كاذب، فقد زعم أنه أخرج النبي ﷺ ونفاه من مكة، قال (١):

لَعَنُوكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً لَتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ (٢)
لَكَا لَمْدَلَجَ الْحِيرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ فَهَذَا أُوَانِي حِينَ أَهْدَى وَأَهْتَدِي (٣)
هُدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَنَالَنِي مَعَ اللَّهِ مِنْ طَرَدْتُ كُلَّ مُطَرَّدٍ (٤)

ويروى : "ودلني على الحق من طردت كل مطرد".

وقيل : إن النبي ﷺ حين أنشده "ونالني مع الله من طردت كل مطرد". ضرب رسول الله ﷺ في صدره؛ وقال : "أنت طردتني كل مطرد؟!". ثم ذكر صدوده ورده الناس عن الإسلام، وعداوته النبي ﷺ، فقال :

أَصْدُ وَأَنَّى جَاهِدًا عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُدْعَى وَإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّدٍ (٥)
هُمْ مَا هُمْ مِنْ لَمْ يَقُلْ بِهِوَاهُمْ وَإِنْ كَانَ ذَا رَأَى يَلْمُ وَيُقْنَدُ (٦)
أُرِيدُ لَأَرْضِيهِمْ وَلَسْتُ بِلَاطٍ مَعَ الْقَوْمِ مَا لَمْ أَهْدَ فِي كُلِّ مَقْعَدٍ (٧)
فَقُلْ لِنَثْقِيفٍ لَا أُرِيدُ قِتَالَهَا وَقُلْ لِنَثْقِيفٍ تِلْكَ: غَيْرِي أَوْعِدِي (٨)
فَمَا كُنْتُ فِي الْجَيْشِ الَّذِي نَالَ عَامِرًا وَمَا كَانَ عَنْ جَرَى لِسَانِي وَلَا يَدِي
قَبَائِلَ جَاعَتِ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ نَزَائِعُ جَاعَتِ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدِيدِ

(1) السيرة ج ٤/ ١٨، ١٩، ٢٠.

(2) اللات: اسم صنم من أصنام العرب. وأراد بخيل اللات: جيش الكفر والشرك، وخيل محمد: جيش المسلمين.

(3) المدلج : الذي يسير ليلاً.

(4) مُطَرَّد : مصدر ميمي، بمعنى : طرد.

(5) أصد : أ منع الناس عن الدخول في الإيمان. أنى : أبعد عنه جاهداً : مجتهداً.

(6) قَنَدَ : من القند، وهو الكذب. السيرة ج ٤/ ١٩ ، ٢٠.

(7) لاط : ملصق، يقال لاط حبه بقلبي : إذا لصق به.

(8) أوعدي : هدي.

وخرج بعضهم يسترحمه ويطلب عفواً عاماً لأهل مكة ويذكره بالرحم، ومنهم أبو سفيان بن حرب الذي لقيه بالجعرانة قبيل مكة، وأسلم هنالك.

وقد أمر النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يأخذ أبا سفيان بن حرب إلى مكان بالجبل، فيرى كتاب الإسلام وهي تمر قبل دخولهم مكة، فمر سعد بن عبادة به، فقال له يا أبا سفيان: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة" (١) فوقع في قلبه الخوف على قومه، وعلم رسول الله ﷺ بقول سعد، فأخذ الراية منه، وروى عن جابر رضى الله عنه : أن امرأة من قريش عارضت رسول الله ﷺ لما قال سعد بن عبادة ذلك فقالت :

يا نبي الهدى إليك لجا	جى قريش ولات حين لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأثر	ض وعاداهم إليه السماء
إن سعداً يزيد قاصمة الظهر	ر بأهل الحجون والبطحاء

فلما سمع هذا الشعر دخلته رافة لهم ورحمة، فأخذ الراية من سعد ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد. (٢)

ولحسن قصيدة قالها وجيش المسلمين في طريقه إلى مكة، وقد تحقق ما قاله من فزع أهل مكة وخروج النساء.

روى البيهقي عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطنن وجوه الخيل بالخمير، فتبسم إلى أبي بكر، فقال : يا أبا بكر كيف قال حسان ؟ فأنشد قوله: (٣)

عدمت بنيتي إن لم تروها	تثير النقع موعدها كداء
يناز عن الأسنة مسرجات	يلطمهن بالخمير النساء

وكان فضالة بن عمير بن الملوّح الليثي يريد قتل النبي ﷺ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله، قال :

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح.

(2) فتح الباري جـ ٦٠٥/٧، وكان ذلك في العام الثامن.

(3) فتح الباري جـ ٦٠٧/٧، وهما من قصيدته التي أولها :

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

الديوان ص ١٧، والسيرة جـ ٤٤/٤. وقد سبق شرحها.

ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال لا شيء كنت أذكر الله عز وجل، فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما كان من خلق الله شيء أحب إلى منه، فمر، وهو راجع إلى أهله بامرأة كان يتحدث إليها، فقالت هلم إلى الحديث، فقال: لا، وقال:

قالت : هلم إلى الحديث، فقلت : لا يَأْبَى عَلَيْكَ وَاللَّهُ وَالْإِسْلَامُ
لو ما رأيت محمداً وقبيلته بالفتح يوم تَكْسُرُ الْأَصْنَامُ
لرأيت دين الله أضحى بيئنا والشرك يغشى وجهه الإظلام

وحسن إسلامه وسيرته.(١)

وكان النبي ﷺ يطوف على راحلته يوم الفتح وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل يشير بقضيب في يده إلى الأصنام، ويقول قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] .

فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقى منها صنم إلا وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك:(٢)

وفي الأصنام معتبرٌ وعِلْمٌ لِمَنْ يَرْجُو الثَوَابَ أَوْ الْعِقَابَا

واجتمعت جماعة من المشركين، فيهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، في مكان يسمى الخندمة، ليردوا رسول الله ﷺ عن دخول مكة، وكان معهم حماس بن قيس من بني بكر، فقال مرتجزاً:(٣)

إِنْ يَقْبَلُوا الْيَوْمَ فَمَالِي عِلَّةٌ هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ آلَةٌ وَذُو غِرَارِينَ سَرِيعُ السَّلَّةِ
فلقيتهم خيل المسلمين، فانهزموا، فولى حماس منهزماً، وعاد إلى بيته وطلب من زوجته أن تغلق الباب، وكان قد وعدها أن يخدمها بعض المسلمين، فسألته أين كنت : فقال:

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتممة واستقبلتهم بالسيفوف المسلمة

(1) السيرة جـ ٣٧/٤ .

(2) السيرة جـ ٣٧/٤ .

(3) وتروي هذه الأبيات للرعاش الهذلي. ارجع إلى السيرة جـ ٢٨/٤ .

الآلة : الحربة لها سنان طويل. ذو غرارين : يريد السيف، والغرار : الحد.

يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمَةٍ ضَرْبًا فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةٌ
لَهُمْ نَهْيَتْ خَلْفَنَا وَهَمَّهْمَةٌ لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَةٍ^(١)

وقد كان فتح مكة فتحًا مبينًا، فقد فتح الله به للإسلام قلوب العرب فأتوا طوعًا مسلمين، وبايعوه على السمع والطاعة.

وسقطت بفتح مكة المعارضة التي عنت عن أمر ربها، وأطالت في عنادها، فدانت لله ولرسوله طوعًا وهي طائعة، وتحول شعراء المشركين الذين هجوه ونالوا منه ومن المسلمين إلى معتذرين ومادحين، يطلبون العفوا، وهرب رجال من المشركين خشية أن يلقوا جزاء صنعهم من النبي ﷺ، فقد هرب عبد الله بن الزبيري إلى نجران أيضًا، فرماه حسان ببيت شعر واحد ما زاد عليه، وهو :

لَا تَعْدَمَنْ رَجُلًا أَحَلَّكَ بُغْضُهُ نَجْرَانُ فِي عَيْشٍ أَحَدٌ لَنِيْمٍ

أي لا تترك رجلاً حملك كرهك له على العيش في نجران قليل المؤنة منقطع لا أنيس لك. فلما بلغ ذلك ابن الزبيري عاد مسرعًا إلى النبي ﷺ ، واعتذر إليه ومدحه:^(٢)

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِن لِّسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ أَبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْـ غَىٍّ وَمِنْ مَالٍ مِثْلَهُ مَثْبُورُ
أَمَّنَ اللَّحْمِ وَالْعِظَامِ لِرَبِّي ثُمَّ قَلْبِي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ
إِنِّي عَنْكَ زَاجِرٌ ثُمَّ حَيًّا مِنْ لَوْىٍ وَكُلُّهُمْ مَغْرُورُ

وهرب هبيرة بن أبي وهب إلى نجران أيضًا، وأقام بها هبيرة حتى مات كافرًا، وكانت عنده أم هانئ ابنة أبي طالب، واسمها هند، وقد قال حين بلغه إسلام أم هانئ:^(٣)

(١) أبو يزيد: كنية عروة بن مسعود، وخففت الهمزة للضرورة، والمؤتمه التي قُتل زوجها، ولها أولاد أيتام، وأيتمت فهي مؤتم. والجمجمة: الرأس، الغمغمه: أصوات الأبطال في الحرب. النهيت: نوع من صياح الأسد، والهمهمة: صوت في الصدر. السيرة جـ ٤/٢٨، ٢٧.

(٢) السيرة جـ ٤/٣٩. يريد أن لسانه سوف يصلح ما قاله وهو مشرك، عندما بارى الشيطان في الضلالة، واتبعه وأهلك نفسه، أو قد صدق لحمي وعظامي وقلبي أنك أنت النذير البشير، وسوف أزجر عنك كل من هجأك أو نال منك. وقد سبق ذكرها في الاعتذار.

(٣) السيرة جـ ٤/٤٣.

- أَشَافَقْتُكَ هُنْدَ أَمْ أَتَاكَ سُؤَالُهَا
وَقَدْ أَرَقْتُ فِي رَأْسِ حِصْنٍ مُمْتَعٍ
وَعَاذِلَةٌ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومَتِي
وَتَزَعُمُ أَنِّي إِنْ أَطَعْتُ عَشِيرَتِي
فَبَانِي لِمَنْ قَوْمٍ إِذَا جَدُّ جِدُّهُمْ
وَإِنِّي لَحَامٍ مِنْ وَرَاءِ عَشِيرَتِي
وَصَارَتْ بِأَيْدِيهَا السُّيُوفُ كَأَنَّهَا
وَإِنِّي لِأَقْلَى الْخَاسِدِينَ وَفَعَلَهُمْ
وَإِنْ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ تَابَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ
فَكُونِي عَلَى أَعْلَى سَحِيقٍ بِهِضْبَةٍ
- كَذَلِكَ النَّوَى أَسْبَابُهَا وَانْفَتَالُهَا^(١)
بِنَجْرَانَ يَسْرِي بَعْدَ لَيْلٍ خِيَالُهَا^(٢)
وَتَغْذِلُنِي بِاللَّيْلِ ضَلَّ ضَلَالُهَا^(٣)
سَأَرْدَى وَهَلْ يُرْدِينِ إِلَّا زِيَالُهَا^(٤)
عَلَى أَيِّ حَالٍ أَصْبَحَ الْيَوْمَ حَالُهَا
إِذَا كَانَ مِنْ تَحْتِ الْعَوَالِي مَجَالُهَا^(٥)
مَخَارِيقُ وَلَدَانٍ وَمِنْهَا ظِلَالُهَا^(٦)
عَلَى اللَّهِ رِزْقِي نَفْسُهَا وَعِيَالُهَا^(٧)
لَكَالْنَبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا^(٨)
وَعَطَّقْتَ الْأَرْحَامَ مِنْكَ حِبَالُهَا
مُلْتَمَّةٌ غِبْرَاءَ يَبْسُ بِلَالُهَا^(٩)

وقال أنس بن زُنيَم الدَّيْلِي يعتذر إلى رسول الله ﷺ مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي، الذي ذهب يستغيث النبي ﷺ عندما قام رجال من بني بكر بقتل رجال من خزاعة ونقضوا العهد:

- (1) "أتاك" ويروى "تأك" ومعناه بَعْدَ عَنْكَ، والنَّأْيُ : البعد، وانفَتَالُهَا : يروى بالفاء الموحدة، ومعناه تَقْلِبُهَا من حالة إلى حالة، ويروى في مكانه "وانفَتَالُهَا" بالقاف.
- (2) أَرَقْتُ : أزالَت النوم، ونَجْرَان : بلد قرب اليمن شمالها، ويسري : يسير ليلاً.
- (3) هَبَّتْ : استيقظت من نومها، وضَلَّ ضَلَالُهَا : دعاء عليها بالضللال.
- (4) أَرْدَى - بفتح الدال، من باب رَضَى يَرْضَى - أَي : أَهْلَكَ، وزِيَالُهَا : ذهابها.
- (5) العَوَالِي : جمع عالية، وهي أعلى الرمح.
- (6) مَخَارِيقُ : جمع مخراق، وهو منديل يمسكه الصبي بيده ويضرب به، شبه السيوف به.
- (7) أَقْلَى : أبغض، وأَقْلَى - بكسر القاف - البغض، وقد قَلَاهُ يَقْلِيهِ وَقَلَاهُ يَقْلُوهُ وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣].
- (8) "في غير كنهه" أي في غير حقيقته، وكنهه الشيء : حقيقته وما هو عليه، والنصال : حديد السهام.
- (9) السحيق : البعيد، والهضبة : الكدية العالية، والملممة : المستديرة، والغبراء : التي علاها الغبار، واليبس : اليابس. ويروى : وقطعت الأرحام منك حبالها.

أَنْتَ الَّذِي تُهْدِي مَعْدٌ بِأَمْرِهِ
وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا
أُحِثُّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبِغُ نَائِلًا
وَأَكْسِي لِبُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ
تَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُذِرِّي
تَعْلَمُ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ
تَعْلَمُ بِأَنَّ الرُّكْبَ رَكْبَ عَوْنِمْ
وَتَبَّوْا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ
سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ وَيْلُ أُمَّ فِتْيَةٍ
أَصَابَهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِدِمَائِهِمْ

بَلِ اللَّهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ أَشْهَدُ
أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ^(١)
إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ الْمُهْنَدِ^(٢)
وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ^(٣)
وَأَنْ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخَذِ بِالْيَدِ^(٤)
عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتَهَمِينَ وَمُنْجِدِ^(٥)
هُمْ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلِفُونَ كُلُّ مَوْعِدٍ
فَلَا حَمَلَتْ سَوَاطِي إِلَى يَدِي
أَصَابُوا بِنَحْسٍ لَا يَطْلُقُ وَأَسْنَعُ^(٦)
كَفَاءً فَعَزَّتْ عِبْرَتِي وَتَبْلُدِي^(٧)

فَأَنَّكَ قَدْ أَخْفَرْتَ إِنْ كُنْتَ سَاعِيًا
ذُو نَيْبٍ وَكُلْثُومٍ وَسَلْمَى تَتَابَعُوا
وَسَلْمَى لَيْسَ حَيٌّ كَمِثْلِهِ
فَأِنِّي لَا دِينََا فَتَقْتُ وَلَا دِمَا

بِعَبْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةِ مَهْوَدِ^(٨)
جَمِيعًا فَلَا تَذْمَعُ الْعَيْنُ أَكْمَدِ^(٩)
وَإِخْوَتُهُ وَهَلْ مُلُوكٌ كَأَعْبَدِ
هَرَقْتُ تَبَيَّنَ عَالِمَ الْحَقِّ وَأَقْصَدِ

(1) الذمة : بكسر الذال، وتشديد الميم : العهد.

(2) أحث: أسرع، وأشد حثًا للناس واستنهاضًا لهمتهم، وأسبغ: أكمل وأضفى، والنائل: العطاء، والمهند: الصارم.

(3) الخال : ضرب من برود اليمن، وابتداله : استعماله حتى يبتذل، والسابق هنا : الفرس، والمتجرد : أراد به الذي يسبق الخيل.

(4) تعلم : معناه اعلم، والوعيد : التهديد.

(5) صرم - بكسر فسكون - البيوت المجتمعة، ومتهمين : أي يسكنون تهامة، والمنجد : الذي يسكن نجد، وأراد بتهامة المنخفض من الأرض وبند المرتفع منها.

(6) "طلق" يقال: يوم طلق؛ إذا لم يكن فيه حر ولا برد ولا شيء يؤذي، وكذلك قولهم : ليلة طلقة.

(7) كفاء : أراد نظيرًا أو مكافئًا، وعزت : اشتدت حتى غلبتني، ومنه قوله تعالى : «وعزتي في الخطاب»، والعبرة : الدمعة، وتبلدي : تحيري، ويروى "تجلدي"، وهو الصبر.

(8) أخفرت : نقضت العهد.

(9) أكمد : هو من الكمد، وهو الحزن.

وكان عباس بن مرداس السُّلَمي مشركاً وأسلم يوم الفتح، وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جُند حول مكة، يدعو الناس إلى الإسلام، فقال عباس بن مرداس مخاطباً رسول الله ومادحاً خالداً: (١)

فإن تك قد أمرت في القوم خالداً وقدَّمته فإنه قد تقدَّمَا
بجندِ هَذاهُ الله أنت أميرُهُ نصيب به في الحق من كان أظلماً

وظهر خطر آخر بعد فتح مكة، فقد جمع مالك بن عوف النصري هوازن بني نصر، وجُشَم، وسعد، ورجال من بني هلال، وأجمع السير إلى رسول الله ﷺ وجعل مع الرجال أموالهم ونساءهم وأبناءهم ليقاتلوا عنهم ولا يفروا، وكان فيهم الشاعر والفارس دُرَيْد بن الصمة، وقد أسن فحملوه في شجار (محمل يشبه الهودج مكشوف الظهر)، يتبركون به ويستشرونه، وقد أنكر على مالك بن عوف أنه حمل مع الجيش النساء والأولاد والأموال، فقال دريد أسفاً: (٢)

يا ليتني فيها جَذَع أخبُ فيها وأضغ
أقودُ وطفاء الزمغ كأنها شاة صَدَغ

وقال دريد لمالك هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني، وقال: (٣)
وهل أنا إلا من غزوة إن غوت غويت وإن ترشد غزوة أرشد
وانتصر المسلمون في حنين، وفر مالك بن عوف ورجال معه، وتركوا وراءهم أولادهم، ونساءهم وأموالهم، وقُتِل دُرَيْد بن الصمة.
وقال بجير بن زهير بن أبي سُلمى في يوم حنين يعبرهم بالفرار ويفخر بانتصار المسلمين:

(1) السيرة جـ ٤/٥٣ وقال بن هشام قالها يوم حنين.

(2) السيرة جـ ٤/٦٧.

(3) الأسمعيات، دار المعارف ص ١١٢، وتاريخ الحكم في الإسلام، الدكتور محمود عكاشة. مؤسسة المختار

لَوْلَا إِلَٰهٌ وَعَبْدُهُ وَلَيْتُمْ
بِالْجِزْعِ يَوْمَ حَبَالِنَا أَفْرَانِنَا
مِنْ بَيْنِ سَاعِ ثَوْبِهِ فِي كَفِّهِ
فَاللَّهُ أَكْرَمَنَا وَأَظْهَرَ دِينَنَا
وَاللَّهُ أَهْلَكَهُمْ وَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ

حِينَ اسْتَخَفَّ الرُّعْبُ كُلَّ جَبَانٍ (١)
وَسَوَابِجٍ يَكْبُشُونَ لِلْأَذْقَانِ (٢)
وَمُقَطَّرٍ بِسَنَابِكٍ وَلَبَّانٍ (٣)
وَأَعَزَّتْنَا بِعِبَادَةِ الرَّحْمَنِ
وَأَذَلَّهُمْ بِعِبَادَةِ الشَّيْطَانِ

وتوجه النبي ﷺ نحو الطائف، وكانت آخر معادل المشركين، وقد تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ في حنين - فقال كعب بن مالك حين أجمع رسول الله ﷺ إلى الطائف :

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلُّ رَبِّ
نُخْبَرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ
فَلَسْتُ لِحَاضِنٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
وَتَنْتَزِعُ الْعُرُوشَ بِبِطْنٍ وَجٍ
وَيَأْتِيَكُمْ لَنَا سَرْعَانُ خَيْلٍ
إِذَا نَزَلُوا بِسَاحَتِكُمْ سَمِعْتُمْ
وَحَيْبَرٌ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا (٤)
قَوَّاطِعُهُنَّ دُونَنَا أَوْ ثَقِيفَا
بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنَّا أَلُوفَا (٥)
وَنَصْبِخُ دُورَكُمْ مِنْكُمْ خُلُوفَا (٦)
يُغَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعًا كَثِيفَا (٧)
لَهَا مِمَّا أَنَاخَ بِهَا رَجِيفَا (٨)

- (١) استخف : دعاهم إلى الخفة وطاشت به حلومهم، والرعب : الفزع والخوف، و"كل جبان" هكذا وقع في بعض النسخ، ووقع في نسختين أخريين "كل جنان" والجنان : القلب.
- (٢) الجزع : ما انعطف من الوادي، وحبا : اعترض، يقال : حبا الشيء، إذا اعترض، والسوابج : هي الخيل كأنها تسبح في الماء لسهولة سيرها، ويكبون : يخرون ويسقطون، والأذقان : جمع ذقن، كسبب وأسباب.
- (٣) مقطر : مرمي على قطره، يريد واقفا على جنبه، والسنايك : جمع سنبك، وهو طرف مقدم الحافر، واللبن - بفتح اللام - الصدر.
- (٤) الحاضن : المرأة التي تحضن ولدها، وساحة الدار : وسطها، ويقال : الساحة الفناء.
- (٥) العروش هنا : سقف البيوت، وج : موضع، والخلوف : الغائبون هنا.
- (٦) السرعان : المتقدمون السابقون، وكثيفا : أراد كثيرا، وأصله الملتف بعضه ببعض، ويروى في مكانه "كثيفا" بالشين المعجمة في مكان الثاء - وهو الظاهر.
- (٧) الرجيف : هو الصوت الشديد مع زلزال، وهو من الرجفة، ويروى "وجيفا" بالواو في مكان الراء - وهو السريع، يريد تسمعون صوته بسرعة.
- (٨) القواضب : السيوف، والمرهقات : المحددة أو القاطعة، والمصطلون بها : المباشرون لها، يريد أعداءهم الذين يضربون بها.

بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضٍ مُرْهَقَاتٍ
كَأَمْثَالِ الْعَقَائِقِ أَخْلَصَتْهَا
تَخَالُ جَدِيَّةُ الْأَبْطَالِ فِيهَا

يُزِرْنَ الْمُصْطَلِينَ بِهَا الْحُتُوفَا^(١)
قُيُونُ الْهِنْدِ لَمْ تُضْرَبْ كَتِيفَا^(٢)
غُدَاةُ الزَّخْفِ جَادِيًا مَذُوفَا^(٣)

أَجَدَّهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيحٌ
يُخْبِرُهُمْ بِأَنَا قَدْ جَمَعْنَا
وَأَنَا قَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِزَخْفٍ
رَئِيسُهُمُ النَّبِيُّ وَكَانَ صُلْبًا
رَشِيدَ الْأَمْرِ ذَا حُكْمٍ وَعِلْمٍ
نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبَّنَا
فَإِنْ تَلَقَّوْا إِلَيْنَا السَّلَامَ نَقْبَلْ
وَإِنْ تَابَوْا نُجَاهِدْكُمْ وَتَضَيَّرْ
مُجَالِدُ مَا بَقَيْنَا أَوْ تَنْبِيهُوا
نُجَاهِدُ لَا نُبَالِي مَنْ لَقَيْنَا
وَكَمْ مِنْ مَعْشَرٍ أَلْبَوْا عَلَيْنَا

مِنْ الْأَقْوَامِ كَانَ بِنَا عَرِيفَا^(٤)
عَتَاقُ الْخَيْلِ وَالنُّجْبِ الطُّرُوفَا^(٥)
يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمْ صُفُوفَا
نَقِي الْقَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوفَا^(٦)
وَحَلِيمٌ لَمْ يَكُنْ نَزَقًا خَفِيفَا^(٧)
هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رُؤُوفَا
وَتَجَعَلَكُمْ لَنَا عَضْدًا وَرِيفَا^(٨)
وَلَا يَكُ أَمْرُنَا رَعْشًا ضَعِيفَا^(٩)
إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفَا^(١٠)
أَهْلَكْنَا السَّلَاحَ أَمْ الطَّرِيفَا^(١١)
صَمِيمَ الْجَذَمِ مِنْهُمْ وَالْحَلِيفَا^(١٢)

(1) العقائِق : جمع عقيقة، وهي هنا شعاع البرق، والكتيف - بالتاء المثناة - جمع كتيفة، وهي صفائح الحديد التي تضرب للأبواب وغيرها.

(2) الجدبة : الطريقة من الدم، و"غداة الزحف" أي دنو بعض.

(3) تهامة : ما انخفض من أرض الحجاز، والريب : الشك، وأجمنا : أرحنا.

(4) العريف ههنا : العارف.

(5) النجب : جمع نجيب، وهو العتيق الكريم، والطروف : جمع طرف - بكسر فسكون - وهو الكريم من الخيل أيضًا.

(6) العزوف عن الشيء : الصابر عليه المنصرف عنه، وأراد أنه عزوف عن كل ما يشين الرجال.

(7) النزق - مثل الفرع - الكثير الطيش.

(8) الريف : الموضع المخصب على الماء.

(9) الرعش : المتقلب غير الثابت.

(10) الإذعان : الانقياد في ذل، والمضيف : الذي يشفق منه ويخاف.

(11) التلبد : المال القديم، والطريف : المال المحدث.

(12) ألبوا علينا : جمعوا علينا الناس، والجذم - بكسر فسكون - الأصل.

أَتَوْتَا لَا يَرُونَ لَهُمْ لِقَاءَ
فَجَدَعْنَا الْمَسَامِعَ وَالْأُنُوفَا (١)
بِكُلِّ مُهَيَّئٍ لِّبَنٍ صَقِيلٍ
نَسُوقُهُمْ بِهَا سَوْقًا عَنيفًا (٢)
لَأْمُرِ اللَّهَ وَالْإِنْسَانَ حَتَّى
يَقُومَ الَّذِينَ مُعْتَدِلًا حَتِيفًا
وَتُنْسَى اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَوَدَّ
وَتَسْلُبُهَا الْقَلَادَ وَالشُّنُوفَا (٣)
فَأَمْسُوا قَدْ أَقْرُوا وَاطْمَأْنُوا
وَمَنْ لَا يَمْتَنِعَ يَقْبَلْ خُسُوفَا (٤)

لم يستهل الشاعر قصيدته بمقدمة طللية أو غزلية أو خمرية، بل دخل إلى الموضوع الرئيس، فذكر انتصارات المسلمين على قبائل العرب في تهامة ومكة وخيبر وحنين، وحدد الهدف القادم، وهو قبيلة دوس أو ثقيف، وثقيف بطن من هوازن، وقدم أبناء عمومتهم في حنين، ودارت الدائرة عليهم، فقد أقبل عليهم جيش عظيم مدجج بالسلاح مشتاق إلى لقاتهم ورئيسهم النبي ﷺ، وهو رسول الله ذو رأي حكيم وعلم، ونحن في طاعة الله تعالى ونبيه ﷺ، وليس أمامكم إلا أن تسلموا فتكونوا لنا عوناً وساعداً على أعداء الإسلام، فإن أبيتم جاهدناكم وصبرنا على حربكم حتى تدعنوا بالطاعة.

وليست أول من لاقينا، وقد هزمنا من هم أشد منكم قوة ومنعة، وسوف نسوقكم إلى أمر الله والإسلام حتى يكون الدين لله، وسوف تزهق عبادة الباطل اللات والعزى وود، فإن امتنعتم عن الدخول في ديننا سقيناكم ذلاً ومهانة، وصبرت الطائف للنبي ﷺ أياماً في حصونها، فاتصرف عنهم، فأتوه طائعين ودخلوا في الدين.

*** **

(١) جدعنا : قطعنا، وأكثر استعمال هذا اللفظ في قطع الأنف خاصة.

(٢) لين - بفتح فسكون - مخفف لين - بتشديد الياء مكسورة - وعنيف : ليس فيه رفق.

(٣) الشنوف : جمع شنف، وهو القرط الذي يلبس في الأذن.

(٤) الخسوف ههنا : الذل والمهانة.

الغزل

الغزل : ما يوصف به النساء من حسن وجمال وغرام بهن، والتودد إليهن، والإعجاب والشغف بهن، وعرف بأنه اللهو مع النساء في الشعر، أو رقيق الشعر في النساء، ويسمى غزلاً ونسبياً وتشبيهاً، والنسب: الرقيق منه المتغزل به في النساء، والتشبيب: التغزل بالمرأة ووصف حسناتها.

وقد ظهر هذا الفن في الجاهلية، وكان موضوع مقدمة القصيدة، فالشاعر يبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال والبكاء على بقايا الديار، ويتذكر ذكرياته مع الحبيبة وأيام الصبا، ويصف جمالها ومشيتها، وقد يصف بعض مفاتن جسدها وما يعجبه منها، ويصرح بذلك وقد تجاوز في وصفه الحسي فيصف المفاتن من جسمها وصفاً صريحاً، وقد كان الوصف في الجاهلية حسياً يصف الشاعر معالم الجسد وحركتهما.

وعد هذا تقليداً في المقدمة الغزلية التي يستهل فيها الشاعر قصيدته بالحديث عن امرأة يحبها فيصفها، ويتحسر على ذكرياته معها وفراقها، ويتوجع ويشكو بعدها وهجرها وجفائها وتمنعها، ويطلب من رفيقه أن يشاركه معاناته، ويستعطف سامعه، ويدعوه أن يسعفه بالبكاء معه على ديار الحبيب.

وظلت هذه المقدمات الغزلية تقليداً في عصر النبوة وما بعده حتى العصر الحديث، فظهرت اتجاهات حديثة تدعو إلى التخلص منها، وقد ثار عليها بعض شعراء الدولة العباسية فسخروا ممن يبكون على الربع الدارس وهو وقوف الشاعر على بقايا الديار فيستذكر ذكرياته بها، فما ضرهم لو أنهم جلسوا، وتركوا الربع وليلى جانباً؟! ولكنهم استبدلوا المقدمة الطليية التي بكى الشاعر فيها ديار الحبيب بالمقدمة الخمرية، وظلت المقدمة افتتاحية في القصيدة العربية، ووقع الاختلاف في مضمونها فقط فهي بكاء على أطلال الديار الدارسة وذكريات الحبيب، أو مقدمة خمرية خالصة موضوعها الخمر فقط، أو رثائية تنعى فقيد.

ولم يتجاوز الغزل في شعر شعراء الإسلام في عصر النبوة مقدمة القصيدة، فالظروف التي واكبت إنتاج هذه القصائد لا تناسبها القصائد الغزلية، فالدعوة الإسلامية كانت في مواجهة أعدائها، وقد جند شعراء الإسلام أنفسهم في جيوشها للدفاع عنها، فتركوا الغزل ونافحوا بشعرهم عن الله ورسوله ودينهم والمسلمين، وليست هنالك قصائد غزلية بل أبيات عرضت في مقدمات بعض القصائد الطويلة، وليس عن قصد بل تقليد لما عليه مقدمات القصائد التي ابتدأها الجاهليون.

والمرأة التي ذكرت في قصيدة كعب بن لؤي "بانت سعاد" ليست إلا رمزاً لحيرة الشاعر واضطراب

وجدانه وحاجته إلى الدفء العاطفي، فقد حرمته وعذبتة وأخلفت وعدّها وصدته، ثم تجاوز سعاد إلى الحديث عن الرحلة الشاقة إلى الأرض التي نزلت بها بعد أن هجرته^(١). وأطال كعب في الحديث عن رحلة السفر والناقة التي قطعت الرحلة، ووصف الناقة وصفاً حسيّاً دقيقاً، وتناول المعاناة والظروف القاسية التي خاضت غمارها للوصول إلى المكان، بيد أن الناقة بعد أن قطع الرحلة الشاقة لم تصل به إلى الأرض التي تسكن بها سعاد التي ابتدأ بها القصيدة بل حملته إلى المكان الذي يسكن فيه رسول الله ﷺ، ولم يعد يذكر سعاد بعد المقدمة بل ختم القصيدة بنهاية الرحلة إلى رسول الله ﷺ، فسعاد رمز للمعاناة النفسية والحيرة، والظروف التي واجهها في السفر رمز لما وقع في نفسه وهو في طريقه إلى رسول الله ﷺ، وعاقبة اللقاء به ورد فعله، والناقة كانت معبراً أو مركبة عبر بها من الشرك إلى الإيمان، وكانت هذه الرحلة التي قطعها إلى الإيمان ثقيلاً على نفسه وشاقة. ولا تشك المرأة في مقدمات حسان قيمة كبيرة، فكان يذكرها عرضاً وتقليداً، ويتركها دون أن يشتكي حبها أو هجرها ولا يألّم لفراقها، فيدعها غير آسف عليها ويدخل في موضوع قصيدة ولا يقف معها طويلاً في المقدمة ويتخلص منها في عجلة، قال في مقدمة القصيدة التي قالها في فتح مكة:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

ثم يقول بعد أن بكى ديار الشام : ذات الأصابع ، والجواء وعذراء:

فدع هذا ولكن من لطيف يورقني إذا ذهب العشاء
شعَاء التي قد تيمّته فليس لقلبه منها شفاء

فطيف الحبيب يورق الشاعر فيذهب نومه، ويتذكر شعَاء التي استولت على قلبه، وذلكته وذهبت به كل مذهب، وشعَاء امرأة مجهولة، قيل هي بنت سلام بن مشكم، قيل هي امرأة من خزاعة، وقيل لا يريد امرأة بعينها، وليست هي المرأة الوحيدة التي ذكرها بل هنالك "مى" قال حسان في مقدمة يرثي بها من قتل يوم أحد:

يا مى قومي فاندبن بسُحرة شجُو النوائح

وجاء كر "أم مالك" و "أم الوليد" وغيرهن ..

وقال حسان في رده على ابن الزبيري ، غير معتبّط بباء الديار والحبيب:

فدع الديار وأذكر كل فريدة بيضاء آنسة الحديث كعاب

أي: اترك بكاء الديار وذكر المرأة الناعمة البيضاء الحية الناهدة، وتكلم عما فعله

(١) ارجع إلى شرح القصيدة في موضوع الاعتذار ونص المقدمة .

المشركون برسول الله ﷺ.

ويكاد الشعراء يتفوقون في وصف المرأة الحسي، فيصفون منها الطول والعنق، والوجه والأسنان والخسر والردف أو العجز، ويصفون حديثها ومشيتها وتمنعها .

وقد أثر الإسلام في الشعراء، فتركوا مفاتن الجسد وما فيه خروج عن الدين، فوصفوا الخلق والحياء والدين والعفة، وتحفظوا في الحديث عن المؤمنات الحرائر العفيفات، وقد تحول الغزل في عصر النبوة من الوصف الحسي الصريح لجسد المرأة وسلوكها شبقاً إليها إلى مدح دينها وخلقها وحياتها وشرف أرومتها ونسبها وحسبها، وظهر تيار الغزل العفيف النفس من الحبيب وطيف الحبيب الذي يستبد بخيال المحب، فالحبيب يعيش مع روح حبيبه، ويتجاوز في حبه وثورة عاطفته جسد المرأة ويتجافى عن اللذة الحسية والشهوة، ويهيم في عالم الروح.

وقد مدح شعراء الإسلام ما توصف به المرأة من خلق حسن وحسن صنيع في قصائد كاملة ومن ذلك القصيدة التي مدح بها حسان رضى الله عنه السيدة عائشة يعتذر فيها عما قيل عنه أنه خاض في الحديث عنها، فوصفها بالعفة وكمال العقل. روى مسلم عن مسروق قال : دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعراً يشيب بأبيات له فقال :^(١)

حَصَانُ رَزَانَ مَا تُزْنُ بِرَبِيبَةٍ وَتَصْبِحُ غَرْنَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

وزاد البخاري أنها قالت : لكنك لست كذلك.

قال مسروق : فقلت لها : لم تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى : ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ وَهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] فقالت : وأي عذاب أشد من العمى. قالت له : إنه كان ينافح - أو يهاجي - عن رسول الله ﷺ.^(٢)

وذلك أن حسان قد خاض في حديث الإفك. وقال عروة بن الزبير : كانت عائشة تكره أن يسب عنها حسان، وتقول إنه الذي قال:^(٣)

فإن أبى ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

(1) الحديث بلفظ مسلم، كتاب الفضائل، فضائل حسان بن ثابت رضى الله عنه، ورواه البخاري.

حسان : محصنة عفيفة، رزان : كاملة العقل ومذكرهما : محصن، ورزين، ما تزن : ماتتهم، اتهمت به خيراً أو شراً، غرنى : جالعة، ورجل غرثان، ومعناه : لا تفتاب الناس، شرح النووي جـ ١٦/٤٦، ٤٧ وزاد البخاري أنها قالت له : لكنك لست كذلك، قال مسروق فقلت لها لما تأذنين له أن يدخل عليك.

(2) صحيح البخاري، باب حديث الإفك.

(3) فتح الباري ٧/٤٩٦.

ولا يحمل ما امتدحه حسان من خلق وما استحسنته فيها على معنى الغزل ومفهومه عند الشعراء، فقصيدته حسان في السيدة عائشة من باب المدح، بيد أنها سميت تشبيهاً (غزلاً)؛ لأنها قيلت في مدح الشاعر حسن خلق السيدة عائشة، وهو في عرف القدماء تشبيب وفي اصطلاح بعض المحدثين مدح. وأجاز العلماء الغزل العفيف الذي يخلو من الفحش، ووصف الجسد وصفاً صريحاً. قال العجاج : دخلت المدينة فقصدت إلى المسجد النبوي ﷺ، فإذا بأبي هريرة قد أكب الناس عليه يسألونه، فقلت : أفرجوا لي عن وجهه، فأفرج عنه. فقلت له : إني إنما أقول [يسأله عن حكمه] :

طاف الخيالان فهاجاً سَقَمًا خيالُ أروى وخيالُ تَكْتَمَا
تُريكَ وجهًا ضاحكًا ومَغْصَمًا وساعدًا عِبلًا وكعبًا أذرما

فما نقول فيه ؟ قال : قد كان رسول الله ﷺ يَنْشُدُ مثلَ هذا في المسجد فلا ينكره. (١)
فقد كانت الشعراء يفتتحون القصائد بمقدمات غزلية أو طليئة، وقد كان عرفاً في الشعر، فيدخلون منها إلى غرض القصيدة، وقد كان النبي ﷺ يسكت عن هذه المقدمات تجوزاً حتى استطاعوا أن يتحرروا مما فيها من تصريح، فكانوا ثم سخروا منها، فتركها بعضهم، وكان بعضهم يتعفف منها، فتركوا المقدمة الخمرية بعدما حرمت الخمر، وقد كان الشعراء حديثي عهد بالجاهلية، وكانت تقليداً فاشياً في الشعر العربي، ومعلماً فيه. (٢)
ولم يتوسع شعراء الإسلام في عصر النبوة في فن الغزل، ولم يقع كثيراً في شعرهم تورعاً وحياء، ولأن العصر النبوي كانت تستحوذ عليه هموم الدعوة والجهاد من أجلها، والصراع بين الإيمان والكفر وفن الغزل ينمو في سلام وسكينة وترف وملذات ومجالس طرب، وعصر النبوة يعلو على ذلك.

وما جاء منه في هذا العصر وقع في صدور القصائد أو مقدماتها، ولم يك موضوع القصيدة، وقد ترك الشعراء ما كان عليه الجاهلون وعفوا، وقد ظهر لون آخر من الغزل فيه تعفف وتحفظ ويعبر عن تجربة صادقة وحب طاهر لا تشوبه شهوة وليس فيه ذل، وليس الحب محرم فهو مما لا قسَم للإسنان فيه.

ونحمد الله تعالى أن قسمنا فيه حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وصالحى المؤمنين.

(1) العقد الفريد جـ ٥/٢٨٨.

(2) جاءت المقدمة غزلية وطللية في بعض قصائد حسان رضى الله عنه التي قالها في الإسلام. وابتدأ بها كعب بن زهير في القصيدة التي اعتذر فيها وأسلم.

خصائص الشعر في عصر النبوة

كانت المقدمة الطللية أهم ما يميز الشعر الجاهلي، وهي من التقاليد الشعرية التي صحبت الشعر في الإسلام، وابتدأ بها المحدثون في قصائدهم الطويلة، وأشهرهم رائد الإحياء محمود سامي البارودي.

ويرجع تاريخ هذه المقدمة إلى رجل يسمى عروة بن حزام ذكره في أشعار الجاهلية، وقد قيل عنه إنه أول من جود الشعر، ووضع أسسه، ومنها المقدمة، قال امرؤ القيس :

عُوجاً على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن حزام

وأصبحت المقدمة تقليداً متبعاً عند الشعراء، فالشاعر يفتتح القصيدة بوصف الأطلال (آثار الديار) والبكاء عليها.

وينتقل من وصف الطلل وبكاء آثار الديار إلى وصف الناقة أو الفرس، ومشقة السفر ليلاً أو نهاراً، ويصف مظاهر الطبيعة من حوله وتأثره بها وعلاقته بها، فيصف الناقة أو الفرس بأشياء تحيط به مثل الحيوانات والنباتات، ثم يدخل في موضوع القصيدة أو غرضه، فيمدح أو يهجو أو يفخر أو يعتب أو يعتذر أو يرثى.

ونجد هذه المقدمة في شعر الإسلام عند الشعراء حديثي عهد به، فقد بدأ بها كعب قصيدته التي اعتذر فيها للرسول ﷺ ومدحه فيه، ونجدها في بعض قصائد حسان الإسلامية الطويلة؛ لكنه لا يطيل الوقوف على الأطلال ولا يسترسل في الوصف فقد جدد فيها فأبدل ذكر الأطلال بالتغزل في وصف الرسول ﷺ وتأمل سحر جماله وبيان منطقته وكرم خلقه، ولم يصف الناقة، ولم يتبد في شعره؛ لأنه حضري.

وقد جاءت المقدمات موجزة عند حسان، ويتخلص منها في عجلة ويدخل في موضوع القصيدة، فيقول : "فدع هذا" و "فدع ذكر دار".

ويدخل في موضوع القصيدة دون إطناب. وقصيدته التي قالها في فتح مكة : "عفت ذات الأصبع فالجواء" وحديثه عن شعناء والخمر، تعد من أطول مقدماته في الإسلام، وليست إلا تقليدياً رمزياً يستهل به الشاعر قصيدته، وليست بأطول من مقدمة كعب بن زهير التي تجاوزت نصف عدد أبيات القصيدة، ولم يك كعب صاحب رصيد في الإسلام، فهي الأولى، بيد أن كعب بن مالك كان أكثر هدوءاً وأعذب لفظاً وأرق أسلوباً في شعره من حسان وكعب، فالرجل رقيق الطبع صاحب حس مرهف، لين اللفظ، وكان عبد الله بن رواحة على شاكلته، بيد أنه كان في رجزه وشعره الحماسي أشد انفعالاً وثورة، وقد كان الرجل أفضلهما ديناً وأكثرهما جهاداً بسيفه، وتميز هجاؤه في المشركين بزم الشرك والظلم

والفحش وما كان عليه المشركون من خلق ذميم، وقد أوجعهم هذا الهجاء بعد إسلامهم، فقد عيرهم بكفرهم وصدودهم وغيهم. والقصيدة الجاهلية لها علاقة قوية بالبيئة فقد تفاعلت معها وتأثرت بها، فجسدتها وصورتها، فهم يصفون رحلاتهم في الصحراء، وما يركبونه من إبل وخيل، ويشبهون الناقة في سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ويشبهونها بقوة بعض الحيوانات.

وقد وقع في القصيدة الإسلامية مثل ذلك، ولكنها لم تستطرد في الوصف ولم تتكلف الحديث عن الناقة والفرس وغير ذلك مما وصفه الشعراء كالذنب، والآرام... فالشاعر قد يقتضب في المقدمة، ليدخل إلى الموضوع شوقاً إليه وتلهفاً للحديث عنه، والأحداث الخارجية كانت سريعة التطور وليس لدى الشاعر فرصة كافية يتأمل فيها الطبيعة الرحبة وتفحص معالمها، فهم يخوضون غمار المعارك التي شغلته عن النظر في رغباتهم الشخصية، وصرفتهم عن الغزل وموضوعات الطرف الأخرى.

وتألفت القصيدة الجاهلية من وحدات موسيقية متساوية في الأبيات، وهي التي عرفت في الإسلام ببهور الشعر، وصارت علماً معروفاً، وقد وضع أسسه شعراء الجاهلية، وتعرف عليه العلماء في الإسلام. وابتكر الجاهليون القافية الموحدة في نهاية الأبيات فينتهي كل بيت بنهاية واحدة في حرف أو حرفين يعرف بحرف الروى. وقلدهم الإسلاميون في ذلك. وقد وقع بعض الاضطراب فيها، لأن علم العروض لم يظهر بعد، فالشاعر كان يقيم قصيدة على إيقاع في نفسه، فأخطأه أحياناً في بعض المواضع، ولهذا تكثر الزحافات ويكثر الإقواء (اختلاف حركة الروى عن الأصل الذي يجب أن تكون عليه). كأن يحرك الساكن، ويضم المجرور ويفتح المكسور وغير ذلك. وذلك ليحمله على حرف الروى في القصيدة، ويقع هذا نادراً. وتوجد علاقة بين الوزن وإيقاع بعض الأصوات في الطبيعة أو المحيط الذي يعيش فيه الشاعر. فقد رأى بعض العلماء أن بحر الرجز أقدم أوزان الشعر العربي، وأنه تولد من السجع، وهو مرتبط بالحذاء ووقع أخفاف الإبل في سيرها، وتولدت منه الأوزان الأخرى. وهو أكثر الأوزان شيوعاً، ويُعد وزناً شعبياً.

وهذا الرأي لا يحظى بالقبول عند بعض العلماء، لأن معظم فحول الشعراء نظموا قصائدهم المشهورة في بحر الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهجج^(١).

وأكثر الأوزان استخدامها منها الطويل؛ لأنه يسع الحكى، ثم البسيط والكامل، واستخدموا

(١) ارجع إلى العصر الجاهلي، شوقي ضيف دار المعارف ص ١٨٦.

الإيقاع العالي، والقوافي التي تنتهي بأصوات شديدة نحو الهمزة، والذال، والباء، والتاء، وسبق حرف الروى قبلها بمد ليزيدها قوة في موضعها، وقد هم الإسلاميون في هذا الإيقاع والروى.

وقد ربط بين أبيات القصائد مضمون عام، وبعضها يفتقد إلى الربط الداخلي، فالقصائد التي تعلقت بأحداث معينة فيها ترابط واتساق، والقصائد الطويلة تعددت فيها الموضوعات، فشككت كل فكرة وحدة لها صلة بما جاورها، فقد ربط كعب بين سعاد والناقة، فالناقة ستحملة إليها، وربط بين الناقة والاعتذار، فالناقة التي ستحملة إلى الأرض التي تقيم فيها سعاد، هي التي حملته إلى النبي ﷺ، فأوجد علاقة غير مباشرة بين سعاد والاعتذار، وهي علاقة بعيدة، لاختلاف الغرضين.

واتهم بعض الباحثين القصيدة العربية القديمة بالتفكك، وعدوا البيت وحدة بنسب القصيدة، أو وحدة مستقلة عما جاوره وهذا غير صحيح، فقد وجدنا ربطاً مضمونياً بين موضوعات قصائد كعب بن مالك، وربط بين أجزاء القصيدة على مستوى الشكل فاستعان بحروف العطف والتعليل والضمائر، والإشارات في الربط بين الجمل، فتماسكت البنية الداخلية.

وقد وقع تقديم وتأخير في ترتيب أبيات بعض القصائد، وقد وقع ذلك بسبب الرواية الشفوية، وكان العلماء على علم بما وقع فيه اختلاف في الترتيب، وقد كان الربط الداخلي يحول ويمنع وقوع هذا بيد أن الأبيات التي كثف فيها الشاعر المعنى وعبر فيها عن فكرة تامة، هي التي وقع في بعضها اختلاف في القصيدة؛ لأن الشاعر كان يحرص على تكثيف المعنى الذي يريده في بيت واحد.

وقد استوحى الشعراء الجاهليون والمخضرمون تشبيهاتهم وصورهم من البيئة، فشبهوا المرأة ببعض الحيوانات كالغزل والبقر الوحشي، وشبهوا وضاعة الوجه بالسيف اللامع، اقتبسوا الصور من البيئة المحيطة، وليست متكلفة ولا غريبة ولم يسرفوا في المحسنات بل كانت عابرة غير متكلفة.

وقد تأثر الشعراء بالقرآن بعد أن تمكن الإيمان من قلوبهم واستقوا من علمه ونهلوا وتعللوا منه، فحفظوا القرآن وجالسوا النبي ﷺ ولزموا حظيرته، واستمعوا درر قوله، فوقع من القرآن الكريم والحديث الشعر ما وقع في شعرهم، فاقتبسوا لفظه وشاكلوا أسلوبه، وضمنوا معانيه أشعارهم فوافقت بعض معاني أشعارهم ما جاء في القرآن الكريم، فتهذب اللفظ وسما المعنى وارتفع على غيره من لفظ الجاهلية ومضامينها.

ويُعد شعر كعب بن مالك أكثر تأثراً بأسلوب القرآن الكريم ومعناه ولفظه، فقد ضمن

شعره كثيراً من معناه، واقتبس تراكيب قرآنية وغيرَ فيها ومزجها بقوله وصاغ منها جملة جديدة تشاكل التركيب القرآني في كثير منها، واكتسب أسلوبه رقة وتهذيباً من القرآن الكريم الذي وظف تركيبه ولفظه في شعره، وتستطيع أن تصل إلى نص الآية من شعره دون مشقة فالمشاكله قريبة والاقتباس واضح.

وصحح القرآن الكريم كثيراً من مفاهيم أهل الجاهلية الباطلة، ولعبهم بالألفاظ، ولحنهم في القول ليغيروا مراد الله تعالى تضليلاً واستهزاء. قال أبو جهل بن هشام، لما ذكر الله " شجرة الزقوم " تخويفاً بها لهم قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عَجوة يثرب بالزبد، والله لئن استمكننا منها لنتزقمنها ترقماً، فأنزل الله تعالى فيه :

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾^(١) [الدخان].

وتأثر الشعراء ببعض تراكيب القرآن الكريم يقال للمتكبر : ثاني عطفه : قال تعالى (ثاني عطفه) : ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩].

وثاني الجيد للكبرياء، قال الشماخ:^(٢)

نُبِّئتُ أَن رَّبِّيْنَا أَن رَعَى إِبِلًا يُهْدِي إِلَى خَنَاهُ ثَانِي الْجِيدِ

واستحدثت ألفاظ في الإسلام بمعان حديثة، ولها أصل موجود في لغة الجاهلين، وقد تطلب ما جاء به الإسلام من معاني جديدة تعبر عن مفاهيم دينية وما استحدثه الإسلام من معنى نحو : الإيمان، والكفر، والنفاق، والصلاة، والزكاة، والحج، وهي بدلالات جديدة غير التي كانت عليها في الجاهلية، فليس للجاهلية منها إلا اللفظ، وقد استحدث الإسلام لها معنىً جديداً، فطور من دلالتها ووسع منها وانتشرت بفضلها في الخطاب اليومي، وصارت مصطلحاً له مفهوم واضح في الإسلام.

وظهرت في الإسلام صيغ جديدة على بناء مصنوع نحو : الجاهلية: مصطلح جديد عبارة عن مصدر صناعي مكون من اسم الفاعل: جاهل واللاحقة "ية". ومثله الرهبانية.

وقد أحدث في الإسلام، وهو مصطلح قرآني قال تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. و﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] و﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣] و﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦] . وهو

(1) السيرة جـ ١/٣٨٧. المهمل: كل شيء أنبته من نحاس أو رصاص، أو ما أشبهه، ويقال: هو صديد الجسد.

(2) الكامل جـ ١/١٤ (ط العصرية). يهجو الربيع بن علباء السلمى. ويقال للمائل برأسه كبيراً : متشاوس.

للتعبير عن الزمن الذي كان قبل الإسلام.^(١)

والرهبانية التي جاءت في القرآن الكريم أيضا قال تعالى: ﴿وَرَفَائِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

واستخدم الشعراء على قياسها ألفاظ أخرى نحو: "عُنْجُهيَّة" ورفاهية، قال حسان:^(٢)

ومن عاش منا عاش في عُنْجُهيَّة على شظف من عيشة المتنكِّد

وغلب على ألفاظ الجاهلية الطابع الحسي الذي يتعلق بذكر المحسوسات التي يدركها الجاهليون، فأدخل عليها الإسلام المعاني غير الحسية، فدخلت الشعر مفردات بمعان جديدة ولها دلالات واسعة ومفاهيم متعددة، فالألفاظ في القصيدة الإسلامية غزيرة المعنى واسعة الدلالة.

فقد ظهرت الألفاظ الإسلامية التي تحمل دلالة جديدة تعبر عن روح العقيدة وأسسها، وهجرت ألفاظ أخرى وثنية، ولا شك أن الإسلام ارتقى بدلالات الألفاظ، فعبرت عن المعنوي والحسي، وتحولت من التعبير عن البداوة إلى ألفاظ حضارية تحمل مفاهيم واسعة. فالشريعة التي تمنع الدواب والناس وتحجزهم عن البئر صارت أحكام الله تعالى التي تعصم المؤمنين من السقوط في المحارم والحدود.

والنفاق مشتق من النافقاء: جحر اليربوع يخدع به الصائد من يفترسه ويجعل لنفسه آخر يخرج منه، فاستخدم لقوم أبطنوا غير ما أظهروه. واشتق لفظ المؤمن من الأمان والإيمان، ويراد به التصديق، ومثله المسلم والإسلام وهما من إسلام الشيء.

والكفر في الجاهلية بمعنى الغطاء والستر، ومنه كفر الحب: وراه التراب وغطاه، وفي الشريعة: إنكار الله تعالى وجحده. والفسق من فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرها ثم صار للإفحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى. ولكل لفظ منها مفهوم محدث في الإسلام على ما كان عليه في الجاهلية. والحج في الجاهلية القصد مطلقاً، ويراد به في الإسلام زيارة بيت الحرام والطواف بالكعبة والوقوف بعرفة وأداء المناسك التي تتعلق به وشعائره بشروط. والصلاة كانت تعني الدعاء، والرحمة، والتعظيم، والترحم، والخير، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وزاد في الإسلام الصلاة المخصوصة بحركات وقراءة على نحو مفروض لا تصح بخلافه. ومثلها: الركوع لم يكن على الهيئة التي في الإسلام والسجود من سجد: طأطأ

(١) المزهري جـ ١/٣٠١.

(٢) الديوان، دار الجيل، بيروت ص ١٢٤.

رأسه وانحنى. ومنه قول الشاعر لبعيره :

فقلن له : أسجد لي ليلى فأسجدا

وذلك لتركيه، وهو في الإسلام وضع الجبهة والأنف على الأرض لله تعالى.

والصوم : الإمساك، وهو في الإسلام الإمساك عن الطعام والمحرمات لله تعالى ويشترط فيه النية.

والزكاة : تعني النماء ، وهي في الإسلام ما يدفعه المرء عن نفسه وأهل بيته بقدر حدده الشرع من كل نوع.

الدين : ما يدين به المرء من عقيدة أو ملة، وذلك في الإسلام ويعني الخضوع، والذل، ويُجمع دين على دين وأديان، فجمع دين مثل : نحل، ملل، وذلك من باب حمل الشيء على ما يفيد معناه، فقد حمل الدين على معنى النحلة، فجمعوا دين مثل جمع نحلة.

وقيل مفرد دين : دينه، والمشهور دين، ومثل الحرة : تجمع على حرائر، لأنها بمعنى الكريمة والعقيلة يجمعان على كرائم وعقائل.

وقد زاد الإسلام عليها معاني وهيئات وشروط لم تكن في دلالتها الجاهلية، فقد زاد الإسلام في دلالتها ما زاد، وهذه الزيادة تطور في دلالتها واتساع فيها وهو ما يسمى بالارتقاء اللفظي، ويقابله الاتحاط وهو يصيب دلالة اللفظ واستخدامه، فيضيق ويستعمل بدلالة محددة في مجال غير شائع أو أن يظل مستعملاً في حدود ضيقة بمعناه الأول القديم، وقد يموت اللفظ فيهجّر من الخطاب اليومي، ويصبح تراثياً، ومن ذلك الألفاظ الجاهلية التي تتعلق بالوثنية وعادات الجاهلية.

ومن الألفاظ التي زالت وهجرت المربع والنشيطه والفضول، وهي التي كان يأخذها السيد من الغنيمة في الحرب، وقد أبطلها الإسلام وجعل الخمس فقط للنبي ﷺ ينفق منه على نفسه وأهل بيته وفقراء المسلمين، ومن أتاه، ويهدي منه، فيرد فضله على المسلمين.

الصفى والصفية : ما يصطفيه الرئيس لنفسه من المغنم قبل القسمة مع الربع الذي له. وقال أبو عبيدة : الصفى أن يصطفى الرئيس لنفسه بعد الربع شيئاً كالناقة والفرس والسيف والجارية، والصفى في الإسلام على تلك الحال.

وكانت الصفايا أو يصطفيه السيد لنفسه قبل التقسيم مما يعجبه في الغنيمة، وقد بقيت الصفية في الإسلام، فأطلقت على ما اصطفاه النبي ﷺ في بعض غزواته، وخص بذلك، وكان ما يصطفيه يدخل مما له من الغنائم، وقد زال اسم الصفى بعد وفاته ﷺ، فلم يدعه أحد من خلفاء المسلمين؛ لأنه مما خص به ﷺ.

وقد اصطفى رسول الله ﷺ سيف منبه بن الحجاج يوم بدر، وهو ذو الفقار. واصطفى صفية بنت حيي بن أخطب، قيل رمى عليها رداءه لئلا يرغب في أخذها أحد؛ لأن الله تعالى أعلمه أنها ستكون زوجاً له، فاتصرف المسلمون عنها.^(١)

المرباع : ربع الغنيمة، وهو مما افتخر به سادة العرب، ومدح به الشعراء السادة.
الفضول : بقايا تبقى من الغنيمة، فلا تستقيم قسمته على الجيش لقلته وكثرة الجيش.
النشيط : ما يغنمه القوم في طريقهم التي يمرون بها، وذلك غير ما يقصدونه بالغزو.
وقد جمعها عبد الله بن عنة في رثاء بسطام بن قيس، فقال : ^(٢)

لك المرباع فيها والصفايا وحكمك والنشيط والفضول
والإتاة : ما يؤخذ ضريبة، وما يفرضه السادة على العامة، وقد عاد مؤخراً عند
المرايين وبعض المتعسفين من الحكام والشارط والخنوان : أجرة الدلال، والرشوة. وهو ما
أبطله الإسلام.

وما ترك إطلاق لفظ "رب" على السيد والزوج؛ لأنه مما خص الله تعالى في الإسلام، فقد
تورع المسلمون عنه قال الشاعر الجاهلي:^(٣)

وأسلمن فيها رب كندة وابنه ورب معد بين خبت وعرع
وكان العرب يسمون من لم يحج "ضرورة"، فترك لقول النبي ﷺ "لا ضرورة في
الإسلام". وقيل كان يقال ذلك لمن يدع النكاح تبلاً، أو الذي يحدث حدثاً، ويلجأ إلى الحرم.^(٤)
ومن ذلك قولهم "النوافج" للإبل تساق في الصداق، فكانت العرب تقول في الجاهلية
للرجل إذا ولدت له بنت : هنيئاً لك النافجة. أي: المعظمة لمالك، وذلك أنه يزوجه، فيأخذ
مهرها من الإبل، فيضمها إلى إبله، فينفجها أي : يرفعها.^(٥)

وقد استخدم الجاهليون تراكيب تركت في الإسلام لفساد معناها نحو : خبئت نفسي ،
واستأثر الله بفلان : حجراً محجوراً، وهو لمعنيين : أحدهما : الحرمان، إذا سئل الإنسان
قال : حجراً محجوراً، فيعلم السامع أنه يريد أن يحرمه. ومنه قول الشاعر:^(٦)

(1) ارجع إلى : المزهري جـ ١/٢٩٧.

(2) لسان العرب ١٤/٤٦٢، صفا، الأصمعيات ص ٢٨، والصاحب ص ٩٠، وارجع إلى : الحكم القبلي في
العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة، ط مكتبة الأنجلو، ٢٠٠٢، ص ٨٩.

(3) الخبت : المتسع من بطون الأرض، العرعر : شجر السرو. المزهري جـ ١/٢٩٧.

(4) المزهري جـ ١/٢٩٧.

(5) المزهري جـ ١/٢٩٨.

(6) المزهري جـ ١/٢٩٨ واللسان مادة : حجر وروى : حجت، والدهارير.

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدَّهَاريس

وثانيهما: الاستعاذة، كانوا يقولون في سفرهم عند الخوف، حجرًا محجورًا. أي: حرام عليك التعرض لي. وبه فسر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي: يقول المجرمون ذلك كما كانوا يقولونه في الدنيا، وكانت العرب تدعوا للمخاطب أنعم صباحًا. وأنعم ظلامًا. ويقولون للملك: أبيت اللعن!، وقد استخدم شعراء الجاهلية هذه الأدعية، وتورع عنها شعراء الإسلام، فاستبدلوها بتحية الإسلام والدعاء بالرحمة والخير وحسن العاقبة.

ومفادنا من ذلك أن الإسلام أحدث تغييرًا هائلًا في الحياة العربية فنقلها من بدائتها وبدائيتها إلى الحضارة، وجعل من العرب الذين لم يعرفوا غير سلطان القبيلة سلاطين الدنيا وحكامها قرونًا طويلة، وقد انعكس ما أحدثه الإسلام من تغيير في المجتمع على الحياة الأدبية، فانتقل الشعر من البداوة إلى الحضارة فتهذبت لغته وارتقت معانيه ورق أسلوبه وتعددت أغراضه وأهدافه واتسعت مداركه، وصار في ركاب الدعوة واحدًا من جنودها ينافح عنها، ويعلو بما فيها. (١)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

الدكتور محمود أبو المعاطي عكاشة

القاهرة - لاطوغلى

(١) انتهينا منه بالقاهرة في الاثنين، الثامن عشر من رمضان ١٤٢٥هـ، الأول من نوفمبر ٢٠٠٤م، ولكاتبه من الله الرحمة والمغفرة.

المراجع

- ١- إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، مدخل لغوي أسلوبي، الدكتور محمد العبد، دار المعارف ط/ ١٩٨٨ م.
- ٢- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، الهيئة العامة للكتاب ط ١٩٧٤ م.
- ٣- أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٢ م.
- ٤- الأدب في عصر النبوة والراشدين، الدكتور صلاح الدين الهادي ط ١/ ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.
- ٥- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، مؤسسة عز الدين مصورة من دار الكتب.
- ٦- الأوراق، محمد بن يحيى الصولي، تحقيق ج. هيورت. دن. الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ٧- الاستيعاب في ذكر أسماء الأصحاب، أبو عمر بن عبد البر.
- ٨- أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، الشريف المرتضى على نعيم الحسين الموسوي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي. ط/ ١٩٨٨ م.
- ٩- البداية والنهاية، حماد الدين بن كثير، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، دار الغد العربي ط/ ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
- ١٠- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة.
- ١١- البيان والتبيين، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، المكتبة المصرية.
- ١٢- تاريخ الأدب العربي، بلاشير، ترجمة الدكتور إبراهيم كيلاني، دار الفكر، ١٩٨٤ م.
- ١٣- تاريخ الأدب العربي، كارل بركلمان، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف ط ٤/ ١٩٧٧ م.
- ١٤- تاريخ الحكم في الإسلام دراسة في دلالة المصطلح، الدكتور محمود حكاشة مؤسسة مختار ٢٠٠١ م.
- ١٥- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، الدكتور محمود حكاشة، دار النشر للجامعات ٢٠٠٤ م.
- ١٦- تخريج الدلالات السماعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات البشرية، أبو الحسن علي بن محمد بن المعروف بالخزاعي التلمساني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.
- ١٧- تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، المكتبة التوفيقية.
- ١٨- الحكم في الإسلام، الدكتور محمود حكاشة، مكتبة الأنجلو ٢٠٠٢ م.
- ١٩- الحيوان، أبي عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ٢٠- دار الطراز في حمل الموشحات، أبي القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك، تحقيق جوده الرقاب، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ٢١- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ٢٠٠٠ م.
- ٢٢- دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو.
- ٢٣- دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة وتعليق الدكتور كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، ١٩٨٨ م.
- ٢٤- ديوان حسان بن ثابت. دار الكتب العلمية، بيروت ط ٢/ ١٩٩٤ م.
- ٢٥- الدلالة اللفظية، الدكتور محمود حكاشة، الأنجلو المصرية ٢٠٠٢ م.
- ٢٦- ديوان امرئ القيس، صادر، بيروت.
- ٢٧- ديوان زهير بن أبي سلمى، صادر، بيروت.
- ٢٨- ديوان لبيد بن ربيعة، صادر، بيروت.
- ٢٩- ديوان النابغة الذبياني، صادر، بيروت.

- ٣٠- ديوان النابغة الجعدي ، صادر، بيروت .
- ٣١- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، عد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي، مكتبة الكليات الأزهرية، مؤسسة مختار.
- ٣٢- سيرة النبي ﷺ، أبو عبد الملك بن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث.
- ٣٣- شرح ديوان كعب بن زهير، صنعه الإمام أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله، ط١٣٦٩، ١٩٥٠م. الدار القومية للطباعة والنشر.
- ٣٤- شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ، جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، تحقيق محمود حسن أب ناجي. ط/ ١٤٠١هـ ١٩٨١م، الوكالة العامة للتوزيع - دمشق.
- ٣٥- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي، دار القلم، بيروت .
- ٣٦- الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار إحياء العلوم، بيروت.
- ٣٧- الصاحبي، علي بن فارس، تحقيق أحمد صقر، مكتبة عيسى الحلبي، ١٩٧٧م.
- ٣٨- صحيح البخاري، بحاشية السندي، دار إحياء الكتب العربية.
- ٣٩- صحيح مسلم، بشرح النووي، هيئة المطابع الأميرية.
- ٤٠- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام، دار المدني، جدة.
- ٤١- العقد الفريد، أحمد بن عمر بن عبد ربه الأندلس، تحقيق ثلاثة من العلماء، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ٤٢- العصر الجاهلي، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف ١٩٧٧م.
- ٤٣- علم الاسلوب مبادئ وإجراءاته، صلاح فضل، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٨٥م.
- ٤٤- علم الدلالة، الدكتور أحمد مختار عمر، عالم للكتب القاهرة.
- ٤٥- العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ط٥/ ١٩٨١م.
- ٤٦- فتح الباري، بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار التقوى، القاهرة.
- ٤٧- القاموس المحيط عى الدين بن يعقوب الفيرو آبادي، الهيئة العامة للكتاب ط١٩٧٧م، ١٣٩٧هـ.
- ٤٨- الكتاب، سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ٤٩- الكليات، معجم في المصطلحات و الفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي. مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ ١٩٨٨م.
- ٥٠- لذة النص، رولان بارت، ترجمة محمد خير البقاعي، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨م.
- ٥١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم، تحقيق الدكتور محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية. لبنان، ط١٤١٦هـ ١٩٩٥م.
- ٥٢- المدائح النبوية في الأدب العربي، دكتور زكي مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م.
- ٥٣- مدخل إلي التحليل النبوي للقصص، رولان بارت، ترجمة، دكتور منذر عياشى، مركز الإنماء الحضار ط٢٠٠٢م.
- ٥٤- مضمون المدحة النبوية زمن البعثة، الدكتور أحمد محمد النجار، دار القرآن، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
- ٥٥- زهر الآداب وثمر الآليات ، إبراهيم بن علي الحصري، تحقيق البماوى، ط٢، عيسى الحلبي وشركاه ودار الفكر.
- ٥٦- الزهر في علوم اللغة، جلال الدين السيوطي، تحقيق ثلاثة من المحققين، دار التراث ط٣.
- ٥٧- معجم الشعراء، المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط٢٠٠٣م.

- ٥٨- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان ١٩٨٤م.
- ٥٩- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، تحقيق مجموعة من العلماء، الهيئة العامة لقصور الثقافة ط٤
٢٠٠٣م.
- ٦٠- المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، وليم راى، ترجمة د. يوثيل يوسف، دار المأمون ط١.
- ٦١- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١٤٠٧هـ
١٩٨٧.
- ٦٢- مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق السيد صفير، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ٦٣- الموازنة بن أبي شعر أبي تمام والبحترى، لأبي القاسم بن بشر الأمدي، تحقيق السيد أحمد صفير، ط٤، دار
المعارف بمصر.
- ٦٤- الموطأ، للإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- ٦٥- نظرية التلقى، روبرت هومبيلت، ترجمة الدكتور عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي، جدة ١٩٩٤م.
- ٦٦- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق نصر الله حاجي، دار صادر
ط١/ ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
- ٦٧- الوزراء والكتاب محمد بن عبدوس الجهشيارى، تحقيق ثلاثة من العلماء، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ٦٨- الوشى المرقوم في حل المنظوم، ضياء الدين بن الأثير، الدكتور جميل سعيد، ط٢.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٢	الإهداء
٥	المقدمة
٧	الإسلام والشعر
١٣	حكم قول الشعر شرعاً
٢٥	الشعر في عصر النبوة
٣٩	شعراء عصر النبوة
٧٨	موضوعات الشعر
٨٧	أغراض الشعر في عصر النبوة
٨٩	- المديح
١٠٨	- الاعتذار
١٣٥	- الفخر
١٤٨	- الرثاء
١٦٣	- الهجاء
١٧٨	- الحماسة
٢١٤	- الغزل
٢١٨	خصائص الشعر في عصر النبوة
٢٢٦	المراجع
٢٢٩	الفهرس

